

مِنْ بَلَاغَةِ الْإِنْشَاءِ غَيْرِ الطَّلَبِيِّ فِي
الْبَيَانِ النَّبَوِيِّ

دِرَاسَةٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ

(رسالة ماجستير)

تأليف

د/ وفاء عبد الموجود عطية معوض

١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
رَبِّ يَسِّرْ وَأَعْزِزْ
إِلَيْكَ قَصْدِي وَعَلَيْكَ
تَوَكَّلِي

إهداء

. إلى سيدنا رسول الله —

صلى الله عليه وسلم

. إلى روح الإمامين الجليلين

(البخارى ومسلم)

المقدمة

- وتشمل العناصر التالية : —
- . أهم الـدوافع إلى اختيار الموضوع .
 - . أهمية البحث في الموضوع .
 - . منهج البحث في الموضوع .
 - . خطة البحث في الموضوع .

المقدمة

الحمد لله بمجامع حمده التي لا يُبلغ منتهاها ، والشكر له على آلائه ، وإن لم يكن أحد أحصاها ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة محقق أصولها محيط بمعناها ، وأشهد أن محمدا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حل من ربا النبوة أعلاها فعلاها ، وحمل من أعباء الرسالة إدّها فاضطلع بها وأدّاها ، فجلا الله به عن البصائر ريّنها وعن الأبصار عشاها ، صلى الله عليه من الصلوات أفضّلها وأزكاها ، وأبلغه عنا من التحيات أكملها وأولاها ، ورضى الله عن عثرته وأزواجه وصحابته ما سَفرت شمس عن ضحاها ، وبعد

فهذه دراسة بلاغية للون من ألوان البلاغة العربية وأسلوب من أساليبها ، وهو الإنشاء غير الطلّي ، في أشرف بيان بعد كلام الله — عز و علا — وهو بيانه الشريف — صلى الله عليه وسلم .

هذا وقد أضرب البلاغيون صفحا عن دراسة هذا الأسلوب على كثرة وروده في القرآن الكريم وكلام العرب ؛ لذا يُمّت الدراسة وجهها شطر البيان النبوي بهدف دراسة هذا الأسلوب دراسة بلاغية ، تحاول الوقوف على هيئة جريان هذا الأسلوب على لسانه — صلى الله عليه

وسلم — وكيف جاء ملائما المقام موفيا بحق الحال ، وذلكم هو الشغل الشاغل لدارسى البلاغة العربية .

وهناك عدة صعوبات تقف أمام من يريد أن يدخل إلى عالم البيان النبوى ، ففيه جانب من الوحي ، وكلامه — صلى الله عليه وسلم — وإن كان كلام بشر فإن معانيه ومقاصده وغاياته كلها تختلف عما في كلام البشر من معان ومقاصد وغايات ، ولهذا كانت لجة الحديث عميقة الغور يتهيب المرء شاطئها ناهيك عن أعماقها ، ألم يقل ربنا : — تبارك تعالى (ثم إن علينا بيانه) (القيامة / ١٩) و (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) (النحل / ٤٤) فالسنة الشريفة وحي من الوحي ؛ لذا يحتاط في فقه مرامى تراكيبها ، واستكشاف أسرار أبنيتها .

ثم إن في البيان النبوى صعوبة أخرى ، وهى تعدد الروايات للحديث الواحد بزيادة ونقصان وتقديم وتأخير ، واختلاف في الصيغ والألفاظ ؛ لذا كانت التبعة على من يتعامل مع البيان النبوى أشد ، والمهمة أشق .

يضاف إلى ذلك أن شروح نصوصه لا تعنى باستنباط اللغة والغوص وراء أسرار البيان النبوى قدر عنايتها باستخلاص حكم شرعى أو أخلاقى أو عقدى مع أن الوسيلة إلى ذلك لا بد أن تمر بفهم لغة الحديث أولا ، وبالدرجة الأولى .

وإذا كانت المخاطر قائمة وماثلة في التعامل مع البيان الشريف فحسبى أننى لم أدخر وسعا في النظر الدقيق إلى مواضع أقدامى عدة مرات قبل أن أخطو أى خطوة إلى عالمه ، متثبة في فقه البيان النبوى بمقالات السلف من علماء الأمة ، ووراء ذلك ما وراءه من متاعب ومشاق .

وكان وراء اختياري هذا الموضوع بواعث عدة منها : —

أولا : الرغبة في معايشة البيان النبوى الشريف ، لأنه أرقى بيان بعد كلام الله — عز و علا — وأعظم الدرس البلاغى ما توفر على دراسة الأساليب المعجزة ، وكذلك التوفر على فقه بلاغة من أوتى جوامع الكلم .

ثانيا : خلو مكتبة الدراسات البلاغية النبوية من بحث حول هذا الموضوع.

ثالثا : الرغبة في دراسة موضوع جديد طريف أنال به درجة التخصص

(الماجستير) في اللغة العربية في البلاغة والنقد .

وتتضح أهمية البحث في الموضوع مما يلي : —

أولا : أن هذا اللون من الألوان البلاغية لم ينل حظه من الدرس البلاغى ، والذى نجده في كتب القدماء عبارة قصيرة حيث يقولون : ومن الإنشاء غير الطلبي القسم ونعم وبئس دون أن يذكروا شواهد لذلك ، مع أنه قد كثر وروده في الذكر الحكيم والحديث النبوى الشريف وكلام العرب .

ثانيا : أن هذه الدراسة تسهم في إثراء مكتبة الدراسات البلاغية بكثير من الشواهد لهذا اللون

ثالثا : إثراء البيان النبوى بالكشف عن مقاصده ومراميه .

هذا وقد ارتضيت المنهج التحليلى طريقا قمضى الدراسة عليه إذ هو المنهج الملائم للبحث فى هذا الموضوع ، وسيكون تناولى هذه الألوان لا بالنظر فى الأسلوب معزولا عن سياقه الذى ورد مغروسا فيه ، بل يكون تناولى الأسلوب بالنظر إلى تفاعله مع تراكيب الحديث وسياقه ، والكشف عن ملاءمته الحال ومطابقته المقام ، وكيف لم يف أسلوب سواه بأداء الغرض الذى ورد الأسلوب محل الدراسة من أجله ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يخرج فى مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة وفهرس لأساليب الإنشاء غير الطلى فى البيان النبوى ، وثبت بالمصادر والمراجع وفهرس للموضوعات .

المقدمة : لأهمية البحث فى الموضوع وأهم الدوافع إليه ، ومنهج البحث فيه ، وخطته .

التمهيد : وتحت عناصر عدة (البلاغة النبوية وأهم مميزاتها — انقسام الكلام إلى خبر وإنشاء — أقسام الأسلوب الإنشائى — عدم عناية البلاغيين بالإنشاء غير الطلى — أنواع الإنشاء غير الطلى (أسلوب المدح والذم — رب — كم الخبرية — فعلا التعجب — الترجى — صيغ العقود — القسم — بعض أفعال المقاربة)

الفصل الأول : الترجى وتحت (خروج الترجى إلى الاستفهام — خروج الترجى إلى التحقيق — خروج الترجى إلى الظن — خروج الترجى إلى التعليل — خروج الترجى إلى الدعاء — الترجى فى معناه الحقيقى)

الفصل الثانى : أساليب متنوعة وتحت (أسلوب المدح والذم — أسلوب التعجب — أسلوب رب — أسلوب كم)

الفصل الثالث : القسم ومواقعه فى البيان النبوى ، ويقوم تقسيم هذا الأسلوب على حسب المقامات التى ورد فيها مثل (القسم فى مقام التأديب — فى مقام الإنكار — فى مقام الترهيب — فى مقام تطيب النفس — فى مقام الزجر والمنع) وغير ذلك من المقامات المبينة فى تضاعيف البحث .

الخاتمة : وهى لأهم نتائج البحث .

هذا وفى كل ما مضى أمهد للأسلوب بدراسة نحوية موجزة أؤسس بها لدرس الأسلوب بلاغة ، وأتأمل مواقع الأساليب وارتباطها بالسياق وملاءمتها الحال ، ولم يشغلنى فى هذا البحث تبيان غريب الألفاظ إلا ما استغلق معناه فإنى أجعل تفسيره فى الحاشية ، لا فى صلب البحث ولم أشتغل كذلك بشرح المعانى العامة للأحاديث ولا بما يتعلق بها من أحكام فقهية أو عقدية لسهولة الوقوف على ذلك فى شروح الحديث ، وإنما محضت الدراسة للعناية بالأسلوب وأثره فى المعنى ، وقد أوليت التركيب

الذى ورد الأسلوب فيه جل العناية بالشرح والتحليل ، وكشفت عن دقة بناء عناصره ودورها فى تأدية الغرض .

وبعد فما بين دفتى هذا السفر هو غاية الجهد وأقصى الوسع ، فما كان من توفيق فمن الله وحده ، وإليه يرجع الفضل ، وما كان من خرق فحسبى أننى بشر أخطئ وأصيب ، وحسبى أننى اخترقت طريقا مخوفا ، وسلكت سبيلا غير معبد ، وإن رحمة الله سبقت غضبه ، وإن عفوه غلب عقابه ، فمنه أطلب العفو والصفح ؛ إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أتوجه بخالص الشكر والتقدير والعرفان بالجميل لكل من أسدى إلى نصحا أو أهدى إلى عيبا أو أعاننى ، عملا بما ورد فى الأثر " من لم يشكر عبدا أجريت النعمة على يديه لم يشكرنى ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

د/ وفاء عبد الموجود عطية معوض

التمهيد

وتحتته :

- . أولا :البلاغة النبوية .(الألفاظ — المعاني —
الأسلوب)
- . أهم مميزاتها (الإيجاز — الابتكار — مطابقة مقتضى
الحال)
- . ثانيا :انقسام الكلام إلى خبر وإنشاء
- . أقسام الأسلوب الإنشائي
- . عدم عناية البلاغيين بالإنشاء غير الطلبي
- . أنواع الإنشاء غير الطلبي (أسلوب المدح والذم —
رب — كم الخبرية — فعلا التعجب — الترجي —
صيغ العقود — القسم — بعض أفعال المقاربة)

• البلاغة النبوية

كان الرسول — صلى الله عليه وسلم — آية في فصاحة القول ، وسحر البيان ، بل كان أبلغ العرب قاطبة ، ولقد كانت فصاحته — صلى الله عليه وسلم — أثرا طبعيا لأسباب توفرت لها ، ونتيجة حتمية لمقدمات أدت إليها .

فقد نشأ — صلى الله عليه وسلم — في أفصح القبائل وأخلصها منطقا ، وأعذبها بيانا ، فكان مولده في بني هاشم ، وأحواله من بني زهرة ، ورضاعه في سعد بن بكر ، ومنشؤه في قريش ، ومتزوجه في بني أسد ، ومهاجرته إلى بني عمرو (وهم الأوس والخزرج من الأنصار) لم يخرج عن هؤلاء في النشأة واللغة ، ولقد كان في قريش وبني سعد وحدهم ما يقوم بالعرب جملة ؛ لذا قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : "أنا

أعربكم أنا من قريش ، واسترضعت في بني سعد بن بكر " (١) وقال :
 " أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش " (٢)

أما السر الأعظم في فصاحته — صلى الله عليه وسلم — فهو
 التوفيق والإلهام الإلهي لأن يكون — صلى الله عليه وسلم — أفصح
 العرب ، قال تعالى : " وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم
 تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما " (النساء / ١١٣) فقد علمه
 الله من أشياء كثيرة ما لم يكن يعلم ، حتى لا يعيا بقوم إن وردوا عليه ،
 ولا يحصر إن سألوه ، ولا يكون في كل قبيل إلا منهم ؛ لتكون الحجة به
 أظهر ، والبرهان على رسالته أوضح .

ولقد امتازت البلاغة النبوية بأنه ليس من شئ أنت واجده في كلام
 الفصحاء ، وهو معدود من ضروب الفصاحة ومتعلقاتها إلا وجدته في

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد مج ١ ج ١ / ٧١ ط التحرير ، البداية والنهاية لابن كثير ٢ / ٢٧٧
 ط دار الفكر ، المغنى عن حمل الأسفار للعراقي في تخريج ما في الإحياء من أخبار ٢ / ٣٦٤ ط عيسى
 الحلبي ، كثر العمال في ستن الأقوال والأفعال للمتقى الهندى (٣١٨٨٤) ط دار التراث الإسلامى ،
 الأسرار المرفوعة لعلى القارى ١١٦ ط مؤسسة الرسالة ، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من
 الأحاديث على ألسنة الناس للعجلونى ١ / ٢٣٢ ط مكتبة دار التراث ، يراجع موسوعة أطراف
 الحديث الشريف محمد السعيد زغلول ٢ / ٥٠٧ ط دار الكتب العلمية بيروت .

(٢) الحديث فى الشفاء بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض ١ / ١٧٨ ط الفارابى ، المغنى عن حمل
 الأسفار للعراقي ٢ / ٣٦٤ ، الأسرار المرفوعة لعلى القارى ١١٧ ، كشف الخفاء للعجلونى ١ / ٢٣٢ ،
 ٢ / ٨٥٠ ، ويراجع موسوعة أطراف الحديث الشريف ٢ / ٥٠٧ .

كلامه — صلى الله عليه وسلم — على مقدار من الاعتبار يفرد به بالميزة ويخصه بالفضيلة .

الألفاظ

أما ألفاظه — صلى الله عليه وسلم — فهي مألوفة مأنوسة الاستعمال إلا حين يقتضى المعنى لفظاً يناسبه ، فيختار الرسول — صلى الله عليه وسلم — اللفظ الأقل إلهاً ، ولكنه ينأى عن الغريب الوحشى ، وعن السوقى المبتذل ، وألفاظه جزلة حين يقتضى المعنى الجزالة ، رقيقة حين يتطلب المعنى الرقة ، وفي الحالتين هي واضحة الدلالة على معانيها ، كل كلمة تعبر بدقة عن تمام معناها ، مستقرة في مكانها من الجملة من غير اضطراب ولا نبو ، ولعل تعبير اللفظ عن تمام المعنى المراد ، واستقراره في مكانه من الجملة من أشق ما يعانیه البليغ ، ومن أدل الدلائل إن وفق إليهما على قدرته البيانية .

المعاني

ومعانيه — صلى الله عليه وسلم — صحيحة ، لحمتها الصدق ، وسداها الحكمة والحق ، بعيدة عن الخيال ، مزهة عن المواربة والخلابة والتمويه .

الأسلوب

وأسلوبه — صلى الله عليه وسلم — سهل ، لاتعقيد فيه ولاالتواء ،
أخذ بحظه الوفير من البيان موجز حيث لا يحمد إلا الإيجاز ، مبسوط
حين يقتضى المعنى البسط ، فطرى مطبوع .

أهم مميزاتها

أولاً: الإيجاز : ومن مميزات البلاغة النبوية تلك التى ذكر النبى — صلى
الله عليه وسلم —

أن الله ميزه بها ، وأعطاه إياها ، وهى جوامع الكلم ، وهى عبارات
موجزة حكيمة تتضمن كل عبارة منها معانى كثيرة مع الوفاء بالمعنى الذى
تضمنته كقوله : — صلى الله عليه وسلم — " الظلم ظلمات يوم القيامة
(١) و " رحم الله عبدا قال خيرا فغنم ، أو سكت فسلم " (٢) و "

(١) رواه البخارى كتاب المظالم باب الظلم ظلمات يوم القيامة ط عيسى الحلبى ، ومسلم كتاب السير
والصلة والآداب باب تحريم الظلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ط دار الحديث ١٩٩١ م ، والترمذى
كتاب البر والصلة باب ما جاء فى الظلم تحقيق الشيخ أحمد شاكر ط دار الكتب العلمية بيروت ، وأحمد فى
مسنده كتاب مسند المكثرين من الصحابة باب باقى المسند السابق ط دار الفكر ، والدارمى فى سننه
كتاب السير باب فى النهى عن الظلم ط دار الكتب العلمية ١٩٩٦ م .

(٢) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ١/ ١٧٤ ، المغنى عن حمل الأسفار للعراقى ٣/ ١٠٧ ، موارد الظمآن
للهميشى ١٢٨ ط السلفية ، كشف الخفاء للعجلونى ١ / ٥١٤ ، إتحاف السادة المتقين للزبيدى فى شرح
إحياء علوم الدين ٧ / ٤٥٣ ، ٥٧٩ ، ط بيروت ، ، يراجع موسوعة أطراف الحديث محمد السعيد
زغلول ٥ / ١٣١ .

المؤمن مرآة أخيه" (١) و"اليد العليا خير من اليد السفلى" (٢) و " أربعة من كنوز الجنة : كتمان الصدقة والمرضى والمصيبة والفاقة" (٣) و " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك" (٤) و " احترسوا من الناس بسوء الظن" (٥) .

ثانيا : الابتكار : ومما امتازت به البلاغة النبوية وضعه — صلى الله عليه وسلم — لمفردات وتراكيب جديدة كقوله في صفة الحرب يوم حنين :

-
- (١) رواه أبو داود في سننه كتاب الأدب باب في النصيحة والحياطة ط دار الحديث ١٩٨٨ م ، ورواه الترمذى في صحيحه كتاب البر والصلة باب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم
- (٢) رواه النسائي في سننه كتاب الزكاة باب : أيتهما اليد العليا ط دار الريان ١٩٨٧ م والدارمي في سننه كتاب الزكاة باب في فضل اليد العليا ، ورواه أحمد في مسنده كتاب مسند المكثرين من الصحابة .
- (٣) الحديث في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٣ / ١٨٦ ط بيروت ، للآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي
- ٢ / ٢١٢ ط دار الكتاب العربي بمصر ، كتر العمال رقم (٤٣٤٢٠) يراجع موسوعة أطراف الحديث ٤٦٥/١ .
- (٤) رواه الترمذى في صحيحه كتاب صفة القيامة والرفائق والورع ، والنسائي في سننه كتاب آداب القضاة باب الحكم باتفاق أهل العلم ، وكتاب الأشربة باب الحث على ترك الشبهات ، وأحمد في مسنده كتاب مسند أهل البيت باب حديث الحسن بن علي .
- (٥) الكامل في الضعفاء لابن عدى ٦ / ٢٣٩٨ ط دار الفكر بيروت ، ميزان الاعتدال رقم (٨٦٣٥) ط عيسى الحلبي ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي ٨ / ٨٩ ط القدس ، المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لابن حجر ٧٠١ ط التراث الإسلامي ، كشف الخفاء للعجلوني ١ / ٥٦ ، السلسلة الضعيفة للألباني ١٥٦ ط المكتب الإسلامي ، يراجع موسوعة أطراف الحديث ١٣٩/١ .

"الآن هي الوطيس" (١) وقوله في حديث الفتنة : " هدنة على دخن " (٢) وقوله: " رفقا بالقوارير " (٣) وقوله: " إياكم وخضراء الدمن ، قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء " (٤) وقوله لأبي تميمة الهجيمي : " إياك والمخيلة ، فقال:

(١) طبقات ابن سعد مج ٢ ج ١/٩٣ ، ١٠٩ مج ٤ ج ٢/٣ ، المعجم الكبير للطبراني ٣٥٨/٧ ط العراق ، دلائل النبوة للبيهقي ٣٦٩/٤ ، ١٣٢/٥ ، ١٣٩ ط دار الكتب العلمية ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧٠/٤ ط الشعب ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي ١٨٢/٦ ، المطالب العالية حديث (٤٣٧٣) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ٢٢٦/٣ ط دار الفكر ، وكتر العمال للمقفي الهندي أحاديث رقم (٢٩٩١٧) (٢٩٩٢١) (٣٠٢١١) (٣٠٢٢٥) يراجع موسوعة أطراف الحديث ٢٠٠/٤ والحديث أيضا في النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢٠٤/٥ تحقيق د/محمود الطنحاني وآخر ط دار إحياء التراث العربي .

(٢) رواه أبو داود في سننه كتاب الفتن والملاحم باب ذكر الفتن ودلائلها ، وأحمد في مسنده كتاب باقى مسند الأنصار حديث حذيفة بن اليمان .

(٣) رواه البخارى في صحيحه كتاب الأدب باب المعارض مندوحة على الكذب ، ومسلم في صحيحه كتاب الفضائل باب رحمة النبي للنساء ، وأحمد في مسنده كتاب باقى مسند المكثرين باب باقى المسند السابق .

(٤) الأحكام النبوية في الصناعة الطبية للكحال ٢٢/٢ ط الحلبي ، المغنى عن حمل الأسفار للعراقي ٤٢/٢ ، تلخيص الحبير لابن حجر ١٤٥/٣ ط الفتن المتحدة ، الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة للسيوطي ٥٦ ط الحلبي ، جمع الجوامع للسيوطي حديث رقم (٩٣٢٦) ط مجمع البحوث الإسلامية ، كتر العمال (٤٥٦١٥) (٤٤٥٨٧) تذكرة الموضوعات للفتنى ١٢٧ ط بيروت الأسرار المرفوعة في الأحاديث المرفوعة لعلى القارى ١٣٨ ، ١٣٩ ، كشف الخفاء للعجلوني ٣١٩/١ ، إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٣٤٨/٥ ، ٨٩/٩ ، الفوائد المجموعة للشوكاني ١٣٠ ط السنة المحمدية ، السلسلة الضعيفة للألبانى ١٤٤ ، يراجع موسوعة أطراف الحديث ١٤٦/٤ .

يارسول الله نحن قوم عرب فما المخيلة ؟ قال : سبل الإزار" (١) إلى غير ذلك من الأوضاع التي ابتدعتها أفصح العرب — صلى الله عليه وسلم — في هذه اللغة ابتداء ، ولم تسمع من أحد قبله ، ولا شاركه في مثلها أحد بعده .

ثالثا : مطابقة كلامه مقتضى الحال : ومن مميزات البلاغة النبوية علمه — صلى الله عليه

وسلم بالسنة العرب ، ومخاطبته كل أمة بلسانها ، حتى قال له على بن أبي طالب ، وقد سمعه يخاطب وفد بني همدان : يارسول الله نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لانفهم أكثره ، فقال — عليه الصلاة والسلام — " أدبني ربي فأحسن تأديبي" (٢) ، (٣) .

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب اللباس والزينة باب تحريم جر الثوب خيلاء ، وأبو داود في سننه كتاب اللباس باب ما جاء في إسبال الإزار ، وأحمد في مسنده كتاب مسند المكثرين من الصحابة مسند عبد الله بن عمر ، وأول مسند المدنيين أجمعين باب حديث رجل من قومه .

(٢) كثر العمال (٣١٨٩٥) تذكرة الموضوعات للفتي ٨٧ ، كشف الخفاء للعجلوني ٧٢/١ ، الفوائد المجموعة للشوكاني ٣٢٧ ، السلسلة الضعيفة للألباني ٧٢ ، تراجع موسوعة أطراف الحديث ١٩٠/١ .

(٣) راجع في هذا المبحث : تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي ٣٤٢/٢ : ٢٧٩ ط ٢ بيروت ١٣٩٤ / ١٩٧٤ م ، وبلاغة الرسول د / علي محمد حسن العماري ط دار الأنصار بالقاهرة ، والبيان النبوي د / محمد رجب البيومي ط دار الوفاء بالمنصورة ١٤٠٧ / ١٩٨٧ م وقد استخلصت هذا الكلام من هذه المراجع وجعلته كالتيذة بين يدي البحث .

انقسام الكلام إلى خبر وإنشاء

ينقل السيوطي آراء كثيرة للعلماء في تقسيم الكلام ، فمن العلماء من يقسم الكلام عشرة أقسام ، ومنهم من يقسمه تسعة أقسام ، ومنهم من يقسمه سبعة أقسام ، ومنهم من يقسمه ستة أقسام ، ومنهم من يقسمه خمسة أقسام ، ومنهم من يقسمه أربعة أقسام ، وكثير منهم يقسمونه ثلاثة أقسام غير أنه قد ذكر أن حذاق النحاة وأهل البيان قاطبة على انحصار الكلام في الخبر والإنشاء وأنه ليس له قسم ثالث (١) وقد ذكر الدكتور أبو موسى أن الأقسام التي نقلها السيوطي يدخل بعضها في بعض ، وأنها محاولات غير دقيقة وأن الصواب ما عليه حذاق النحويين وأهل البيان (٢)

على أي حال كلها محاولات في عصور متقدمة قبل أن تستقر تقسيمات العلوم ، أما الآن فقد استقرت المصطلحات ، وأصبح انقسام الكلام إلى خبر وإنشاء موضع اتفاق بين العلماء .

(١) الإنشاق في علوم القرآن للسيوطي ٩٧،٩٨/٢ ط مصطفى الخليلي الرابعة ١٩٧٨ م .

(٢) دلالات التراكيب الدكتور / محمد أبو موسى ص ٩٤ نشر مكتبة وهبة ط ١٩٨٧/٢ م .

أقسام الأسلوب الإنشائي

بالنظر في الأساليب الإنشائية نجد أن منها ما يقتضى مطلوباً غير حاصل وقت الطلب ، وهو ما يسمى بالإنشاء الطلبى ، كأساليب الأمر والنهى والنداء والتمنى والاستفهام .

ومنها ما لا يقتضى مطلوباً غير حاصل وقت الطلب كصيغ العقود ، وبعض أفعال المقاربة ، وأساليب المدح والذم ، والقسم ، والتعجب ، ورب ، وكم الخبرية ، وهو ما يسمى بالإنشاء غير الطلبى .

وقد حصر البلاغيون أنواع الإنشاء الطلبى فى التمنى والاستفهام ، والأمر والنهى والنداء . وبين سعد الدين التفتازانى وجه هذا الحصر فقال : " لأنه إما أن يقتضى كون مطلوبه ممكناً أو لا . الثانى : التمنى ، والأول : إن كان المطلوب به حصول أمر فى ذهن الطالب فهو الاستفهام ، وإن كان المطلوب به حصول أمر فى الخارج ، فإن كان ذلك الأمر انتفاء فعل فهو النهى ، وإن كان ثبوته ، فإن كان بإحدى حروف النداء فهو النداء ، وإلا فهو الأمر " (١)

أما أنواع الإنشاء غير الطلبى فهى محل خلاف بين العلماء ، وسأتناول كل نوع على حدة ، مبيّنة الراجح من آراء العلماء ، وما ستسير عليه هذه الدراسة بعون الله .

(١) المطول لسعد الدين التفتازانى ٢٢٤ ، ٢٢٥ ط تركيا بدون تاريخ .

عدم عناية البلاغيين بالإنشاء غير الطلبي

لقد وجه البلاغيون عنايتهم للإنشاء الطلبي ، بل إن التعبير بالإنشاء في مقابل الخبر لم يعرف في مصنفات البلاغيين قبل الخطيب القزويني ، وإنما كان الطلب قسيم الخبر ، فهذا السكاكي يقول : " والسابق في الاعتبار في كلام العرب شيان : الخبر والطلب المنحصر بحكم الاستقراء في الأبواب الخمسة التي يأتيك ذكرها " (١)

ويأتي الخطيب القزويني " فيستبدل الإنشاء بالطلب ، وكأنه وجد أنماطاً من الكلام لا يستوعبها هذا التقسيم ، مثل أساليب المدح والذم ، والتعجب ، وصيغ العقود وأفعال المقاربة ، والقسم والتقليل برب ، والتكثير بكم ، فهي ليست أخباراً ، ولا طلباً ، فاختار لفظ الإنشاء في مقابل الخبر ، وأدخل فيه هذه الأساليب ، وأسمها إنشاءً غير طلبي ، على أنه لم يفصل الكلام في الإنشاء غير الطلبي ، ويأتي شراح التلخيص ، فيتحدثون عن الإنشاء غير الطلبي ، وإن كان حديثهم عنه مقتضياً " (٢)

وفي العصر الحديث من يذهب إلى أن النحو العربي أحوج ما يكون إلى أن يدعى لنفسه هذا القسم من أقسام البلاغة الذي يسمى علم

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ص ٩٢ ط الخليلي ، والمصباح في المعاني والبيان والبيدع لبدر الدين بن مالك ص ٨٣ تحقيق د/ حسني عبد الجليل ط مكتبة الآداب بدون تاريخ ، والبيان في علم المعاني والبيدع والبيان لشرف الدين الطيبي ١٦٤ تحقيق د/ هادي عطية مطر الهلالي ط عالم الكتب أولى ١٩٨٧ م .

(٢) محاضرات في علم المعاني د/ محمد الأمين الحضري و آخرين ٧٦ ، ٧٧ دون دار نشر ولا تاريخ .

المعاني ^(١) حتى إنه ليحسن أن يكون علم المعاني قمة الدراسات النحوية أو فلسفتها إن صح التعبير ^(٢)

وقد علل البلاغيون القدماء عدم عنايتهم بالإنشاء غير الطلبي بأن الإنشاء الطلبي كثير المباحث موفور الدقائق بخلاف قسمه فإنه في الأكثر أخبار نقلت إلى الإنشاء ، وحينئذ يستغنى بأبحاثه الخيرية عن الإنشائية ؛ لأنها تنقل مستصعبة لما يرتكب فيها في الخيرية ^(٣)

وقد وضع ذلك أحد أهل العلم قائلا : " ليست أساليب الإنشاء غير الطلبي مما تتوارد عليها المعاني ، فالقسم هو القسم والتعجب هو التعجب والمدح والذم وبقية الباب ،

وهذا لايعني أنه ليس للتعجب والقسم مواقع متقنة وفاعلة في النفس فعل أقوى الأساليب ، و أدخلها في بحث البلاغة ، ولكن هذا داخل في الباب العام ، وهو دقة المطابقة وما وراءها من لطف الاعتبار ، وخفى الملاحظة "

" ^(٤)

^(١) بالطبع يندرج الأسلوب الإنشائي تحته .

^(٢) اللغة العربية منهاهاو معناها ص ١٨ د / تمام حسان ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ثانية ١٩٧٩ م ، وفلسفة البلاغة بين التقنية والتطور ص ١٢٠ د / رجاء عيد ط منشأة المعارف بدون تاريخ .

^(٣) شروح التلخيص ٢ / ٢٣٦ ، ٢٣٧ ط دار الكتب العلمية ، المطول ٢٢٤ ط تركيا ، والأطول للعصام ١ / ٢٣٢ ط المطبعة السلطانية و خلاصة المعاني ل محمد بن الحسين المقي ٢٢٦ تحقيق د / عبد القادر حسين ط الناشر العرب بدون تاريخ . وحاشية الدسوقي على مختصر السعد ٢ / ٢٣٦ مطبوع ضمن شروح التلخيص .

^(٤) دلالات التراكيب د / محمد أبو موسى ١٩٢ .

والبحث في مطابقة الكلام مقتضى الحال هو روح البلاغة ،
ويمكن التماس سبب آخر وراء ترك البلاغيين البحث في الأساليب
الإنشائية غير الطلبية ، هو أن الإنشاء الطلبى يتداخل فيه علما المعاني
والبيان ، فالبيان من حيث استعمال الأمر والاستفهام وغير ذلك في المعاني
المجازية ، فكأنهم أولوا اهتمامهم مافيه كثير مباحث ، وليس في الإنشاء
غير الطلبى شئ من هذا ، غير أنه يشترط فيه ما يشترط في كل أسلوب
من ضرورة مطابقته مقتضى
الحال ، ولو كانت دراسة هذا الباب مقصورة على بيان مطابقته مقتضى
الحال في كل موقع له لكفى ذلك داعيا لتناوله بالدراسة .

أنواع الإنشاء غير الطلبي

أولاً: أسلوب المدح والذم:

ذهب جمهور البلاغيين إلى عد أسلوب المدح والذم من الإنشاء

غير الطلبي^(١)

وقد خالف البعض ما عليه الجمهور قال ابن السبكي " نعم الرجل زيد ، قد يقال إنه خير ، ويستدل على هذا بوقوع نعم خير إن في قوله تعالى : " إن الله نعماً يعظكم به " (النساء / ٥٨) ووقوعها جواب قسم في قوله تعالى : " ولنعم دار المتقين " (النحل / ٣٠) وكذلك بنس في قوله تعالى : " وليبس ما شروا به أنفسهم " (البقرة / ١٠٢) ، ويوجه العلامة السبكي قول كثير من النحاة أن نعم وبنس لإنشاء المدح والذم ، فيذكر أن هذا القول لا ينافي ما ذهب إليه لجواز أن يريدوا دلالتها على ذلك الناشئة بالإخبار " (٢)

وكذلك نجم الدين الاسترأبادي يعترض على كون فعلى المدح والذم إنشاء معللاً باعتراضه باحتمالهما الصدق والكذب باعتبار نفس الخبر ، وإن لم يحتملا باعتبار المدح والذم ، ومن ثم لما بشر أعرابي بنت فقيـل : نعمت المولودة ، قال : والله ما هي بنعمت المولودة " (٣)

(١) شروح التلخيص ٢/ ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، المطول ٢٢٤ ، الأطول ١/ ٢٣٢ ، وخلاصة المعاني للحسن بن الحسين المقي ٢٢٥

(٢) عروس الأفراح ٢/ ٢٣٤ : ٢٣٦ ضمن شروح التلخيص .

(٣) شروح التلخيص ٢/ ٢٣٥ .

وقد رد العلامة محمد بن علي الجرجاني ما ذهب إليه الاسترأبادي بأن " فعل المدح

ليس نسبته التي هي صورة اللفظ مسبقة بنسبة أخرى للمدح حتى يكون بين النسبتين المطابقة وعدمها ، ويكون خيرا فيكون إنشاءً " (١) وهذا الرد بناء على تعريفه للإنشاء بأنه كلام لفظه سبب لنسبة غير مسبقة بنسبة أخرى ، أما بناء على تعريف الأدباء أن الإنشاء : هو الكلام الذي لا يحتمل الصدق والكذب ، فلأن هذه الأفعال لا تحتملها باعتبار النسبة التي هي صورة الكلام بل باعتبار ما لأجله تلك النسبة ، أي الصفات الحمودة والمذمومة في فعلى المدح والذم " (٢)

وهو رد جيد يطمئن إليه الفؤاد في عد أسلوب المدح والذم من الإنشاء غير الطلي ، إذ هذا الأسلوب عبارة عن استحسان أو استقباح ، وليس في الاستحسان والاستقباح احتمال للصدق والكذب ، والأولى في مثل هذا الخلاف اتباع ما عليه الجمهور من عده من الإنشاء غير الطلي .

(١) الإشارات والتنبيهات محمد بن علي الجرجاني ١٠٣ تحقيق د/ عبد القادر حسين ط دار لمحة مصر بدون تاريخ .

(٢) الإشارات والتنبيهات ١٠٢ .

ثانيا : (رب)

ذهب البعض إلى أن أسلوب (رب) خبرى ، يقول السبكي : " وأما نحو : ربما نصحك عمرو ، فلا إشكال في كونه خبرا " (١) ويقول العصام : " رب وإن كان لإنشاء التقليل في جزء الخبر لكن لا يخرج به الكلام عن احتمال الصدق والكذب ، ولا يتعدى الإنشاء منه إلى النسبة ، فعد الشارح إياهما من الإنشاء ليس كما ينبغي " (٢)

وذهب البعض الآخر إلى أن أسلوب رب يحتمل الإنشاء والخبر ، باعتبار أنك إذا قلت : رب جاهل في الدنيا ، فالمراد أنك تظهر كثرة الجاهلين ، ولا يعترضك تكذيب ولا تصديق في ذلك الاستكثار ، وإن كان يعترض باعتبار وجودهم في الدنيا ؛ نظرا لمدلول قولك في الدنيا ، والحاصل أنه باعتبار نسبة الظرف إلى الجاهل كلام خبرى يحتمل الصدق والكذب ، وأما باعتبار استكثار المتكلم إياهم فلا يحتملها لأنه إنما استكثرهم ، ولم يخبر عن كثرتهم ، لكن المتبادر أنها للإخبار ، وأن الغرض الإخبار بالكثرة ، لا مجرد إظهار الاستكثار ، وحينئذ فيعرض التصديق والتكذيب " (٣)

(١) عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي ضمن شروح التلخيص ٢/ ٢٣٦.

(٢) الأطول للعصام ١/ ٢٣٢.

(٣) مواهب الفتح للمغربي ٢/ ٢٣٧ ضمن شروح التلخيص ، حاشية الدسوقي على مختصر السعد ٢/ ٢٣٦.

وذهب آخرون إلى أن (رب) من الإنشاء غير الطلبي (١) والذي يمكن الاطمئنان إليه أن أسلوب (رب) من الإنشاء غير الطلبي ؛ باعتبار الاسكتار أو التقليل ليس فيه بهذا الاعتبار احتمال تصديق ولا تكذيب ، واعتبار هذا الأسلوب من الإنشاء غير الطلبي هو مذهب كثير من العلماء ، وهو ما ستسير عليه هذه الدراسة بعون الله .

ثالثا : كم الخبرية

ذهب ابن الحاجب في أماليه إلى أن قولك : " كم رجال عندي . " يحتمل الإنشاء والإخبار ، أما الإنشاء فمن جهة التكثير ؛ لأن المتكلم عبر عما في باطنه من التكثير بقوله : رجال ، والتكثير معنى محقق ثابت في النفس ، لا وجود له من خارج ، حتى يقال باعتباره إن طابق فصدق ، وإن لم يطابق فكذب ، ويحتمل الإخبار باعتبار العندية ، فإن كونهم عنده له وجود من خارج ، فالكلام باعتباره يحتمل الصدق والكذب ، فهو كلام محتمل للأمرين باعتبار الاحتمالين المذكورين " (٢)

وذهب البعض الآخر إلى أنها تفيد الإخبار فقط ، وقد رد السبكي كلام ابن الحاجب قائلا : " هذا الكلام ضعيف ، والذي يظهر القطع به أن هذا خبر ؛ لأن التكثير ليس المعنى به جعل القليل كثيرا ، حتى يكون السائل معنيه اعتقاد الكثرة الواقع في النفس ، والتعبير عن ذلك

(١) مختصر السعد ضمن شروح التلخيص ٢ / ٢٣٦ ، والمطول ٢٢٤ ، وخلاصة المعاني ٢٢٦ .

(٢) عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي ٢ / ٢٣٦ .

بكم إخبار عن أمر خارجي ، وإنما نعين بقولنا : الخبر له خارج ما كان خارجا عن كلام النفس ، فنحو " طلبت القيام " حكم نسبته لها خارج بخلاف " قم "

كما صرح به ابن الحاجب وغيره ، فقولنا : كم رجال عندى على الأول من الاحتمالين اللذين ذكرهما إخبار عن اعتقاد الكثرة كقولك : اعتقدت هذا كثيرا ، فليس من الإنشاء في شيء ، وعلى الاحتمال الثاني إخبار عن الكثرة في الخارج ، وقوله : لأن المتكلم عبر عما في باطنه يستلزم أن يكون نحو : وأبغضت زيدا ، وعزمت على كذا إنشاء ، ولا قائل به ، وقوله : إن التكثر معنى ثابت في النفس لا وجود له من خارج صحيح ، لكن المراد بالخارج ما سبق " (١)

واعترض على كون أسلوب (كم) من الإنشاء أيضا نجم الدين الاسترأبادي والعصام في الأطول (٢)

ومن العلماء من ذهب إلى أنها تفيد الإنشاء غير الطلبي فقط (٣) ، ومنهم محمد بن علي الجرجاني فهو يقول : " كم الخبرية ليست نسبة التكثر التي هي صورة المركب مسبقة بنسبة التكثر ؛ لتعبر المطابقة

(١) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ٢ / ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٢) الإشارات والتنبيهات محمد بن علي الجرجاني ١٠٢ الأطول للعصام ١ / ٢٣٢ .

(٣) الإشارات والتنبيهات ١٠٢ ، ١٠٣ ، المطول ٢٢٤ ، خلاصة المعاني ٢٢٦ ، حاشية الدسوقي على مختصر السعد ٢ / ٢٣٦

بينهما ، ويكون خيرا فيكون إنشاء " (١) وهذا مبني على تعريفه الإنشاء بأنه كلام لفظه سبب لنسبة غير مسبوق بنسبة أخرى ، أما بناءً على تعريف الأدباء فالأن " كم لا تحتمل الصدق ولا الكذب باعتبار النسبة التي هي صورة الكلام ، بل باعتبار ما لأجله تلك النسبة ، وهو أصل الخبر ، وهذا لا يقدح في كونها إنشاء ، فإنه مامن إنشاء إلا ويحتملها بوجه ما ، فإن من وضع الاستفهام مثلا في غير موضعه يصح أن يكذب اعتباره وكذا غيره من أنواع الإنشاء " (٢)

والذى يطمئن إليه القلب من هذه الآراء رأى محمد بن على الجرجاني ؛ لقوة حجته ، فوق أنه رأى جماعة من العلماء الذين لهم قدم راسخة في الفن .

رابعاً : فعلا التعجب

يرى بعض العلماء أن فعلى التعجب من أقسام الخبر على الأصح (٣) ويرى نجم الدين الاستراباذى أن فعلى التعجب يحتملان الصدق والكذب باعتبار ما لأجله التعجب ، وإن لم يحتملا باعتبار نفس التعجب ، وقد رد محمد بن على الجرجاني كلامه بأن نسبة التعجب في فعلى التعجب التي هي صورتها ليست مسبقة بنسبة أخرى للتعجب حتى

(١) الإشارات والتبهيئات ١٠٣ .

(٢) الإشارات والتبهيئات ١٠٣ .

(٣) الإتيان في علوم القرآن للسيوطي ٩٩ / ١ .

تعتبر بينهما المطابقة وعدمها ، وأن هذه الأفعال لا تحتل الصدق والكذب باعتبار النسبة التي هي صورة الكلام ، بل باعتبار ما لأجله تلك النسبة أى الصفات الخارجة عن العادة المألوفة فى فعلى التعجب (١) وبهذا يكون الجرجاني من الذين يعدون فعلى التعجب من الإنشاء ، وبهذا قال كثير من العلماء (٢) وهو ما ستسير عليه هذه الدراسة بعون الله .

(١) الإشارات والتنبيهات ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٢) الأطول للعصام ١ / ٢٣٢ ، وحاشية الدسوقي على مختصر السعد ٢ / ٢٣٦ .

خامسا : الترجي

لم يختلف البلاغيون في أن الترجي من الإنشاء ؛ لذا نقل القرافي في الفروق الإجماع على أن الترجي من الإنشاء (١) ولكن الخلاف في كونه من الإنشاء الطلبي أم من غير الطلبي ، والذي عليه جمهرة العلماء أنه من غير الطلبي بدليل أنه يأتي في المكروه نحو : لعل الحبيب مريض ، ولا طلب في المكروه (٢)

وكثير من النحاة على أنه من الإنشاء غير الطلبي ، وآية ذلك أنهم يشترطون نصب المضارع المقترن بفاء السببية حين تستخدم لعل بمعنى ليت ، ومعلوم أن المضارع إذا اقترن بالفاء لا ينصب إلا إذا سبق بطلب محض ، والبلاغيون يعدون النصب دليلا على استخدام لعل في الطلب كليت (٣)

(١) الإتقان للسيوطي ٢ / ١٠٦ .

(٢) يراجع المطول ٢٢٤ ، والأطول ٢ / ٢٣٢ ، ومواهب الفتح ٢ / ٢٤٥ ، وخلاصة المعاني ٢٢٦ ، وحاشية الدسوقي على مختصر السعد ٢ / ٢٤٥ ، ومن الخلدئين علوم البلاغة لأحمد مصطفى المراغي ٦١ ط الثالثة دار الكتب العلمية ١٩٩٣م ، بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعدي ٢ / ٣٢ ط مكتبة الآداب ، وجواهر البلاغة للسيد أحمد الهاشمي ٦١ ط السادسة دار الكتب العلمية ، وأساليب بلاغية د/ أحمد مطلوب ١٠٧ وما بعدها ط الكويت ١٩٨٠م ، والمعاني في ضوء أساليب القرآن د / عبد الفتاح لاشين ١٤٨ ، ١٤٩ ط الثانية دار المعارف ١٩٧٧م ومعاني التراكيب د/ عبد الفتاح لاشين ٢ / ٧٢ ط المطبعة الإسلامية بدون تاريخ ، وعلم المعاني د/ عبد العزيز عتيق ٧٢ ، ٧٣ ط دار النهضة العربية ١٩٨٥م ولطائف المعاني في ضوء النظم القرآني د / عبد الله هندوي ٥٥ ط الأمانة ١٩٨٧م والبلاغة فنونها وأفناها د/ فضل حسن عباس ١٤٨ ط الثانية دار الفرقان الأردن ١٩٨٩ م .

(٣) راجع حاشية الشيخ خالد علي شرح المعنى ١ / ٢٢٢ ، ٢٢٣ بتصرف ط عيسى الحلبي .

وفريق آخر يرى أنه من الإنشاء الطلبى ، فلا فرق عندهم بين التمنى والترجى من حيث أن كلا منهما إنشاء طلبى (١) ويوضح ذلك أحد المحدثين فيقول : " وإذا كان ثمة فرق بينهما فهو لمصلحة الترجى ؛ ذلك أن التمنى طلب المستحيل أو الممكن البعيد ... أما الترجى : فطلب الممكن القريب ... وإذا كان التمنى والترجى يشتركان فى أنهما طلب ، فلا وجه لفصل أحدهما عن الآخر ، يجعل التمنى إنشاء طلبيا ، والترجى إنشاء غير طلبى ، علما بأن مفهوم كل منهما يجعل الترجى أدخل فى الإنشاء الطلبى من التمنى ؛ لأنه أقرب إلى التحقق من التمنى ، وبناء عليه يكون الطلب به طلبا لمأمول لا طلبا لمستحيل أو لممكن غير مأمول ...

ومن طريف ما قرأت فى تبرير جعل الترجى من الإنشاء غير الطلبى قول الشيخ عبدالمتعال الصعیدی : " ومن الإنشاء غير الطلبى الترجى ، ويرى كثير من العلماء أنه من الإنشاء الطلبى ، والحق أنه لا طلب فيه بدليل أنه يأتى فى المكروه نحو : لعل الحبيب مريض ، ولا طلب فى المكروه " أما أنه لا طلب فيه ، فالمعنى اللغوى للرجاء ينفيه ، جاء فى أساس البلاغة مادة رجو ، أرجو من الله المغفرة ، ورجوت فى ولدى الرشد ، وأتيت رجاء أن يحسن إلى ، ومن الدليل على أن الرجاء كالتمنى فى أن كلا منهما طلبى

(١) عروس الأفراح ٢ / ٢٣٧ ، وتقرير الأجهورى على حاشية الباجورى على متن السمرقندية ٥٧ ط المطبعة الخيرية ١٣٩٣ ، والبيان فى روائع القرآن د / تمام حسان ط عالم الكتب الأولى ١٩٩٣ م ، واللغة العربية مبناها ومعناها د / تمام حسان ط الثانية الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٩ م .

قول الزمخشري عاطفا على ما سبق : ورجيتى حتى ترجيت ، كقولك :
منيتى حتى تمنيت ، أما لعل الحبيب مريض ، فالرجاء هنا بلاغى بمعنى
الخشية والخوف، لكأنه قال : أخشى أو أخاف أن يكون الحبيب مريضا ،
وهاهو ذا الزمخشري يعطف ثانية بقوله : ومن المجاز استعمال الرجاء فى
معنى الخوف " (١)

ويمكن الرد على ذلك ؛ لأنه ليس فيما ذكر حجة قوية ، فهذا
أبو البقاء الكفوى يقول : " الترجى : ارتقاب شئ لا وثوق بحصوله " (٢)
ويقول الراغب الأصفهاني : " الرجاء ظن يقتضى حصول ما فيه
مسرة " (٣) ، ويأتى البلاغيون فيفسرون الارتقاب بأنه يشمل المحبوب ،
ويقال له طمع ، نحو : لعلك تعطينا ، ويشمل المكروه ، ويقال له إشفاق ،
نحو : لعلى أموت الساعة " (٤)

ومن هنا يتبين أن قولنا : رجوت فى ولدى الرشد ، وأتيت رجاء
أن يحسن إلى ، وأرجو من الله المغفرة ، قول لا طلب فيه بل فيه ترقب
حصول شئ ، ولأن الشئ المرتقب شئ محبوب يقال له طمع .

(١) البلاغة الاصطلاحية د/ عبده عبدالعزيز قلقيلة ١٤٩ : ١٥٠ ط الثانية دار الفكر ١٩٩١ م .

(٢) الكليات لأبي البقاء الكفوى ٤٦٨ ، ٤٦٩ تحقيق د / عدنان درويش ، ومحمد المصرى ط مؤسسة الرسالة ثانية ١٤١٣ .

(٣) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهاني مادة (رج و) تحقيق محمد سيد كيلان ط مصطفى الحلبي ١٩٦١ م

(٤) مواهب الفتاح ٢ / ٢٤٥ ، حاشية الدسوقي على مختصر السعد ٢ / ٢٤٥ .

أما لعل الحبيب مريض ، فلا داعى لقول القائل أن الرجاء هنا مجازى ، فقد أوردت المعاجم اللغوية معانى الرجاء ومنها الخوف ، وهكذا استعمله العرب الفصحاء ، ففي مختار الصحاح " قد يكون الرجاء والرجاء بمعنى الخوف ، قال الله: — تعالى — (ما لكم لا ترجون لله وقارا) أى لا تخافون عظمة الله ، وقال أبو ذؤيب :

إذا لسعته لم يرج لسعها

أى لم يخف ولم يبال (١) وفي المفردات ذكر الراغب الآية الكريمة وقال إن ترجون : لا تخافون ، وأنشد :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وحالفها في بيت نوب عوامل

ووجه ذلك أن الرجاء والخوف يتلازمان (٢) وبدهى أن مرض الحبيب أمر مكروه لا يطلب بوجه من الوجوه ، فالأولى اتباع ما عليه جمهرة العلماء من عده من الإنشاء غير الطلبي ، ومن أقوى الأدلة على ذلك أن البلاغيين يوردون قول الله : — تعالى — (وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا ...) (غافر / ٣٧) فى استعمال لعل فى التمنى مجازا ، فلو كان الترجى طلبا أصلا ، لما عدوا استعماله فى التمنى مجازا ، وقد تواردت

(١) مختار الصحاح للرازى مادة (رجا) دراسة وتقديم د / عبد الفتاح البركاوى ط دار المنار بدون تاريخ .

(٢) المفردات للراغب مادة (رجو) .

كتب البلاغيين على ذكر الآية الكريمة ، في استعمال الترجي في التمني مجازاً.

سادساً : صيغ العقود ، والقسم ، وبعض أفعال المقاربة .

الجمهور على عد هذه الأساليب من الإنشاء غير الطلبي (١) ، وذكر العلماء أن الإنشاء إنما يظهر في بعض أفعال الشروع والمقاربة ، وهي أفعال الرجاء كعسى وحرى واخلولق ، وأما جعل مطلق أفعال المقاربة للإنشاء فلا يصح ، فنحو : " كاد زيد يخرج ، طفق زيد يخرج " يحتمل التصديق والتكذيب " (٢)

وعلى الرغم من أن القرافي نقل الإجماع على أن القسم إنشاء ، وفائدته تأكيد الجملة الخبرية ، وتحقيقها عند السامع ، على الرغم من هذا ، فإن ابن جني ذهب إلى أن القسم نوع من الإخبار يفيد توكيد جملة خبرية بأخرى فيقول : " أعلم أن القسم ضرب من الخبر يذكر ليؤيد به خبر آخر " (٣) وستسير هذه الدراسة على ما عليه جمهرة العلماء من عد هذه الأساليب من الإنشاء غير الطلبي .

(١) الإشارات والتنبيهات ١٠١ ، وشروح التلخيص ٢ / ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، المطول ٢٢٤ ، الأطول ١ / ٢٣٢ ، خلاصة المعاني ٢٢٦ ، حاشية الدسوقي على مختصر السعد ٢ / ٢٣٦ .

(٢) الأطول ١ / ٢٣٢ ، وحاشية الدسوقي على مختصر السعد ٢ / ٢٣٦ .

(٣) اللمع في العربية لابن جني ٢٤١ تحقيق حامد المؤمن ط النهضة المصرية ١٩٨٥ م ، الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢ / ١٠٧ .

الخلاصة

وبعد هذه الدراسة لأساليب الإنشاء غير الطلبى يتبين ما يلى :

أولاً : أن من هذه الأساليب ما هو من الإنشاء غير الطلبى باتفاق وهى (صيغ العقود — القسم — بعض أفعال المقاربة " عسى ، حرى ، اخلولق ")

ثانياً : أن منها ما اتفق على أنه من الإنشاء ، واختلف فى كونه طلبياً أو غير طلبى ، وهو الترجى ، والراجح أنه من الإنشاء غير الطلبى ، كما مضى بيانه .

ثالثاً : أن منها ما اختلف فيه أمن الخبر هو أم من الإنشاء ، أم يحتملها وهى أساليب (المدح والذم — ورب — وكم الخبرية — أفعال التعجب) والذى يمكن الاطمئنان إليه أن الخلاف فى كونها من الإنشاء أم من الخبر لا داعى له ؛ لأنها فى الأصل أخبار ثم نقلت إلى الإنشاء ، ووضعت موضعه ، وهذا ما صرح به كثير من البلاغيين ، كما مضى بيانه ، كما رجح كثير من العلماء ، أنها من الإنشاء غير الطلبى ، وهو ما تمضى عليه هذه الدراسة بعون الله .

الفصل الأول

(الترجى)

وتحته: —

أولا : الترجى فى معناه الحقيقى .

ثانيا : خروج الترجى إلى معان مجازية

أولا : خروج الترجى إلى الاستفهام.

ثانيا : خروج الترجى إلى التحقيق.

ثالثا : خروج الترجى إلى الظن.

رابعا : خروج الترجى إلى التعليل.

خامسا: خروج الترجى إلى الدعاء.

توطئة

سبق أن ذكرت أن العلماء اتفقوا على أن الترجي من الإنشاء ، واختلفوا أهو من الإنشاء الطلبي أم من غير الطلبي ؟ وقد اخترت أنه من الإنشاء غير الطلبي .

ولقد نحوت نحو كلام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فوجدت الترجي يأتي في كلامه الشريف على طرائق متنوعة على الحقيقة حيناً وعلى المجاز أحياناً ، وقد رأيت الترجي يخرج إلى معان مجازية ، منها الاستفهام والتحقيق (اليقين) والظن والتعليل والدعاء .

هذا وقد جاء الترجي في كلامه — صلى الله عليه وسلم — بأداتيه (لعل وعسى) وقد حاولت في هذا الفصل استشراف إيجاءاته ومراميه في الكلام الشريف ، كما حاولت الكشف عن مطابقتها المقام وملاءمته الحال ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ، ومما ينبغي التنبيه إليه الفرق بين لعل وعسى ، وقد أوجز أحد الباحثين الكلام في الفرق بينهما نقلاً عن أهل العلم حيث قال : " فرق العلماء بين لعل وعسى بأمور : —

أولاً : بعد أن ذكروا أن التوقع أقوى من الطمع قالوا : ويستعمل في المتوقع فيه (لعل) وفي المطموع فيه (عسى) خلافاً للعز بن عبد السلام فقد ذكر أن (لعل) للترجي ، (وعسى) للتوقع^(١)

(١) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع إيجاز للعز بن عبد السلام ٢٥ ، ٢٦ ط دار الحديث ، والكلبيات لأبي البقاء الكفوي ٤٦٩

ثانيا : أن (عسى) للرجاء والطمع سواء كان توقع الحصول عن قريب أو بعيد ، أما (لعل) فقد ذكروا أنها لادنو فيها اتفاقا^(١) من أجل هذا قالوا : عسى هي موضوعة لرجاء دنو الخير بل لطمع حصول مضمون الخير مطلقا سواء يرجى حصوله عن قريب ، أو بعد مدة مديدة^(٢) ثالثا : أن عسى تقع في الرجاء كثيرا ، وفي الإشفاق قليلا ، لذا قال الراغب : لعل طمع وإشفاق وعسى طمع وترج ، وكذا قال ابن فارس^(٣)

رابعا : اتفق النحاة على أن لعل حرف واختلفوا في عسى على ثلاثة أقوال :

الأول : أنها فعل في كل حال سواء اتصل بها ضمير الرفع أم ضمير النصب ، أم لم يتصل بها واحد منهما ، وهو قول نحاة البصرة ، ورجحه المتأخرون .

الثاني : أنها حرف في جميع الأحوال سواء اتصل بها ضمير الرفع أم لم يتصل بها ، وهو قول جمهور الكوفيين وثلث و ابن السراج .

(١)مقاييس اللغة لابن فارس مادة (ع س ي) و (ل ع ل) تحقيق عبد السلام هارون ط دار الجيل واللسان لابن منظور مادة

(ع س ي) و (ل ع ل) ط دار المعارف بمصر ، و الكليات ٦٣٥ .

(٢) الكليات ٦٥٧

(٣) المقاييس لابن فارس و المفردات للراغب مادة (ع س ي) والبحر المحييط لأبي حيان ١٣٤ / ٢ ط دار الفكر ١٣٩٨ هـ

الثالث :أنها حرف إذا اتصل بها ضمير نصب وفعل فيما عدا ذلك ، وهو قول سيبويه شيخ النحاة (١).

وربما وقع الخلاف من عدم تصرف عسى وللکفوى تعليل لطيف قاله بعد الحديث عن كاد قال : بخلاف عسى حيث لم يتصرف فيه إذ لم يأت منه إلا الماضى لتضمنه معنى الحرف أعنى لعل ، وهو إنشاء الطمع والرجاء والإنشاءات فى الأغلب من معانى الحروف ، والحروف لايتصرف فيها وكذا فى معناها (٢)، وهذا ينتج فرقا آخر وهو الفرق الخامس خامسا : أن لعل أم الباب وعسى محمولة عليها ، لذا لا تتكاثر مواقعها ومعانيها تكاثر مواقع لعل ومعانيها . (٣)

وقد بدأت فى هذا الفصل بالترجى المستعمل فى معناه الحقيقى ، لأن الاستعمال الحقيقى هو الأصل ، ثم ثنيت بالترجى المستعمل فى معانيه المجازية باعتبار أنها المعانى الثوانى.

(١) عدة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك محمد محى الدين عبد الحميد ٣٠٢/١ ط المكتبة العصرية بيروت

(٢) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى ٢٨٦/٣ ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٥ هـ والکليات ٦٥٧

(٣) ينظر فى هذا الفرق الترجى فى آى من الذكر الحكيم دراسة بلاغية بحث مستل من حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة ١٩٩٧ ص ١٢ ، ١٣ للدكتور إبراهيم صلاح الهدهد .

أولا : الترجى فى معناه الحقيقى

عن أبى بكره — رضى الله عنه — عن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان ، أى شهر هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليس ذو الحجة ؟ قلنا : بلى ، قال : فأى بلد هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليس البلدة ؟ قلنا : بلى ، قال : فأى يوم هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليس يوم النحر ؟ قلنا : بلى ، قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا ، وستلقون ربكم فسيألكم عن أعمالكم ، ألا فلا ترجعوا بعدى ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب ، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه ^(١)

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب العلم باب قول النبى — صلى الله عليه وسلم — رب مبلغ أوعى من سامع وكتاب المغازى باب حجة الوداع وكتاب الأضاحى باب من قال الأضحية يوم النحر وكتاب التوحيد باب قول الله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة)

قوله "فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه" الترجي هنا على بابه لمطابقة الخبر الواقع ، وقد جاء أسلوب الترجي تذييلا لأخبار مهمة ذكرها الرسول — صلى الله عليه وسلم — واستخدم أسلوب الاستفهام طريقا بلاغيا لتأكيد مراده — صلى الله عليه وسلم — ليقبلوا عليه بكليتهم ، وليعلموا عظم المخبر به ، وتكرار الاستفهام يؤكد هذا الخبر (حرمة الدماء والأموال والأعراض) وقد جاء أسلوب الترجي ذروة تأكيد هذا الخبر ، وفي استخدام أسلوب الترجي هنا إثارة لأنفس الحاضرين على حفظ هذا الخبر ، وإلهابا لهم على وعيه وتبليغه ، فوق أن فيه أدبا جما فبالرغم من أن ما ذكره الرسول — صلى الله عليه وسلم — يخص البعض ولا يخص الكل إلا أنه — صلى الله عليه وسلم — أورده بلعل حتى لا يجبه الحضور بقلّة الوعي وقلة الفهم ، فأظهره في صورة المتوقع.

عن أبي سعيد الخدري — رضى الله عنه — قال : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يخطب بالمدينة قال : " يا أيها الناس إن الله — تعالى — يعرض بالخمير ، ولعل الله سيزل فيها أمرا ، فمن كان عنده منها شئ فليبيعه ولينتفع به " قال : فما لبثنا إلا يسيرا حتى قال النبي — صلى الله عليه وسلم — " إن الله — تعالى — حرم الخمر فمن ، أدركته هذه الآية ، وعنده منها شئ فلا يشرب ، ولا يبيع

" قال : فاستقبل الناس بما كان عنده منها في طريق المدينة فسفكوها " (١)

قوله : " ولعل الله سيزل فيها أمرا " لعل هنا على باهما من التوقع ، فقد توقع — صلى الله عليه وسلم — نزول شيء في أمر الخمر ، وهذا التوقع وهذا التعريض فهم من قوله تعالى : " يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما . . . " (البقرة / ٢١٩) ومن قوله : — تعالى — " يأيتها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون . . . " (النساء / ٤٣) " وذلك أنه لما سمع — صلى الله عليه وسلم — أن فيهما إثما كبيرا ، وأن إثمهما أكبر من نفعهما ، وأنه قد منع من الصلاة في حال السكر ، ظهر له أن هذا مناسب للمنع منها فتوقع ذلك " (٢) وتعبيره — صلى الله عليه وسلم — بأسلوب التوقع جاء متناسبا مع قوله : إن الله — تعالى — يعرض بالخمر ، إذ أن المناسب للتعريض استخدام أسلوب التوقع ، لا أسلوب الجزم ، فوق ما فيه من أدب النبوة من عدم الجزم بالأمر المستقبلية.

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب المساقاة باب تحريم بيع الخمر

(٢) المفهم للقرطبي ٤ / ٤٥٥ .

عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن ضمادا قدم مكة ، وكان من أزد شنوءة ، وكان يرقى من هذه الريح ، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون : إن محمدا مجنون ، فقال : لو أنى رأيت هذا الرجل ، لعل الله يشفيه على يدي ، قال : فلقيه ، فقال : يا محمد إني أرقى من هذه الريح ، وإن الله يشفى على يدي من شاء فهل لك ؟ فقال : رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أما بعد : قال : فقال : أعد على كلماتك هؤلاء ، فأعادهن عليه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثلاث مرات ، قال : فقال : لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة وقول الشعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بلغن ناعوس البحر ، قال : فقال : هات يدك أبايعك على الإسلام ، قال : فبايعه ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وعلى قومك ، قال : وعلى قومي ، قال : فبعث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سرية فمروا بقومه ، فقال صاحب السرية للجيش ، هل أصبتم من هؤلاء شيئا ؟ فقال رجل من القوم : أصبت منهم مطهرة ، فقال : ردوها ، فإن هؤلاء قوم ضماد " (١)

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الجمعة باب تخفيف الصلاة والخطبة

قوله : " فلو أُنِي رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي " لعل هنا على باهما من التوقع ، وقد كشفت عن رجاحة عقل هذا الرجل ، فهو لا يستطيع الجزم بالشفاء ، لذا أورد كلامه بأسلوب التوقع ؛ جريا على عوائد العقلاء في عدم البت في الأمور المستقبلية ، فلعل الزمان يفاجئه بغير ما أخبر فتهتز صورته ، وتضيع مكانته ، فرأى في أسلوب التوقع احتياطا من ذلك .

عن جرير قال : كنت بالبحر فلقيت رجلين من أهل اليمن ذا كلاع ، وذا عمرو ، فجعلت أحدثهم عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال له ذو عمرو : لئن كان الذي تذكر من أمر صاحبك لقد مر على أجله منذ ثلاث ، وأقبلا معي حتى إذا كنا في بعض الطريق رفع لنا ركب من قبل المدينة فسألناهم ، فقالوا : قبض رسول الله — صلى الله عليه وسلم — واستخلف أبو بكر والناس صالحون ، فقالا : أخبر صاحبك أنا قد جئنا ، ولعلنا سنعود إن شاء الله ، ورجعا إلى اليمن ، فأخبرت أبا بكر بحديثهم ، قال : أفلا جئت بهم ؟ فلما كان بعد ، قال لى ذو عمرو : يا جرير إن لك على كرامة ، وإني مخبرك خبرا : إنكم معشر العرب لن تزالوا بخير ما كنتم إذا هلك أمير تأمرتم في آخر ، فإذا كانت بالسيف كانوا ملوكا يغضبون غضب الملوك ، ويرضون رضا الملوك " (١)

(١) رواه البخارى في صحيحه كتاب المغازى باب ذهاب جرير إلى اليمن

قولهم : " ولعلنا سنعود إن شاء الله " لعل على باهما من التوقع ، وهذا مما يكشف عن رجاحة عقلهم ، لأن العاقل يورد الأمر غير المتحقق الوقوع بأسلوب الاحتمال ، وقد تناسب هذا مع حديثهم في آخر الحديث الذى يدل على حسن سياستهم أمور الحياة ، كما يتناسب هذا الأسلوب أيضا مع سياق الحديث ففيه إخبار بوفاة الرسول — صلى الله عليه وسلم — مع أنهم كانوا متوجهين إليه .

عن أبي هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : " كان رجل يداين الناس ، فكان يقول لفتاه : إذا أتيت معسرا فتجاوز عنه لعل الله أن يتجاوز عنا ، فلقي الله فتجاوز عنه " (١)

قوله : " لعل الله أن يتجاوز عنا " لعل هنا على باهما من الترجى إذ أظهر مطلوبه في صورة المرجو المحبب إلى النفس ، وفي هذا حث على إعانة كل ذى دين رجاء رحمة الله وتجاوزه عن الذى يعاون أخاه .

عن أبي سعيد الخدرى — رضى الله عنه — قال : بعث على بن أبى طالب — رضى الله عنه — إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من اليمن بذهبية في أديم مقروظ لم تحصل من تراهما ، قال : فقسمها

(١) رواه البخارى في صحيحه كتاب البيوع باب من أنظر معسرا ، وكتاب أحاديث الأنبياء باب حديث الغار . ومسلم كتاب المساقاة باب فضل إنظار المعسر .

بين أبعة نفر بين عيينة بن بدر ، وأقرع بن حابس وزيد الخيل ، والرابع إما علقمة ، وإما عامر بن الطفيل ، فقال رجل من أصحابه : كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء ، قال : فبلغ ذلك النبي — صلى الله عليه وسلم — فقال : ألا تأمنوني ، وأنا أمين من في السماء ، يأتيني خبر السماء صباحا ومساء ؟ قال : فقام رجل غائر العينين ، مشرف الوجنتين ناشز الجبهة ، كث اللحية ، محلول الرأس ، مشمر الإزار ، فقال : يا رسول الله اتق الله ، قال : ويلك أولست أحق أهل الأرض أن يتقى الله ؟ قال : ثم ولى الرجل ، قال خالد بن الوليد : يا رسول الله ألا أضرب عنقه ؟ قال : لا لعله أن يكون يصلى ، فقال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه ، قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — إني لم أؤمر أن أنقب قلوب الناس ، ولا أشق بطونهم ، قال : ثم نظر إليه وهو مُقَفٌّ ، فقال : إنه يخرج من ضئضى هذا قوم يتلون كتاب الله رطبا لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، وأظنه قال : لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود ^(١)

قوله : "لعله أن يكون يصلى" لعل هنا على باهما من الترجى ، ولقد أوحى جملة الترجى هنا بالحث على عدم المسارعة في قتل المسلم ، وإلا فقد كان يكفى هنا أن يقول الرسول — صلى الله عليه وسلم — لا

(١) رواه البخارى في صحيحه كتاب المغازى باب : بعث على بن أبى طالب — عليه السلام — وخالد ابن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع .

، لكنه جاء بجملة الترجى معللاً نفيه عن الرجل ، وقد دل خبر لعل (أن يكون يصلى) على شرف الصلاة ، وعلو مكانتها في الدين ، فلم يقل الرسول — صلى الله عليه وسلم — لعله أن يكون يزكى أو يصوم أو غير ذلك من الطاعات ، وفيه مع ذلك افتراض الخير في الناس .

عن عائشة — رضى الله عنها — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : إذا نعس أحدكم ، وهو يصلى فليرقد حتى يذهب عنه النوم ، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس ، لا يدرى لعله يستغفر فيسب نفسه " (١)

قوله : " لا يدرى لعله يستغفر فيسب نفسه " لعل هنا على بابها من التوقع ، وهو عائد إلى المصلى لا إلى المتكلم ، وتقدير المعنى : لا يدرى أمستغفر أم ساب مترجياً للاستغفار فهو في الواقع بضد ذلك ، ولقد ذكر العيني — رحمه الله — هذا المعنى ، وذكر معنى آخر وهو التمكن بين الاستغفار والسب ، وذلك في قوله : " فإن قلت كيف يصح ههنا معنى الترجى ؟ قلت : الترجى فيه عائد إلى المصلى لا إلى المتكلم به ، أى لا يدرى أمستغفر أم ساب مترجياً للاستغفار ، فهو في الواقع بضد ذلك ، أو استعمل بمعنى التمكن بين الاستغفار والسب ، لأن الترجى بين

(١) رواه البخارى في صحيحه كتاب الوضوء باب الوضوء من النوم .

حصول المرجو وعدمه ، فمعناه : لا يدري أيستغفر أم يسب ، وهو متمكن منهما على السوية " (١)

وفي استخدام لعل هنا حمل للمصلى النعسان على الانتهاء عن الصلاة حالما يغلبه النوم حتى لا يضر بنفسه وهو يرجو نفعها فقد أدخل عليه الشك الحامل له على الانتهاء حرصا على ما فيه مصلحة له ، والعاقلة إذا رأى ضررا ابتعد عنه ، وإذا رأى مصلحة سارع إليها ، والضرر يحتاج له أكثر مما يحتاج للمصلحة ؛ لذا كان استخدام أسلوب الترجى كافيا في أداء المقصود .

عن عبادة بن الصامت — رضى الله عنه — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خرج يخبر بليلة القدر ، فتلاحى رجلان من المسلمين ، فقال : إني خرجت لأخبركم بليلة القدر ، وإنه تلاحى فلان وفلان فرفعت ، وعسى أن يكون خيرا لكم التمسوها في السبع والتسع والخمس " (٢)

عسى هنا على بابها من الرجاء ، وقد أفادت الإيناس ، يؤيد ذلك سياق الحديث فقد خرج الرسول — صلى الله عليه وسلم — إلى المسجد ليخبر المسلمين بليلة القدر ، فوجد اثنين من الصحابة وهما : عبد

(١) شرح صحيح البخارى للكرمانى ٦٠/٣ عمدة القارى بشرح صحيح البخارى للعينى ١١١/٣

(٢) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الإيمان باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وكتاب صلاة التراويح باب رفع ليلة القدر لتلاحى الناس وكتاب الأدب باب ما ينهى من السباب واللعان

الله بن أبي حدرد ، وكعب بن مالك يتنازعان بسبب دين كان لكعب على ابن أبي حدرد ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خرجت لأخبركم بليلة القدر لأجد هذا السباب وهذا الخصام ، فرفع علمها من قلبي ونسيتها وتأمل في هذه اللحظة كيف كان الأسى والحزن الذي علا وجوه الصحابة ، والذي ألمهم أن رفع ليلة القدر كان بسببهم ، ومما ضاعف من حزنهم أن ثواب ليلة القدر خير من ألف شهر ، فجاء أسلوب الترجى مضافا حوا من الرحمة والإيناس بعد الوحشة التي خيمت على أفئدتهم ، وجاء بثوب الرجاء ؛ إظهارا لحبه صحابته — صلى الله عليه وسلم — ورأفة ورحمة بأمته ، إذ أخرجه في صورة المرجو المحبب إلى النفس .

وقد بين الكرماني وجه هذه الخيرية فقال : " فإن قلت : إذا جاز أن يكون الرفع خيرا ، فلا مذمة فيه ولا شر ولا حبط عمل ، قلت : إن أريد بالخير اسم التفضيل ، فمعناه : أن الرفع عسى أن يكون خيرا من عدم الرفع من جهة أخرى ، وهي جهة كونه سببا لزيادة الاجتهاد المستلزمة لزيادة الثواب . . . " (١)

أقول : وهذه هي الجهة التي أدخل الرسول — صلى الله عليه وسلم — بها الإيناس لقلوب صحابته ، وأزال عن صدورهم ما علق بها من

(١) شرح صحيح البخاري للكرماني ١/١٩٢ ، وعمدة القاري للعيني ١/٢٧٩ .

الأسى والحزن ، فقوله : وعسى أن يكون خيرا جاء موفيا بحق المقام على أكمل وجه وأحسنه .

عن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : " لن يدخل أحدا عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ، قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة ، فسدّدوا وقاربوا ، ولا يتمنّين أحدكم الموت ، إما محسنا فلعله أن يزداد خيرا ، وإما مسيئا فلعله أن يستعقب " (١)

قوله : " إما محسنا فلعله أن يزداد خيرا ، وإما مسيئا فلعله أن يستعقب " لعل هنا على باهما من الترجى ، وقد وقعت جملة الترجى موقع التعليل للنهي عن تمنى الموت ، وفي استخدام أسلوب الترجى هنا ترغيب في الامتثال لأمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كما أن في أسلوب الترجى هنا أيضا حث على المسارعة بالتوبة بدل تمنى الموت.

عن ابن عمر — رضى الله عنهما — أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه ، فلقي عالما من اليهود فسأله عن دينهم ، فقال : إني لعلّى أن أدين دينكم فأخبرني ، فقال : لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله ، قال زيد : ما أفر إلا من

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب المرضى باب تمنى المريض الموت ، وكتاب التمنى باب ما يكره من التمنى .

غضب الله ، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً ، وأنا أستطيعه فهل تدلني على غيره ، قال : ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً ، قال زيد : وما الحنيف ؟ قال : دين إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله ، فخرج زيد فلقى عالماً من النصارى فذكر مثله ، فقال : لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله ، قال : ما أفر إلا من لعنة الله ، ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً أبداً ، وأنا أستطيع فهل تدلني على غيره ؟ قال : ما أعلم إلا أن يكون حنيفاً ، قال : وما الحنيف ؟ قال : دين إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله ، فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم — عليه السلام — خرج فلما برز رفع يديه ، فقال : اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم " (١)

قوله : " إني لعلى أن أدين دينكم فأخبرني " لعل هنا على بابها من التوقع ولها موقع لطيف إذ جاءت مقدمة على طلب الإخبار عن الدين ، وفي تقديمها مزيد إلهاب وتحريض للعالم اليهودي على تحري عرض ما يرغب في دخوله في دين اليهودية ، كما أن في استخدام أسلوب الترجي احتياطاً فقد لا يعجبه هذا الدين فلا يدخل فيه وقد كان ، فكان أسلوب الترجي ألصق بمراحده ، وأوفق لحاله .

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب المناقب باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل

عن أبي هريرة — رضى الله عنه — عن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدري لعل الشیطان يترغ في يده ، فيقع في حفرة من النار " (١)

قوله : " فإنه لا يدري لعل الشيطان يترغ في يده " لعل هنا على باهما من التوقع ، ومجيئها هنا ألصق بمقام التحذير ، والنهي عن الإشارة بالسلاح ؛ لأن العاقل إذا جوز خطرا في شيء امتنع عنه ، وعلمنا أن نذكر ما حدث من سيدنا موسى — عليه السلام — مع القبطي حين ضربه سيدنا موسى بجمع يده على ذقنه فقتله ، قال : — تعالى — " ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكره موسى فقضى عليه . . . " .

(القصص / ١٥) ولنستمع لتعليق سيدنا موسى — عليه السلام — على ما جرى قال : — تعالى — " قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين " (القصص / ١٥)

ونلاحظ أن قوله — صلى الله عليه وسلم — فإنه لا يدري لعل الشيطان يترغ في يده فيقع في حفرة من النار وقع كالتعليل لكلامه السابق : لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح ، وكأنه — صلى الله عليه وسلم —

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الفتن باب قول النبي — صلى الله عليه وسلم — من حمل السلاح علينا فليس منا ، ورواه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب باب النهي عن الإشارة بالسلاح .

يحثهم على الامتثال لأوامره ونواهيه ، موضحا لهم عواقب الأمور ،
ومنبها لهم على خطر الأمور سدا للذرائع .

عن جابر بن عبد الله — رضى الله عنه — قال : أتى رسول الله —
صلى الله عليه وسلم — بضب فأبى أن يأكل منه وقال : لا أدري لعله
من القرون التى مسخت " (١)

وعن أبي سعيد — رضى الله عنه — أن أعرابيا أتى رسول الله —
صلى الله عليه وسلم — فقال : إني فى غائط مَضْبَّةٍ ، وإنه عامة طعام
أهلى ، قال : فلم يجبه ، فقلنا : عاوده ، فعاوده فلم يجبه ثلاثا ، ثم
ناداه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى الثالثة ، فقال : يا
أعرابي إن الله لعن أو غضب على سبط من بنى إسرائيل فمسخهم
دواب يدبون فى الأرض ، فلا أدري لعل هذا منها فليست آكلها
ولا أنمى عنها " (٢)

قوله : " لا أدري لعله من القرون التى مسخت " وقوله : " فلا
أدري لعله منها " لعل هنا فى الموضعين على باهما من التوقع ، يقول
القرطبي : " هذا منه — صلى الله عليه وسلم — توقع وخوف لأن يكون
الضب من نسل ما مسخ من الأمم ، ومثله ما ذكره فى الفأرة لما قال :

(١) رواه مسلم فى صحيحه كتاب الصيد والذبائح باب إباحة الضب .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه كتاب الصيد والذبائح باب إباحة الضب .

فقدت أمة من بني إسرائيل لأدري ما فعلت ؟ ولأراها إلا الفأر ، كان هذا منه — صلى الله عليه وسلم — ظنا وحدثا قبل أن يوحى إليه : إن الله لم يجعل لمسخ نسلا ، فلما أوحى إليه بذلك زال عنه التخوف ، وعلم أن الضب والفأر ليس من نسل ما مسخ ، وعند ذلك أخبرنا بقوله : إن الله لم يجعل لمسخ نسلا ، وقد وردت النصوص بإباحة أكل الضب " (١) فقد وافقت لعل حاله — صلى الله عليه وسلم — قبل الوحي .

عن جابر بن عبد الله قال : طلقت خالتي فأرادت أن تجد نخلها فزجرها رجل أن تخرج ، فأنت النبي — صلى الله عليه وسلم — فقال : بلى فجدي نخلك ، فإنك عسى أن تصدقي أو تفعلني معروفا " (٢) قوله : " فإنك عسى أن تصدقي أو تفعلني معروفا " عسى هنا على باهما من الرجاء ، وهذا ليس تعليلا لإباحة الخروج ، وإنما خرج مخرج التنبيه ، والحض على فعل الخير ، والتذكير بالمعروف والبر.

عن المسور بن مخرمة — رضى الله عنهما — قال : قدمت على النبي — صلى الله عليه وسلم — أقيية فقال لي أبي مخرمة : انطلق بنا

(١) المفهم ٢٣٥/٥ .

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب الطلاق باب جواز خروج المعتدة البائن ، والمتوفى عنها زوجها في النهار لحاجتها

إليه عسى أن يعطينا منها شيئاً ، فقام أبي على الباب فتكلم ، فعرف النبي — صلى الله عليه وسلم — صوته ، فخرج النبي — صلى الله عليه وسلم — ومعه قباء وهو يريه محاسنه ، وهو يقول خبأت هذا لك خبأت هذا لك " (١)

قوله : " انطلق بنا إليه عسى أن يعطينا منها شيئاً " عسى هنا على بابها من الرجاء والطمع ذلك أن مخزومة — رضى الله عنه — أمر ابنه أن يذهب به إلى الرسول ؛ طمعا في أخذ شيء مما قدم على النبي — صلى الله عليه وسلم — وتحقق رجاؤه وأعطاه — صلى الله عليه وسلم — قباء حسنا ، فقد كشفت عسى عن حسن ظن مخزومة برسول الله — صلى الله عليه وسلم — كما كشفت عن أن أخذه من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان مرجوا محببا .

عن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : جاء رجل إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — فقال : إني تزوجت امرأة من الأنصار ، فقال له النبي : — صلى الله عليه وسلم — هل نظرت إليها ؟ فإن في أعين الأنصار شيئا ، قال : قد نظرت إليها ، قال : على كم تزوجتها ؟ قال : على أربع أواق ، فقال له النبي : — صلى الله عليه وسلم — على

(١) رواه البخارى في صحيحه كتاب الشهادات باب شهادة الأعمى وراه مسلم في صحيحه كتاب الزكاة باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة .

أربع أواق ؟ كأنما تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل ، ما عندنا ما نعطيك ، ولكن عسى أن نبعثك في بعث تصيب منه ، قال : فبعث بعثنا إلى بنى عبس ، بعث ذلك الرجل فيهم " (١)

قوله : " ولكن عسى أن نبعثك في بعث تصيب منه " عسى هنا على بابها من الرجاء والطمع ، يقول القرطبي : " وهذا الإنكار منه — صلى الله عليه وسلم — على هذا الرجل المتزوج على أربعة أواق ليس إنكارا لأجل المغالاة والإكثار في المهر ، فإنه قد أصدق نساءه خمسمائة درهم وأربعة أواق : مائة وستون درهما ، وإنما أنكر بالنسبة إلى حال الرجل فإنه كان فقيرا في تلك الحال ، فأدخل نفسه في مشقة تعرض للسؤال بسببها ، ولذلك قال له : ما عندنا ما نعطيك ، ثم إن النبي — صلى الله عليه وسلم — بكرم أخلاقه ورأفته ورحمته جبر منكسر قلبه بقوله : ولكن عسى أن نبعثك في بعث تصيب منه ، فبعثه فأصاب حاجته ببركة النبي — صلى الله عليه وسلم " (٢) وكان المناسب لجبر هذا المنكسر هو عسى التي تفيد قرب حصول المرجو تطمينا له ، وتهذئة لفؤاده .

عن علقمة قال : إني لأمشي مع عبد الله بن مسعود بمعى إذ لقيه عثمان بن عفان ، فقال : هلم يا أبا عبد الرحمن ، قال : فاستخلاه ،

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب النكاح باب ندب النظر إلى وجه المرأة .

(٢) المفهم ٤/ ١٢٦ ، ١٢٧ .

فلما رأى عبد الله أن ليست له حاجة ، قال لى : تعال يا علقمة ، قال : فجئت ، فقال له عثمان : ألا أنزوجك يا أبا عبد الرحمن جارية بكرا لعله يرجع إليك من نفسك ما كنت تعهد ؟ فقال عبد الله : لئن قلت ذاك ، لقد قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء " (١)

قوله : " ألا أنزوجك يا أبا عبد الرحمن جارية بكرا لعله يرجع إليك ما كنت تعهد " لعل هنا على باهما من الترجى ، ويحتمل أن تكون للتعليل يقول الأبي : " يحتمل لعل هنا أنهما على باهما من الترجى ، ويحتمل أنهما للتعليل ، وأخبرت عن بعض شيوخنا أنه

قال : كنت أظن أنى عجزت عن النساء فلما تزوجت الصغيرة وجدت فى نفسى من النشاط ما كنت أعهد فى الصغر " (٢)

وإنما قال عثمان بن عفان ما قال لعبد الله بن مسعود لأنه كان قد قلت رغبته فى النساء إما لاشتغاله بالعبادة وإما للسن وإما لمجموعهما " (٣) وإنما استخدم لعل هنا ولم يستخدم عسى لبعده توقع المحصول ، والمناسب له لعل .

(١) رواه مسلم فى صحيحه كتاب النكاح باب استحباب النكاح لمن تآقت إليه نفسه .

(٢) شرح صحيح مسلم للأبي ٤/٤ ، وشرح السنوسى ٤/٤ .

(٣) المفهم ٨١/٤ .

ثانيا :خروج الترجى إلى المعانى المجازية

أولا : الاستفهام

عن كعب بن عُجْرَةَ — رضى الله عنه — عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال: — " لعلك آذاك هوامك ؟فقال : نعم يارسول الله ، فقال رسول الله: — صلى الله عليه وسلم — احلق رأسك ، وصم ثلاثة أيام ، أو أطعم ستة مساكين ، أو انسك بشاة " (١)

الترجى هنا خرج عن معناه الحقيقى إلى المعنى الاستفهامى ، والاستفهام هنا للتقرير، وقد ورد الحديث بروايات عدة تؤيد هذا المعنى (٢) وكذلك القرائن المقالية والمقامية تؤيد خروج الترجى للاستفهام ، فالقرينة المقالية هى قول كعب: — رضى الله عنه — نعم ، والجواب بنعم يكون دالا على السؤال ، والترجى لا يحتاج جوابا .

والقرينة المقامية تكشف عنها الروايات الأخر التى رواها البخارى للحديث مثل " وقف على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالحدبية ورأسى يتهافت قملا " (٣) و " حملت إلى رسول الله — صلى

(١) رواه البخارى فى صحيحه باب قول الله — تعالى — "فمن كان منكم أيضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك " .

(٢) عمدة القارى شرح صحيح البخارى للعينى ١٥١/١٠ . ط دار إحياء التراث العربى دون تاريخ .

(٣) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الحج باب قول الله تعالى : — " أو صدقة " وهى إطعام ستة مساكين .

الله عليه وسلم — والقمل يتناثر على وجهي " (١) فهذه الروايات تكشف عن المقام الذى أورد فيه الرسول — صلى الله عليه وسلم — الحديث ، ومن البدهى أن يسأله الرسول — صلى الله عليه وسلم — عند رؤية هذا المنظر أيؤذيه القمل أم لا ؟ لأن مناط الحكم يتعلق بحدوث الأذى لا بمجرد وجود الهوام فى الرأس ، لأنها رخصة وليست أصلاً فى الحكم الشرعى وللرخصة ظروف تعرف حدودها عند الفقهاء ؛ لذا لما سأله الرسول — صلى الله عليه وسلم — هل يجد أذى مما به ؟ أخبره كعب بالمشقة التى نالته من ذلك فأمره بالخلق ثم بالفدية .

ولعل سبب عدول الرسول — صلى الله عليه وسلم — عن التعبير بالاستفهام إلى التعبير بالترجى أن استخدام (لعل) يفيد مع الاستفهام الإشفاق من المصطفى — صلى الله عليه وسلم — على الصحابي مما به من أذى نحو لعل الحبيب مريض ، ونلاحظ أن خبر (لعل) ورد جملة قدم فيها الفعل على الفاعل " لعلك آذاك هوامك " ، لأن مناط الحكم يتعلق بوجود الأذى لا بوجود الهوام ، فقدم ما هو أعلق بالغرض ، وألصق بالمقصود .

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الحج باب الإطعام فى الفدية نصف صاع .

عن سعد بن عبيدة — رضى الله عنه — "قال : — جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن عثمان ، فذكر عن محاسن عمله ، قال : لعل ذاك يسوءك ؟ قال : نعم ، قال فأرغم الله بأنفك ، ثم سأله عن على فذكر محاسن عمله ، قال : هو ذاك بيته أوسط بيوت النبي — صلى الله عليه وسلم — ثم قال : لعل ذاك يسوءك ؟ قال : أجل ، قال : فأرغم الله بأنفك ، قال انطلق فاجهد على جهدك " (١)

ورد أسلوب الترجى في هذا الحديث مرتين (لعل ذاك يسوءك) وقد خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازى ، وهو الاستفهام التقريرى بدليل الجواب (نعم) و (أجل) والترجى لا يحتاج جوابا .

ولعل سبب عدول ابن عمر — رضى الله عنه — عن التعبير بالاستفهام إلى التعبير بلعل هو قوة استشعاره كره السائل (عثمان وعلياً) رضى الله عنهما — فكأنه رأى منه ما يدل على الجواب الذى أجاب به الرجل من بعد ، ولعل مما يؤيد ذلك الدعاء عليه فور جوابه بقوله : " فأرغم الله بأنفك " فلم يأت بحرف يدل على المهلة والتراخي .

فاستخدام (لعل) كشف عن حال السائل في كرهه محاسن عثمان وعلي — رضى الله عنهما — وكشف عن حال ابن عمر — رضى

(١) رواه البخارى في صحيحه كتاب المناقب ، باب مناقب على بن أبي طالب .

الله عنه — في توقعه هذا الكره ، فجاء بلعل في الاستفهام التقريري ؛
تأكيدا لهذا التوقع .

عن عبد الله بن عمر — رضى الله عنهما — أن عمر بن الخطاب
حين تأيحت حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمي ، وكان من
أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فتوفى بالمدينة ، فقال
عمر بن الخطاب : أتيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة ، فقال
: أنظر في أمري ، فلبثت ليالي ثم لقيني فقال : قد بدا لي أن لا أتزوج
يومي هذا ، قال عمر : فلقيت أبا بكر الصديق ، فقلت : إن شئت
زوجتك حفصة بنت عمر ، فصمت أبو بكر فلم يرجع إلى شيئا ،
وكنت أوجد عليه منى على عثمان ، فلبثت ليالي ، ثم خطبها رسول
الله — صلى الله عليه وسلم — فأنكحها إياه فلقيني أبو بكر ، فقال
: لعلك وجدت على حين عرضت على حفصة ، فلم أرجع إليك شيئا
، قال عمر قلت : نعم ، قال أبو بكر : فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك
فيما عرضت على إلا أني كنت علمت أن رسول الله — صلى الله عليه
وسلم — قد ذكرها فلم أكن لأفشي سر رسول الله — صلى الله عليه
وسلم — ولو تركها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قبلتها " (١)

(١) رواه البخارى في صحيحه كتاب النكاح باب عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير .

خرج الترجى هنا عن معناه الحقيقى إلى معنى مجازى ، وهو الاستفهام التقريرى ، وتقدير المعنى : هل وجدت على حين عرضت على حفصة فلم أرجع إليك شيئاً ؟ ، ومما يؤيد خروج الترجى عن معناه جواب عمر — رضى الله عنه — بنعم ، والترجى لا يحتاج جواباً. ولقد فضل العيني — رحمه الله — رواية " لعلك وجدت على " على رواية " قد وجدت على " (١) ولعل سبب هذا أن الأولى تطلبت إقراراً من عمر — رضى الله عنه — بالوجد على أبى بكر — رضى الله عنه — وهو قوله : " نعم " فجاء الجواب من أبى بكر أشفى لنفس عمر ، وأطيب لفؤاده .

أما التعبير بقدر ففيه معاملة بذكر الوجد من عمر على أبى بكر دون إقرار من عمر ، فلا يكون الجواب بعد ذلك أشفى للنفس ، وأبرد للصدر كالجواب الأول .

ولقد صرح عمر — رضى الله عنه — بالوجد على أبى بكر " وكنت أوجد عليه منى على عثمان " ، ولعل ملامح هذا الوجد ظهرت على عمر حين لقي أبابكر بعد زواج الرسول بحفصة ، فدعا هذا أبابكر إلى التعبير بالترجى بدل التعبير بالاستفهام ، لأن لعل تصطبح التوقع مع دلالتها على الاستفهام المجازى ، وهذا ما يناسب حال عمر فى وجدده على أبى

(١) عمدة القارى ٢٠ / ١١٥ .

بكر ، ويناسب حال أبي بكر في توقعه هذا الوجد مما رآه من عمر —
رضى الله عنه .

عن أبي سعيد الخدري — رضى الله عنه — أن رسول الله — صلى
الله عليه وسلم — " أرسل إلى رجل من الأنصار ، فجاء ورأسه يقطر
فقال النبي: — صلى الله عليه وسلم — لعلنا أعجلناك؟ فقال : نعم ،
فقال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — إذا أعجلت أوقحطت
فعليك الوضوء " (١)

خرج الترجي هنا عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي ، وهو
الاستفهام التقريري ، وتقدير المعنى أعجلناك ؟ ومما يؤيد خروج الترجي
عن معناه جواب الرجل " نعم " فالترجي لا يحتاج إلى جواب ، وهنا
أجاب الرجل بنعم .

ولعل سبب عدول الرسول — صلى الله عليه وسلم — عن التعبير
بالاستفهام إلى التعبير بلعل أنه — صلى الله عليه وسلم — رأى من حال
الصحابي — رضى الله عنه — ما يدل على أنه قد أعجله ، فلعل
تصطحب التوقع مع دلالتها على الاستفهام المجازي ، أما أداة الاستفهام
فليس فيها معنى التوقع ، فورودها في هذا الموقع غير مناسب ؛ لأن

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الوضوء باب من لم ير الوضوء إلا من المخرجين القبيل والدبر ،
ومسلم في صحيحه كتاب الحيض باب إنما الماء من الماء.

الاستفهام يدل على عدم معرفة السائل بالجواب ، والسائل هنا يدل على حال المسؤول (جاء ورأسه يقطر) على توقع الجواب .

هذا ما ظهر في هذا الحديث ، ولقد نبه العيني والكرمانى — رحمهما الله تعالى — إلى أن لعل تفيد التحقيق ، والمعنى : قد أعجلناك ، وقوله : " فقال نعم " مقرر له " (١) ، ولعل الأبر بمعنى الحديث هو ما ذهبت إليه ، والجواب المذكور في سياق الحديث يؤيد ذلك .

عن عائشة — رضى الله عنها — أن امرأة رفاعة القرظى جاءت إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقالت : يا رسول الله إن رفاعة طلقني فبت طلاقى ، وإنى نكحت بعده عبد الرحمن بن الزبير القرظى ، وإنما معه مثل الهدبة ، قال رسول الله : صلى الله عليه وسلم — لعلك تريد أن ترجعى إلى رفاعة ؟ لا ، حتى يذوق عسيلتك ، وتذوقى عسيلته " (٢)

خرجت لعل هنا إلى الاستفهام الإنكارى ، وكأن تقدير المعنى : أتريد أن الرجوع لرفاعة ؟ فأنكر — صلى الله عليه وسلم — هذا بقوله : " لا " ، وبين سبب الإنكار بقوله " حتى يذوق عسيلتك ، وتذوقى عسيلته "

(١) شرح صحيح البخارى للكرمانى المسمى الكواكب الدرارى فى شرح صحيح البخارى ١٩/٣ ط دار إحياء التراث العربى بيروت ١٩٨١ م وعمدة القارى شرح صحيح البخارى للإمام العيني ٥٨/٣ .
(٢) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الطلاق باب من أجاز الطلاق ثلاثا ، وكتاب الأدب باب التيسر والضحك ومسلم فى صحيحه كتاب النكاح باب لا تحل المطلقة ثلاثا لمطلقها حتى تنكح زوجا غيره .

والتعبير بلعل جاء مناسبا حال المرأة ، فهي تحب الرجوع إلى رفاعة ، وترجو ذلك بقرينة قولها في من هي تحتها (عبدالرحمن بن الزبير) " وإنما معه مثل الهدبة ، فأفهم ذلك بالفحوى أن صاحبها السابق لم يكن معه مثل الهدبة ، وقد فهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — هذا ، فعبر بلعل بدل التعبير بالاستفهام الذى يفيت إظهار هذا الرجاء ، وعبر الرسول — صلى الله عليه وسلم — بالمسند جملة فعلية فعلها مضارع " تريدين الرجوع إلى رفاعة " مما يدل على تجدد توقان المرأة للرجوع لصاحبها الأول .

عن أبي الدرداء — رضى الله عنه — عن النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه أتى بامرأة مجح (١) على باب فسطاط ، فقال : لعله يريد أن يلم بها ؟ فقالوا نعم . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لقد هممت أن ألعنه لعنا يدخل معه قبره . كيف يورثه وهو لا يحل له ؟ كيف يستخدمه وهو لا يحل له ؟ " (٢)

لعل هنا خرجت عن معناها الحقيقى إلى معنى مجازى ، وهو الاستفهام بدليل الجواب نعم والترجى لاحتاج جوابا ، والاستفهام هنا

(١) مجح : أجمت السبعة والكلية ونحوهما : حملت وعظم بطنها ، وقربت ولادتها فهي مجح ومجحة والجمع مجاح ، انظر الوسيط مادة (ججح) ط مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب النكاح باب تحريم وطء الحامل المسبية .

إنكارى توبيخى بدليل قوله — صلى الله عليه وسلم — " لقد هممت أن ألعنه لعنا يدخل معه قبره " ويدل على ذلك أيضا تتابع الاستفهام الإنكارى بعد ذلك " كيف يورثه وهو لا يحل له ؟ كيف يستخدمه وهو لا يحل له ؟

وعبر — صلى الله عليه وسلم — بلعل ولم يعبر بأداة استفهام كالمهزة مثلا ؛ كشفا عن أن حالة هذا الرجل جعلت من يراها يتوقع مقارفته هذه المعصية ، وهذه الحالة تناسبها لعل التى تصطحب التوقع مع دلالتها على الاستفهام المجازى .

عن حذيفة — رضى الله عنه — قال : كنا عند عمر فقال : أيكم سمع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يذكر الفتن ؟ فقال قوم : لعلكم تعنون فتنة الرجل فى أهله وجاره ؟ قالوا : أجل ، قال : تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة ، ولكن أيكم سمع النبي — صلى الله عليه وسلم — يذكر الفتن التى تموج موج البحر ؟ قال حذيفة : فأسكت القوم ، فقلت أنا ، قال : أنت لله أبوك ! قال حذيفة : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : تعرض الفتن على القلوب كالخصير عودا عودا فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفا ، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ،

والآخر أسود مربادا ^(١) كالكوز مجخيا ^(٢) لا يعرف معروفا ، ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه . قال حذيفة وحديثه أن بينك وبينها بابا مغلقا يوشك أن يكسر . قال عمر : أكسرا لا أبا لك ! فلو أنه فتح لعله كان يعاد ، قلت : لابل يكسر ، وحديثه أن ذلك الباب رجل يقتل أو يموت حديثا ليس بالأغليط " ^(٣)

قوله : " لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره " خرجت لعل هنا عن معناها الحقيقي إلى معنى مجازي ، وهو الاستفهام التقريري بدليل الجواب " أجل " والترجي لا يحتاج جوابا .

والذى أراه أن إثثار استخدام لعل على استخدام أداة الاستفهام يكشف عن أن حال الصحابة دل عمر — رضى الله عنه — على توقع مقصودهم بالفتن ، فاستخدام لعل كشف عن حال الصحابة وعن حال عمر في توقعه مقصودهم .

وقوله : " فلو أنه فتح لعله كان يعاد " استخدمت لعل في التعليل ، وتقدير الكلام : فلو أنه فتح كي يعاد ، وكأن فتح الباب سبب لإغلاقه مرة أخرى ، فكلام عمر يوضح أن غلق باب الفتنة معلق على الفتح ،

^(١) مربادا : ربد ربة ، اختلط سواده بكدره فهو أريد ، ويقال أريد وجهه : اجر حرة فيها سواد عند

الغضب يراجع المعجم الوسيط مادة (رب د)

^(٢) مجخيا : جخي الكوز : مال ، وتجخي الكوز : انكب الوسيط مادة (ج خ خ)

^(٣) رواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب رفع الأمانة والإيمان .

فتمنى أن يخبر حذيفة — رضى الله عنه — أن الباب سيفتح ، وعبر بلو — وهى هنا مستعملة فى التمنى — دليلا على استحالة حدوث ذلك لمعرفته أن حذيفة — رضى الله عنه — كان مختصا بأحاديث الفتن ، وبأسرار رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فهو لا ينطق إلا بما هو مؤكد مما أذهل ابن الخطاب فتمنى المستحيل ، وجعل أسلوب الترجى مسببا على أسلوب التمنى .

وإيثار استخدام لعل على أداة التعليل يوحى برجاحة عقل عمر المعروفة إذ استخدامها دل على أن عمر لا يجعل الفتح السبب الوحيد فى الإغلاق ، وذلك لما تحمله لعل من التوقع ، فكأن التعليل هنا متوقع .

عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : مات ابن لأبى طلحة من أم سليم ، فقالت لأهلها لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه ، قال : فجاء فقربت إليه عشاء فأكل وشرب ، ثم تصنعت له أحسن ما كان تصنع قبل ذلك ، فوقع بها فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها ، قالت : يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوما أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم ؟ قال : لا ، قالت : فاحتسب ابنك ، قال : فغضب ، وقال تركتني حتى تلطخت ثم أخبرتنى بابنى فانطلق حتى أتى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأخبره بما كان ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بارك الله

لكما في غابر ليلتكما ، قال : فحملت ، قال : فكان رسول الله في سفر ، وهى معه ، وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذا أتى المدينة لا يطرقها طروقاً ، فدنوا من المدينة فضربها المخاض فاحتبس عليها أبو طلحة ، وانطلق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : يقول أبو طلحة : إنك تعلم يارب إنه يعجنى أن أخرج مع رسولك إذا خرج ، وأدخل معه إذا دخل ، وقد احتبست بما ترى ، قال : تقول أم سليم : يا أبا طلحة ما أجد الذى كنت أجد انطلق ، فانطلقنا ، قال : وضربها المخاض حين قدما فولدت غلاماً ، فقالت لى أمى : يا أنس لا يرضعه أحد حتى تغدو به على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فلما أصبح احتملته ، فانطلقت به إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : فصادفته معه ميسم ، فلما رآنى قال : لعل أم سليم ولدت ؟ قلت : نعم ، فوضع الميسم ، قال : وجئت به فوضعتة فى حجره ، ودعا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بعجوة من عجوة المدينة ، فلاكها فى فيه حتى ذابت ، ثم قذفها فى الصبى ، فجعل الصبى يتلمظها ، قال : فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) انظروا إلى حب الأنصار والتمر ، قال : فمسح وجهه وسماه عبد الله (١)

(١) رواه مسلم فى صحيحه كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أبي طلحة .

قوله " لعل أم سليم ولدت ؟ " استخدمت لعل هنا في الاستفهام بدليل الجواب " نعم " والترجى لا يحتاج جوابا ، ولعل سبب استفهام الرسول — صلى الله عليه وسلم — بحرف التوقع هو أن أم سليم كانت مع الرسول — صلى الله عليه وسلم — في سفر ، فلما دنوا من المدينة ضربها المخاض ، فاحتبس عليها أبو طلحة زوجها ، وانطلق الرسول — صلى الله عليه وسلم — ثم زال عنها ما كانت تجد ، فانطلقت هي وزوجها للمدينة ، ثم جاءها المخاض مرة ثانية ، فولدت ، وأمرت أنس أن يحمل المولود للرسول ، فلما رآه — صلى الله عليه وسلم — توقع أن تكون أم سليم ولدت ، فاستفهم بلعل التي تصطحب التوقع مع دلالتها على الاستفهام ؛ لما كان يظهر من الحال من قبل ، ولو جاء بأداة استفهام لما وفت بحق السياق ولا المقام .

عن عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : آخر من يدخل الجنة رجل ، فهو يمشى مرة ويكبو مرة ، وتسفعه النار مرة ، فإذا ما جاوزها التفت إليها ، فقال : تبارك الذى نجاني منها ، لقد أعطاني الله شيئا ما أعطاه أحدا من الأولين وآخرين ، فترفع له شجرة ، فيقول : أى رب أدنى من هذه الشجرة فلا أستظل بظلها ، وأشرب من مائها ، فيقول الله : — عز وجل — يا بن آدم إني أعطيتكها سألتني غيرها ، فيقول : لا يارب ،

ويعاهده أن لا يسأله غيرها وربه يعذره ؛ لأنه يرى ما لا صبر له عليه ،
 فيدنيه منها فيستظل بظلها ، ويشرب من مائها ، ثم ترفع له شجرة هي
 أحسن من الأولى ، فيقول : أى رب أدنى من هذه لأشرب من مائها
 وأستظل بظلها ، لا أسألك غيرها ، فيقول يا ابن آدم ألم تعاهدنى أن
 لا تسألنى غيرها ؟ فيقول : لعلى إن أدنيتك منها تسألنى غيرها ؟ فيعاهده
 أن لا يسأله غيرها ، وربه يعذره ؛ لأنه يرى ما لا صبر له عليه فيدنيه
 منها فيستظل بظلها ، ويشرب من مائها ، ثم ترفع له شجرة عند باب
 الجنة هي أحسن من الأوليين ، فيقول : أى رب أدنى من هذه لأستظل
 بظلها ، وأشرب من مائها لا أسألك غيرها ، فيقول : يا ابن آدم ألم
 تعاهدنى أن لا تسألنى غيرها ؟ قال : بلى يارب أدنى من هذه لا أسألك
 غيرها ، وربه يعذره ؛ لأنه يرى ما لا صبر له عليه ، فيدنيه منها فإذا
 أدناه منها فيسمع أصوات أهل الجنة ، فيقول : أى رب أدخلنيها ،
 فيقول : يا ابن آدم ما يصرينى منك ؟ أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها
 معها ؟ قال : يارب أتستهزئ منى وأنت رب العالمين ؟ فضحك ابن
 مسعود فقال : ألا تسألونى مم أضحك ؟ فقالوا : مم تضحك ؟ قال :
 هكذا ضحك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقالوا مم تضحك
 يا رسول الله ؟ قال : من ضحك رب العالمين حين قال أتستهزئ منى

وأنت رب العالمين ؟ فيقول إني لأستهزئ منك ، ولكنى على ما أشاء
أقدر " (١)

قوله : " لعلى إن أعطيتكها سألتنى غيرها ؟ " وقوله : " لعلى إن
أدنيك منها تسألنى غيرها؟ "

خرجت لعل فى الموضوعين من الترجى إلى الاستفهام ، وتقدير
المعنى : إن أعطيتكها سألتنى غيرها، إن أدنيك منها تسألنى غيرها ؟
ولعل سر إثارة استخدام لعل على أداة الاستفهام ، هو إحداث الشك فى
المخاطب ، وذلك لما تحمله لعل من معنى التوقع ، وقد زلزلت لعل هنا
نفس المخاطب الذى كان منتهى طلبه ، ومدى أمنيته الاستظلال
بالشجرة ، والشرب من مائها مما رآه من شدة الموقف الذى جعل ما سبق
هو الغاية العظمى لدرجة أنه أيقن يقينا لا يحدشه شك أنه لن يطلب شيئا
فوق ذلك فجاء الأسلوب مزلزلا ما استقر فى نفسه ، وإنما سأله الله مع
علمه الأزلى بأنه سيطلب غيره ليكشف بذلك عن كرمه وجوده وعن
طمع العباد فى رحمته ، فوق أن الشئ إذا نيل بعد الطلب أفضل من الشئ
الحاصل بلا تعب .

(١) رواه مسلم فى صحيحه كتاب الإيمان باب آخر أهل النار خروجاً .

عن جابر بن سمرة — رضى الله عنه — قال : رأيت ماعز بن مالك حين جئى به إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — رجل قصير أعضل ليس عليه رداء ، فشهد على نفسه أربع مرات أنه زنى ، فقال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — فلعلك؟ قال : لا ، والله إنه قد زنى الآخر ^(١) قال : فرجهم ، ثم خطب فقال : ألا كلما نفرنا غازين في سبيل الله خلف أحدهم له نيب ^(٢) كنيب التيس ، يمنح أحدهم الكثرة ^(٣) أما والله إن يمكنى من أحدهم لأنكلنه عنه " ^(٤)

قوله : " فلعلك ؟ لعل هنا للاستفهام ، وقد ذكر العلماء أن معنى هذا الكلام الإشارة إلى تلقين المقر بالزنا الرجوع عن الإقرار ، واعتذاره بشبهة يتعلق بها كما جاء في الرواية الأخرى : لعلك قبلت أو غمرت أو نظرت ، فاقصر في هذه الرواية على لعلك ؛ اختصارا وتنبيها ، واكتفاء بدلالة الكلام والحال على المحذوف ، أى لعلك قبلت أو نحو ذلك " ^(٥)

^(١) الآخر : الأزدل والأبعد والأدنى ، وقيل اللئيم ، وقيل الشقى وكله متقارب ، ومراده نفسه فحقرها وعابها ، لاسيما وقد فعل هذه الفاحشة ، وقيل : إنها كناية يكنى بها عن نفسه ، وعن غيره إذا أخبر عنه بما يستقبح شرح صحيح مسلم للنووى ٢١٦/٦ ط دار أبي حيان ١٩٩٥ م .

^(٢) نيب : أى صياح كصياح التيس راجع اللسان والوسيط مادة (ن ب ب)

^(٣) الكثرة : كل قليل مجتمع من طعام أو لبن اللسان والوسيط مادة (ك ث ب) .

^(٤) رواه مسلم في صحيحه كتاب الحدود باب من اعترف على نفسه بالزنى .

^(٥) النووى على مسلم ٢١٦/٦ .

" وقد روى التلقين في الحدود والإقرارات عن النبي — صلى الله عليه وسلم — ، والخلفاء بعده ، وأجازته الأئمة . . . والأحاديث بهذا كثيرة " (١) ووضح من استفهامه — صلى الله عليه وسلم — بلعل الإشفاق منه على الصحابي الجليل ماعز ، وهذا سر إثاره — صلى الله عليه وسلم — الاستفهام بلعل على الاستفهام بأداة استفهام .

عن بريدة الأسلمي — رضى الله عنه — أن ماعز بن مالك الأسلمي أتى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : يا رسول الله إني قد ظلمت نفسي وزنيت ، وإني أريد أن تطهرني فرده ، فلما كان من الغد أتاه ، فقال : يا رسول الله إني قد زنيت فرده الثانية ، فأرسل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى قومه فقال : أتعلمون بعقله بأسا تنكرون منه شيئا ؟ فقالوا : ما نعلمه إلا وفي العقل من صالحينا فيما نرى ، فأتاه الثالثة فأرسل إليهم أيضا فسأل عنه فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله ، فلما كان الرابعة حفر له حفرة ثم أمر به فرجم . قال : فجاءت الغامدية قالت : يا رسول الله ، إني قد زنيت فطهرني ، وإنه ردها فلما كان الغد قالت : يا رسول الله لم تردني ؟ لعلك أن تردني كما رددت ماعزا فو الله إني لحبلى إقال : إما لا فاذهبي حتى تلدى ،

(١) النووى على مسلم ٦ / ٢١٦ وشرح صحيح مسلم للأبي المسمى إكمال إكمال المعلم ط الرياض دون تاريخ والسنوسى عليه المسمى مكمل إكمال إكمال المعلم ٤ / ٤٥١ ، ٤٥٢ .

فلما ولدت أخته بالصبي في خرقة ، قالت : هذا قد ولدته ، قال : اذهبي فأرضعيه حتى تطفميه ، فلما فطمته أخته بالصبي في يده كسرة خبز ، فقالت : هذا يانبي الله قد فطمته ، وقد أكل الطعام فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها ، وأمر الناس فرجموها ، فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتتضح الدم على وجه خالد فسبها ، فسمع نبي الله — صلى الله عليه وسلم — سبه إياها ، فقال : مهلا يا خالد ! فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لوتأبها صاحب مكس لغفر له ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت " (١)

قولها : " لعلك أن تردني كما رددت ماعزا فوالله إنني لحبلى " لعل هنا للاستفهام ، وتقدير المعنى : هل ستردني كما رددت ماعزا ؟ فوالله إنني لحبلى ! وكأنها استكشفت من حال الرسول — صلى الله عليه وسلم — أنه سيفعل معها مثل ما فعل مع ماعز ، وقد جاء هذا صريحا في رواية أخرى للحديث : أراك تريد أن تردني كما رددت ماعزا ، وعندما توقعت رد الرسول — صلى الله عليه وسلم — لها استفهمت بلعل استفهام من يتوقع حصول الجواب ، ويؤيد ذلك أنها أتبع أسلوب الترجي أسلوب قسم مؤكد بعدة تأكيدات ، فخاطبت الرسول — صلى

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الحدود باب من اعترف على نفسه بالزنا .

الله عليه وسلم — خطاب المنكر حتى تقطع عليه كل سبيل لردّها مما يكشف عن قوة إيمانها .

عن سبيعة الأسلمية — رضى الله عنها — أنها كانت تحت سعد بن خولة ، وهو فى بنى عامر بن لؤى ، وكان ممن شهد بدرا فتوفى عنها فى حجة الوداع ، وهى حامل فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته ، فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب ، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك (رجل من بنى عبد الدار) فقال لها : مالى أراك متجملة ؟ لعلك ترجين النكاح ؟ إنك والله ماأنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر ، قالت سبيعة : فلما قال لى ذلك جمعت على ثيابى حين أمسيت ، فأتييت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فسألته عن ذلك فأفتانى بأنى قد حللت حين وضعت حملى ، وأمرنى بالتزوج إن بدا لى " (١)

قوله : "لعلك ترجين النكاح " استخدمت لعل هنا فى الاستفهام ، وتقدير المعنى : أترجين النكاح ؟ وإنما استفهم بلعل لأنه حين دخل عليها ، فرآها متجملة توقع أنها ترجو النكاح ، فاستخدم لعل التى تصطبح التوقع مع دلالتها على الاستفهام ، فوافقت لعل الحال ولاءمت المقام ، ولو استخدم أداة استفهام هنا لما وفّت بالغرض .

(١) رواه مسلم فى صحيحه كتاب الطلاق باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها وغيرها بوضع الحمل.

عن واسع بن حبان عن عبد الله بن عمر — رضى الله عنهم — أنه كان يقول : إن ناسا يقولون : إذا قعدت على حاجتك فلا تستقبل القبلة ، ولا بيت المقدس ، فقال : عبد الله بن عمر : لقد ارتقيت يوما على ظهر بيت لنا فرأيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على لبنتين مستقبلا بيت المقدس لحاجته ، وقال : لعلك من الذين يصلون على أوراكهم ، فقلت : لأدرى والله ، قال مالك : يعنى الذى يصلى ولا يرتفع عن الأرض يسجد وهو لاصق بالأرض " (١)

قوله : " لعلك من الذين يصلون على أوراكهم " استخدمت لعل هنا فى الاستفهام ، بدليل الجواب : فقلت لأدرى والله ، وتقدير المعنى : أنت من الذين يصلون على أوراكهم ؟ يقول العيني : " قوله : لعلك من الذين يصلون على أوراكهم الخطاب فيه لواسع ، أى لعلك من الذين لا يعرفون السنة إذ لو كنت عارفا بالسنة لعرفت جواز استقبال بيت المقدس ، ولما التفت إلى قولهم ، وإنما كنى عن الجاهلين بالسنة بالذين يصلون على أوراكهم لأن المصلى على الورك لا يكون إلا جاهلا بالسنة ، وإلا لما صلى عليه ، والسنة فى السجود التخوية : أى لا يلصق الرجل بالأرض بل يرفع عنها " (٢)

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الطهارة (الوضوء) باب من تبرز على لبنتين .

(٢) عمدة القارى ٢/ ٢٨١ .

وقد استفهم عبد الله بن عمر — رضى الله عنهما — بلعل ، دلالة على أنه توقع من حال واسع وجهله بحكم استقبال القبلة واستدبارها ببول أو غائط ، توقع جهله بالسنة في السجود أيضا ، لذا استخدم لعل التي تصطبح التوقع مع دلالتها على الاستفهام .

عن عائشة زوج النبي — صلى الله عليه وسلم — أنها قالت لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — يا رسول الله ! إن صفية بنت جبي قد حاضت ، قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — لعلها حابستنا ، ألم تكن طافت معكن ؟ فقالوا : بلى ، قال : فاخرجي " (١) قوله : " لعلها حابستنا " لعل هنا للاستفهام يؤيد ذلك روايات الباب الأخرى التي وردت بالاستفهام ، والاستفهام كثيرا ما يكون نتيجة تردد أو ظن ، وبهذا يمكن الجمع بين كلام الأئمة حين قالوا : " لعل هنا ليس للترجي بل للاستفهام ، أو للتردد أو للظن وما شاكله " (٢) ومما يؤيد أنها للاستفهام أيضا السؤال الذي جاء بعدها : ألم تكن طافت معكن ؟ واستخدام لعل في الاستفهام هنا يكشف عن الحال التي كانت عليها صفية ، كما ورد في رواية أخرى : " عن عائشة قالت : لما

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الحيض ، باب المرأة تحيض بعد الإفاضة ، ورواه مسلم فى صحيحه كتاب الحج باب وجوب طواف الوداع .

(٢) شرح الكرماني ٢٠٣/٣ ، وعمدة القارى ٣١٣/٣ .

أراد الرسول أن ينفر إذا صفية على باب خبائها كتيبة حزينة . . . " هذا الحال جعل الرسول — صلى الله عليه وسلم — يتوقع أنها حابستهم ، فجئ بلعل التي تصطحب التوقع مع دلالتها على الاستفهام ، ملاءمة للحال ، ومطابقة للمقام .

عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : خرجنا مع النبي — صلى الله عليه وسلم — لاندكر إلا الحج ، فلما جئنا سرف طمشت ، فدخل على النبي — صلى الله عليه وسلم — وأنا أبكى ، فقال : ما يبكيك ؟ قلت : لوددت والله أنى لم أحج هذا العام ، قال : لعلك نفست ، قلت نعم ، قال : فإن ذلك شئ كتبه الله على بنات آدم ، فافعل ما يفعله الحاج غير أن لا تطوفى بالبيت حتى تطهرى " (١)

قوله : " لعلك نفست " لعل هنا للاستفهام بدليل الجواب : نعم ، والترجى لا يحتاج جوابا ، وإنما أورد الرسول — صلى الله عليه وسلم — الاستفهام بلعل تلاؤما مع مارأى من الحال حيث دخل عليها وهى تبكى كما جاء فى الحديث ، فقد جعلته هذه الحال يتوقع أن تكون أم المؤمنين عائشة قد طمشت ، فجاء بلعل التى تصطحب التوقع مع دلالتها على الاستفهام .

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الحيض باب تقضى الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت ، ورواه مسلم فى صحيحه كتاب الحج باب تفعل الحائض والنفساء جميع المناسك إلا الطواف .

ثانيا : التحقيق

عن أبي بكرة — رضى الله عنه — قال : أخرج النبى — صلى الله عليه وسلم — ذات يوم الحسن ، فصعد به على المنبر فقال : ابنى هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين " (١)

لعل هنا تفيد التحقيق ، ويؤيد ذلك أن ما أخبر به — صلى الله عليه وسلم — قد وقع حين ترك الحسن — رضى الله عنه — الخلافة لمعاوية — رضى الله عنه — حقنا لدماء المسلمين ، وارتفع بذلك التراع بين الطائفتين ، وعلى الرغم من أن ما أخبر به — صلى الله عليه وسلم — من الوحى إذ هو لا ينطق عن الهوى ، إلا أنه أوردته بلعل التى تفيد فى أصلها التوقع ؛ كشفا عن أدب النبوة فى الإخبار بالأمور المستقبلية عن أشخاص بأعيانهم ، وهذا هو سر استخدام لعل فى التحقيق .

عن أبي سعيد — رضى الله عنه — أنه سمع النبى — صلى الله عليه وسلم — وذكر عنده عمه ، فقال : لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة ، فيجعل فى ضحضاح (٢) من النار يبلـغ كعبه يغلى منه

دماغه " (١)

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الصلح باب قول النبى : ابنى هذا سيد وكتاب الفتن باب قول النبى (ابنى هذا سيد)

(٢) الضحضاح : ماء قليل لاعمق فيه مقاييس اللغة واللسان والوسيط مادة (ض ح ض ح) .

لعل هنا تفيد التحقيق ، فقد ذكر القرطبي في المفهم ما يدل على هذا حيث قال : " هذا المرجحى في هذا الحديث قد تحقق وقوعه ، إذ قال النبى: — صلى الله عليه وسلم — " وجدته في غمرات فأخرجته إلى ضحضاح " فكأنه لما ترجى ذلك أعطيه وحقق له ، فأخبر به " (٢) ولقد طرح القرطبي سؤالاً هو : هل هذه الشفاعة لبيان قول محقق ، أو لسان حال ؟ ثم أجاب بقوله : اختلف فيه : فإن تزلنا على أنه حقيقة ، وأنه — صلى الله عليه وسلم — شفع لأبي طالب بالدعاء والرغبة حتى شفع ، عارضه قوله تعالى : — " فما تنفعهم شفاعة الشافعين " (المدثر / ٤٨) وقوله : — " ولا يشفعون إلا لمن ارتضى " (الأنبياء / ٢٨) وما في معناه ، والجواب من أوجه :

أقربها أن الشفاعة المنفية إنما هي شفاعة خاصة ، وهي التي تخلص من العذاب ، وغاية ما ذكر من المعارضة ، إنما هي بين خصوص وعموم ، ولا تعارض بينهما ، إذ النبأ والجمع ممكن ، وإن تزلنا على أنه لسان حال ، فيكون معناه : أن أبا طالب لما بالغ في إكرام النبى والذب عنه خفف عنه بسبب ذلك ما كان يستحقه بسبب كفره مع ما حصل عنده من معرفته صدق النبى — صلى الله عليه وسلم — . . . ولما كان ذلك

(١) رواه البخارى في صحيحه كتاب المناقب باب قصة أبي طالب و كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب شفاعة النبى — صلى الله عليه وسلم — لأبي طالب .
(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي ٤٥٧/١ .

بسبب وجود النبي ، وبركة الحنو عليه نسبه النبي — صلى الله عليه وسلم — إلى نفسه " (١)

ولعل السر في إيراده بلعل التي من معانيها التوقع الترهيب من البقاء على الكفر لأن البقاء على الكفر لا تنفع معه شفاعته ، وآية ذلك موقف الرسول — صلى الله عليه وسلم — من عمه — على حمايته إياه — ومع ذلك لم يورد قبول شفاعته فيه بأسلوب التحقيق حتى لا يجرو مجترئ على طلب الشفاعة لمن مات على الكفر ففيه قطع للأطماع .

عن عبد الله بن أبي زمعة أنه سمع النبي — صلى الله عليه وسلم — يخطب وذكر الناقة والذي عقر ، فقال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — إذ انبعث أشقاها : انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في رهطه مثل أبي زمعة ، وذكر النساء فقال : يعمد أحدكم يجلد امرأته جلد العبد ، فلعله يضاجعها من آخر يومه ، ثم وعظهم في ضحكهم من الضرطة ، وقال : لم يضحك أحدكم مما يفعل ؟ " (٢)

(١) المفهم ١ / ٤٥٧ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير سورة "والشمس وضحاها" ومسلم في صحيحه كتاب التفسير تفسير سورة الشمس .

استخدمت لعل هنا في التحقيق ، وتقدير المعنى : يعمد أحدكم يجلد امرأته جلد العبد ، ويضاجعها من آخر يومه ، ولعل الرسول — صلى الله عليه وسلم — أثر التعبير بلعل على العبير بالتحقيق ؛ إشارة منه إلى أن مجرد توقع حدوث المضاجعة مما ينفر من معاملة المرأة معاملة العبد ، ويدعو إلى الإقلاع عن هذا العمل ، فإذا ما كان مجرد التوقع مما يدعو إلى هذا فمن الأولى تركه إذا ما كان محققا ، وقد نبه إلى هذا القرطبي عند شرحه الحديث بقوله : " هذا إنكار على من يجلد زوجته ، ويكثر من ذلك حتى يعاملها معاملة الأمة ، ثم إنه بعد ذلك باليسير يرجع إلى مضاجعتها ، وإلى قضاء شهوته منها فلا تطاوعه ، ولا تتحسن له ، وقد تبغضه ، وقد يكون هو يحبها فيفسد حاله ، ويتفاقم أمرهما ، وتزول الرحمة والمودة التي جعلها الله — تعالى — بين الأزواج ، ويحصل نقيضها ، فنبه — صلى الله عليه وسلم — بهذا اللفظ الوجيز على ما يطرأ من ذلك من المفاسد " (١)

عن أم سلمة — رضى الله عنها — عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج إليهم ، فقال : إنما أنا بشر وإنما يأتيني الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبغ من بعض ،

(١) المفهم ٤٢٩/٧ .

فأحسب أنه صدق ، فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم ،
فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو يتركها " (١)

لعل هنا مستعملة في التحقيق ، وتقدير المعنى : إنه يأتي الخصم ،
ويكون أبلغ من بعض ، والواقع يشهد بهذا فالناس متفاوتون في البيان عن
حوادثهم ، والذي يؤيد أن الأسلوب يفيد التحقيق أنه حكم على البعض
، وهو أمر محقق ، وفي إيراد الأسلوب بلعل المفيدة التوقع بلاغة عظيمة لما
يوحي به من أدب جم من الرسول — صلى الله عليه وسلم — إذ لم يجه
بعض الحضور من الصحابة حال الخطاب باستلاب الحقوق بحجة مغلوطة

عن سعد بن أبي وقاص — رضى الله عنه — قال : جاء النبي
— صلى الله عليه وسلم — يعودني وأنا بمكة ، وهو يكره أن يموت
بالأرض التي هاجر منها ، قال : يرحم الله ابن عفرأ ، قلت : يارسول
الله أوصى بمالى كله ، قال : لا ، قلت : فالشطر ، قال : لا قلت :
الثلث ، قال : فالثلث والثلث كثير ، إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير
من أن تدعهم عالة يتكففون الناس في أيديهم ، وإنك مهما أنفقت من

(١) رواه البخارى في صحيحه كتاب المظلم باب إثم من حاصم في باطل وهو يعلمه وكتاب الأحكام باب
من قضى له بحق أخيه فلا يأخذه ورواه مسلم في صحيحه كتاب الأقضية باب الحكم بالظاهر واللعن
بالحجة .

نفقة ، فإنها صدقة حتى اللقمة التي ترفعها إلى في امرأتك ، وعسى الله أن يرفعك فينتفع بك ناس ويضر بك آخرون ، ولم يكن له يومئذ إلا ابنة " (١)

خرج الترجي هنا عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي وهو التحقيق ، فإن سعدا — رضى الله عنه — عاش حتى فتح العراق ، أى : عاش أزيد من أربعين سنة ؛ لأنه مات سنة خمس وخمسين من الهجرة ، وقيل سنة ثمان وخمسين ، فيكون عاش بعد حجة الوداع خمسا وأربعين أو ثمانيا وأربعين (٢) وهذا الحديث من أعلام نبوته — صلى الله عليه وسلم — وأدله على صدق الرسالة ، أما انتفاع أقوام به وتضرر آخرين منه ، فقد اختلف العلماء في توجيه النفع والضرر ، والجمهور على أن المراد : انتفع به أقوام في دينهم ودنياهم ، وتضرر به الكفار في دينهم ودنياهم فإنهم قتلوا وصاروا إلى جهنم وسييت نساؤهم وأولادهم وغنمت ديارهم وأموالهم ، وولى العراق فاهتدى على يديه خلائق ، وتضرر به خلائق بإقامة الحق فيهم من الكفار ونحوهم (٣) وهناك تفسيرات أخر ذكرها ابن التين والطحاوى (٤) ولقد اختلفت أداة الترجي في روايات البخارى هذا

(١) رواه البخارى في صحيحه كتاب الوصايا باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس وكتاب النفقات باب فضل النفقة على الأهل وكتاب المناقب باب قول النبي اللهم امض لأصحابي همجهم وكتاب المغازي باب حجة الوداع ومسلم في صحيحه كتاب الوصية باب الوصية بالثلث .

(٢) عمدة القارى بشرح صحيح البخارى للعيني ٣٤/١٤ .

(٣) شرح صحيح مسلم للنووى ٩١/٦ .

(٤) عمدة القارى ٣٥، ٣٤/١٤ .

الحديث ما بين لعل وعسى ، ولعل السر في إثارة استخدام لعل في معنى التحقيق إبراز أدب النبوة حيال الأمور المستقبلية المختصة بأشخاص بأعيانهم ، فوق أن فيه إظهار الحب لسعد — رضى الله عنه — ففرق بين أن تحمل إلى بشارة فتخبرني بها مباشرة ، وبين أن تخبرني إياها متشحة بأسلوب يظهر حبي لك إياها لما في لعل من توقع طلب المحبوب .

عن أبي هريرة — رضى الله عنه — أن رجلا أتى النبي — صلى الله عليه وسلم — فقال : يا رسول الله ولد لى غلام أسود ، فقال : هل لك من إبل ؟ قال : نعم ، قال : هل فيها من أورك ؟ قال : نعم ، قال : فأنى ذلك ؟ قال : لعله نزع عرق ، قال : فلعل ابنك هذا نزع عرق " (١)

إنما شك الرجل هذه الشكوى لأن له امرأة بيضاء ولدت له غلاما أسود ، "وإنما ضرب له المثل بالإبل لأن الحيوانات تجرى طباع بعضها على

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الطلاق باب إذا عرض بنفى الولد وكتاب الحدود باب ما جاء فى التعريض وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب من شبه أصلا معلوما بأصل مبین ورواه مسلم فى صحيحه كتاب اللعان أول الكتاب .

مشاكلة بعض فى اللون والخلقة ، ثم قد يندر منها الشئ لعارض ، فكذلك
الآدمى يَختلف بحسب نواذر الطباع ، ونواذر العروق " (١)
والملاحظ أن لعل هنا وردت مرتين ، مرة على لسان الرجل ، ومرة
على لسان الرسول — صلى الله عليه وسلم — فالأولى على باهما من
التوقع ، أما الثانية فهى تفيد التحقيق ، وقد نقل العيني عن الداودى قوله
: " لعل هنا للتحقيق " (٢) وكأن تقدير الكلام : وابنك هذا نزرعه عرق ،
وإنما أورده الرسول — صلى الله عليه وسلم — بأسلوب التوقع — مشاكلة
لكلام الرجل ، وفى هذه المشاكلة قوة حجة إذ نفى الرسول — صلى الله
عليه وسلم — شك الأعرابى من جنس كلامه ، ورواية مسلم ورد فيها
قول الرجل بلعل ، وقول الرسول بعسى وفى هذا إشارة إلى أن الرسول
— صلى الله عليه وسلم — كان الأحب إليه نفى التهمة ما وجد إلى ذلك
سبيلا ؛ لما تفيده عسى من الطمع فى المحبوب .

عن حذيفة بن اليمان — رضى الله عنه — قال : كنا مع رسول
الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : أحصوا لى كم يلفظ الإسلام ،
قال : فقلنا : يارسول الله أتخاف علينا ونحن ما بين الستمائة إلى
السبعمائة ؟ قال : إنكم لاتدرون لعلكم أن تبتـلوا ، قال

(١) عمدة القارى للعيني ٢٤ / ٢٢ .

(٢) السابق ٢٠ / ٢٩٤ .

: فابتلينا حتى جعل الرجل منا لا يصلى إلا سرا " (١)

قوله : "إنكم لاتدرون لعلكم أن تبتلوا " لعل هنا من الرسول — صلى الله عليه وسلم — على وجه اليقين والتحقيق يدل على هذا أحاديث الفتن التي رواها الرسول — صلى الله عليه وسلم — من ذلك مارواه حذيفة — رضى الله عنه — قال : " كان الناس يسألون رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى ، فقلت: يا رسول الله إنا كنا فى جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم ، قلت وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال : نعم وفيه دخن ، قلت وما دخنه ؟ قال : قوم يهدون بغير هدى ، تعرف منهم وتنكر ، قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم دعاة إلى أبواب جهنم من أجاهم إليها قذفوه فيها ، قلت : يا رسول الله صفهم لنا ، فقال: هم قوم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا ، قلت: فما تأمرنى إن أدركنى ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم ، قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض بأصل شجرة ، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك " (٢)

(١) رواه مسلم فى صحيحه كتاب الإيمان باب الاستسرار بالإيمان للخائف .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه كتاب المناقب باب علامات النبوة وكتاب الفتن باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة ومسلم فى صحيحه كتاب الإمامة باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين ، وأبو داود كتاب الفتن والملاحم باب ذكر الفتن ودلائلها وأحمد فى مسنده كتاب باقى مسند الأنصار .

ومنها أيضا مارواه عامر بن سعد عن أبيه أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أقبل ذات يوم من العالية حتى إذا مر بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين ، وصلينا معه ، ودعا ربه طويلا ، ثم انصرف إلينا فقال : صلى الله عليه وسلم — سألت ربي ثلاثا فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة ، سألت ربي ألا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها " (١)

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الفتن وأشراط الساعة باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ، وراه الترمذى في الجامع كتاب الفتن باب ما جاء في سؤال النبي ثلاثا في أمته ورواه النسائي في السنن كتاب قيام الليل وتطوع النهار باب إحياء الليل ورواه أحمد في مسنده مسند العشرة المبشرين بالجنة ومسند البصريين ومسند الأنصار ومسند القبائل .

ومنها مارواه حذيفة أيضا من حديث الفتنة المشار فيه إلى عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — وقد سبق الحديث في الترجى الذى خرج إلى الاستفهام (١) فهذه الأحاديث وغيرها كثير من أحاديث الفتن تدل أن لعل من الرسول — صلى الله عليه وسلم — هنا يقين وتحقيق ، ، ولعل الرسول — صلى الله عليه وسلم — عبر بأداة التوقع ؛ إشفافا منه على أصحابه من هذا الابتلاء ، نحو لعل الحبيب مريض ، وفيه أيضا تحذير لأن العاقل إذا جاوز وقوع خطر احتاط له .

وقد اتفق العلماء على أن هذا الابتلاء كان بعد وفاته — صلى الله عليه وسلم — لكنهم اختلفوا في تحديد مراد الرسول بهذا الابتلاء قال الأبي : " يقول القاضى عياض : هذا لم يقع فى زمنه — صلى الله عليه وسلم — منذ بلغ الإسلام هذا العدد ودونه بكثير ، ولعل قول حذيفة هذا كان بعد وفاته — صلى الله عليه وسلم — وهم بحكمة حين كان المشركون يمنعونهم وهو بعيد من السياق ومن اللفظ ؛ لعطفه "فابتلينا" بالفاء ، ويحتمل أن يكون ذلك وقع فى فتنة عثمان إلا أن يريد بالابتلاء الابتلاء بعدو الدين على أن الابتلاء أعم " (٢)

(١) راجع الحديث فى خروج الترجى إلى الاستفهام .

(٢) شرح صحيح مسلم لأبي عبد الله الأبي المسمى إكمال إكمال المعلم ٢٥٦/١ .

ويقول النووي : " لعله كان في بعض الفتن التي جرت بعد النبي — صلى الله عليه وسلم — فكان بعضهم يخفى نفسه ، ويصلي سرا مخافة من الظهور والمشاركة في الدخول في الفتنة والحروب " (١)

ولعل الراجح أن هذا الابتلاء أعم يشمل كل زمان تقع فيه الفتن ، وتعاقب الفتن في الأزمنة المختلفة يؤيد هذا ويرجح ، وهنا شيء ينبغي التنبيه إليه هو أن اسم لعل جاء بكاف الخطاب فيقصد به الحضور من أجل ذلك جاء بلعل حتى لا يجبه الحضور بما ينغص عليهم حياتهم .

عن علي بن أبي طالب — رضى الله عنه — قال : بعثني رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأبا مرثد والزبير ، وكلنا فارس ، قال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — فقلنا الكتاب ، فقالت : مامعنا كتاب ، فأئخناها فالتمسنا فلم نر كتابا ، فقلنا ما كذب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لتخرجن الكتاب أو لنجردنك ، فلما رأيت الجد أهوت إلى حجزتها ، وهي محتجزة بكساء ، فأخرجته فانطلقنا بها إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال عمر : يارسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعني فلاضرب عنقه فقال

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ١ / ٤٥٨ .

النبي — صلى الله عليه وسلم — ما حملك على ما صنعت ؟ قال
حاطب : والله ما بي إلا أكون مؤمنا بالله ورسوله — صلى الله عليه
وسلم — أردت أن تكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي
، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن
أهله وماله ، فقال النبي : — صلى الله عليه وسلم — صدق ولا تقولوا
له إلا خيرا ، فقال عمر : إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعني
فلأضرب عنقه ، فقال : أليس من أهل بدر ؟ فقال : لعل الله اطلع
على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة أو فقد
غفرت لكم فدمعت عينا عمر ، وقال : الله ورسوله أعلم " (١)

قوله : " لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد
غفرت لكم " لعل هنا من الرسول — صلى الله عليه وسلم — يقين
وتحقيق ، لذا قال القرطبي : " لعل للترجي ، لكن هذا الرجاء محقق للنبي
— صلى الله عليه وسلم — بدليل ما ذكر الله — تعالى — في قصة أهل
بدر في آل عمران ، والأنفال من ثنائهم عليهم ، وعفوه عنهم ، وبدليل
قوله — صلى الله عليه وسلم — للذي قال في حاطب إنه يدخل النار ،

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الجهاد والسير باب إذا اضطرب الرجل إلى النظر في شعور أهل الذمة
وكتاب المغازي باب فضل من شهد بدرا وكتاب الاستئذان باب من نظر في كتاب من يحذر على المسلمين
ليستين وكتاب استنابة المرتدين باب ما جاء في المتأولين ورواه مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة
باب من فضائل أهل بدر وقصة حاطب ابن أبي بلتعة .

وأقسم عليه : كذبت ، لا يدخلها فإنه شهد بدرا ، فهذا إخبار محقق
لا احتمال فيه ولا تجوز " (١)

وقد ذكر العيني هذا أيضا في قوله : " الترجى في كلام الله وكلام
رسوله للوقوع ، وقد وقع عند أحمد وأبي داود ، وابن أبي شيبة من
حديث أبي هريرة بالجزم ، ولفظه : إن الله اطلع على أهل بدر فقال :
اعملوا ما شئتم فقد غفرت ، وعند أحمد بإسناد على شرط مسلم من
حديث جابر مرفوعا : لن يدخل النار أحد شهد بدرا " (٢)

ولعل السر في إirاده — صلى الله عليه وسلم — هذه البشرى
بأسلوب الاحتمال هو حث عمر على الشكر ودفعه إلى سرعة الانتهاء
عن التحدث بقتل حاطب — رضى الله عنه — لأنه إذا ما كان النهى عن
قتل من تتوقع مغفرته لزاما فمن الأولى الانتهاء عمن تيقن له ذلك .

(١) المفهم للقرطبي ٤٤٠/٧ ، ٤٤١ .

(٢) عمدة القارى للعيني ٩٦/١٧ .

ثالثا : خروج لعل إلى الظن

عن رافع بن خديج — رضى الله عنه — قال : قدم نبي الله — صلى الله عليه وسلم — المدينة وهم يأبرون النخل ، فقال : ماتصنعون ؟ قالوا : كنا نصنعه ، قال : لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا ، فتركوه : فنفضت أو فنقصت ، قال : فذكروا ذلك له ، فقال إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشئ من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشئ من رأى فإنما أنا بشر " (١)

"قوله : لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا " استخدمت لعل هنا في الظن مجازا ، وتقدير المعنى : أظن أنكم لو لم تفعلوا كان خيرا ، ويؤيد هذا المعنى رواية أخرى للحديث ورد فيها لفظ الظن صريحا " عن موسى بن أبي طلحة عن أبيه قال : مررت مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بقوم على رؤوس النخل فقال : ما يصنع هؤلاء ؟ فقالوا يلحقونه يجعلون الذكر في الأنثى فتلقح ، فقال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — ما أظن يغني ذلك شيئا ، قال : فأخبروا بذلك فتركوه ، فأخبر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بذلك فقال : إن كان ينفعهم ذلك

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل باب وجوب امتثال ما قاله الرسول شرعا .

فليصنعوه ، فإنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به ، فإن لن أكذب على الله — عز وجل " (١) وإنما ظن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — هذا " لأنه لم يكن عنده علم باستمرار هذه العادة ، فإنه لم يكن ممن عانى الزراعة ولا الفلاحة ، ولا باشر شيئا من ذلك وخفيت عليه تلك الحالة ، وتمسك بالقاعدة الكلية المعلومة التي هي : ليس في الوجود ولا في الإمكان فاعل ولا خالق ولا مؤثر إلا الله — تعالى . . . " (٢) ولعل السر وراء إيراده — صلى الله عليه وسلم — الظن بلعل المفيدة التوقع ؛ ترك التعبير بالظن الذي قد يفيد اليقين ، وليس له — صلى الله عليه وسلم — من المعرفة ما يبنى عليه يقينا في هذا الأمر فوفت لعل هنا بالمقام ولاءمت المقصود .

عن جابر بن عبد الله — رضى الله عنهما — قال : بعثنى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في حاجة له فانطلقت ، ثم رجعت وقد قضيتها ، فأتيت النبي — صلى الله عليه وسلم — فسلمت عليه فلم يرد علي فوقع في قلبي ما الله أعلم به ، فقلت في نفسي : لعل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وجد علي أني أبطأت عليه ، ثم سلمت عليه فلم يرد علي فوقع في قلبي أشد من المرة الأولى ، ثم سلمت عليه

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل باب وجوب امتثال ما قاله الرسول شرعا .

(٢) المفهم للقرطبي ١٦٨/٦ .

فرد على ، فقال : إنما معنى أن أرد عليك أنى كنت أصلى ، وكان على راحلته متوجها إلى غير القبلة " (١)

قوله : " فقلت فى نفسى لعل رسول الله وجد على أنى أبطأت عليه " استخدم الترجى هنا فى الظن مجازا ، وذلك أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لما أرسل جابرا — رضى الله عنه — فى حاجة له وامثل جابر أمره — صلى الله عليه وسلم — وأتى وكرر إلقاء السلام عليه بعد امتثال أمره ، وتكرر عدم الرد من الرسول — صلى الله عليه وسلم — فكان لمثله أن يظن أن بالرسول — صلى الله عليه وسلم — غضبا منه ، ومما يؤيد إفادة لعل الظن هنا أنه — رضى الله عنه — ذكر سبب ظنه ذاك ، وقد أورده بلعل لما تدل عليه لعل من الإشفاق من توقع المكروه ، ويتلاءم ذلك مع حال الصحابة — رضوان الله عليهم — فى حبهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وحرصهم الشديد على عدم إغضابه ليقينهم أن إغضابه إغضاب الله — عز وعلا — فوفت لعل بحق السياق والمقام ، لذا كان جوابه — صلى الله عليه وسلم — شافيا صدر جابر — رضى الله عنه .

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الجمعة ، باب : لا يرد السلام فى الصلاة .

رابعاً : التعليل

عن أبي مسعود الأنصارى أن رجلاً من الأنصار يقال له
: أبو شعيب كان له غلام لحام ، فقال له أبو شعيب : اصنع لى طعام
خمسة لعلى أدعو النبي — صلى الله عليه وسلم — خامس خمسة ،
وأبصر فى وجه النبي — صلى الله عليه وسلم — الجوع فدعاه فـتبعهم
رجل لم يدع ، فقال له النبي : — صلى الله عليه وسلم — إن هذا قد
اتبعنا أتأذن له ؟ قال : نعم " (١)

وقعت لعل هنا بمعنى كى ، وتقدير المعنى : اصنع لى طعام خمسة
كى أدعو النبي ، ومع هذا لم يذهب منها معنى الترجى ، لأن صنع الطعام
المرتب على إبصار الجوع فى وجه النبي — صلى الله عليه وسلم — سبب
يرجى منه دعوة الرسول — صلى الله عليه وسلم — واستخدام لعل هنا
وإثارة الصحابي الجليل إياها على كى أظهر حب الصحابي الجليل رسول
الله — صلى الله عليه وسلم — إذ أظهر دعوته فى صورة المحب إلى النفس
المرجو الوقوع .

أما استخدام كى فيفيد التعليل فقط فوق أن فيه شوباً من إيهام أن
إبصار الجوع فى وجهه — صلى الله عليه وسلم — هو السبب الوحيد فى

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب المظالم والغصب ، باب : إذا أذن إنسان لآخر شيئاً جاز ، وكتاب
الأطعمة باب : الرجل يدعى إلى طعام فيقول وهذا معى .

دعوته إلى الطعام ، وليس ذلك هو مراد الصحابي الجليل . فلم يكن ملائما أن تقع كى هنا لأن وقوعها هنا يذهب بهاء المعنى ويطفئ نوره .

عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : لما ثقل النبي — صلى الله عليه وسلم — واشتد به وجعه استأذن أزواجه في أن يعرض في بيتي فأذن له فخرج النبي — صلى الله عليه وسلم — بين رجلين تخط رجلاه في الأرض بين عباس ورجل آخر ، قال عبيد الله : فأخبرت عبد الله بن عباس فقال : أتدري من الرجل الآخر ؟ قلت : لا ، قال : هو على وكانت عائشة — رضى الله عنها — تحدث أن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : — بعدما دخل بيته ، واشتد وجعه — هريقوا على من سيع قرب لم تحلل أو كيتهن ^(١) لعلى أعهد إلى الناس ، وأجلس في مخضب ^(٢) لحفصة زوج النبي — صلى الله عليه وسلم — ثم طفقنا نصب عليه من تلك القرب ، حتى طفق يشير إلينا أن قد فعلت ، ثم خرج إلى الناس " ^(٣)

(١) الوكاء : الخيط الذى تشد به الصرة أو الكيس وغيرها يراجع مقاييس اللغة واللسان والوسيط مادة (و ك ي)

(٢) المخضب : الإجانة تغسل فيها الثياب المراجع السابقة مادة (خ ض ب)

(٣) رواه البخارى في صحيحه كتاب الوضوء باب الغسل والوضوء في المخضب والقدر والخشب والحجارة وكتاب المغازى باب مرض النبي ووفاته وكتاب الطب باب اللدود.

قوله : " لعلى أعهد إلى الناس " لعل هنا بمعنى كى ، وتقدير المعنى : هريقوا على من سبع قرب لم تحلل أو كيتهن كى أعهد إلى الناس ، ومع هذا لم يذهب منها معنى الترجى لأن إراقة الماء مما يرجى أن يكون سببا للعهد والوصية إلى الناس ، وهذا يبين أن للسياق دورا بالغيا في تحديد الدلالة ، وأن المعنى الأصلى للعل لا يغادرها إذ وضع لها تحقيقا ، وأشرك السياق معه معنى آخر ، وما من ريب أن استخدام لعل هنا يكشف عن إشفاق الرسول — صلى الله عليه وسلم — على أمتة ونصحه إياها ، وهو فى أشد حالات المرض ، واستخدام كى هنا يفيت هذه اللطيفة .

عن البراء بن عازب — رضى الله عنه — قال : بعث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى أبى رافع اليهودى رجالا من الأنصار ، فأمر عليهم عبد الله ابن عتيك وكان أبو رافع يؤذى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ويعين عليه ، وكان فى حصن له بأرض الحجاز ، فلما دنوا منه وقد غربت الشمس ، وراح الناس بسرحهم ، فقال عبد الله لأصحابه اجلسوا مكانكم ، فإنى منطلق ومتلطف للبواب ، لعلى أن أدخل ، فأقبل حتى دنا من الباب ثم تقنع بثوبه كأنه يقضى حاجة ، وقد دخل الناس فهتف به البواب يا عبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل فإنى أريد أن أغلق الباب فدخلت فكمنت ، فلما دخل

الناس أغلق الباب ، ثم علق الأغاليق على وتد ، قال : فقممت إلى الأقاليد فأخذتها ففتحت الباب وكان أبو رافع يسمر عنده ، وكان في علالي له ، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه فجعلت كلما فتحت باب أغلقت على من داخل ، قلت : إن القوم نذروا بي لم يخلصوا إلى حتى أقتله ، فانتهيت إليه فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله ، لا أدرى أين هو من البيت ، فقلت : يا أبارافع ، قال : من هذا فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش ، فما أغنيت شيئا وصاح ، فخرجت من البيت فأمكنك غير بعيد ثم دخلت إليه فقلت : ما هذا الصوت يا أبا رافع ؟ فقال : لأملك الويل إن رجلا بالبيت ضربني قبل بالسيف ، قال : فأضربه ضربة أثخنه ، ولم أقتله ، ثم وضعت ظبة السيف في بطنه ، حتى أخذ في ظهره ، فعرفت أني قتلته ، فجعلت أفتح الأبواب بابا بابا حتى انتهيت إلى درجة له ، فوضعت رجلى وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض ، فوقعت في ليلة مقمرة ، فانكسرت ساقى ، فعصبتها بعمامة ، ثم انطلقت حتى جلست على الباب ، فقلت : لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته؟ فلما صاح الديك قام الناعى على السور ، فقال : أنعى أبارافع تاجر أهل الحجاز ، فانطلقت إلى أصحابي فقلت : النجاء ، فقد قتل الله أبا رافع ، فانتهيت إلى النبی —

صلى الله عليه وسلم — فحدثته فقال : ابسط رجلك ، فبسطت رجلى
فمسحها فكأفها لم أشتكها قط " (١)

قوله : " فإن منطلق ومتلطف للبواب لعل أن أدخل " استخدمت
لعل هنا في التعليل ، وتقدير الكلام : فإن منطلق ومتلطف للبواب كي
أدخل ، واستخدام لعل هنا يكشف عن راحة عقل الصحابي — رضى
الله عنه — لأن دخوله ليس يقينا ، أما كي فتفيد التيقن من الدخول ،
كما أن لعل تكشف حب الصحابي للجليل قتل هذا اليهودي ؛ شفاء
لصدر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لما تدل عليه من أن قتله
اليهودي أمر محبب إلى نفسه استجابة لأمر رسول الله — صلى الله عليه
وسلم — وتخليصا من أذاه ، وليس في كي شئ من هذا .

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب المغازی باب قتل أبي رافع عبد الله بن أبي الحقيق .

خامسا :الدعاء

عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : اشتكى ابن لأبى طلحة ، قال : فمات وأبو طلحة خارج ، فلما رأت امرأته أنه قد مات هيأت شيئا ، ونحته فى جانب البيت ، فلما جاء أبو طلحة قال : كيف الغلام ؟ قالت : قد هدأت نفسه وأرجو أن يكون قد استراح ، وظن أبو طلحة أنها صادقة ، قال : فبات فلما أصبح اغتسل ، فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات ، فصلى مع النبى — صلى الله عليه وسلم — ثم أخبر النبى — صلى الله عليه وسلم — بما كان منهما فقال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — لعل الله أن يبارك لكما فى ليلتكما قال سفيان : فقال رجل من الأنصار : فرأيت لهما تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن " (١)

قوله : " لعل الله أن يبارك لكما فى ليلتكما " استخدمت لعل هنا فى الدعاء مجازا يؤيد هذا المعنى الروايات الأخر للحديث وقد وردت كلها بالدعاء ، وفى هذا الاستخدام نكتة لطيفة ، هى إظهار المدعو به فى صورة

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الجنائز باب : من لم يظهر حزنه عند المصيبة.

المحب إلى النفس المرجو الوقوع ، وأى دعاء مرجو الوقوع
محب إلى النفس إلا أن إirاده بأسلوب الترجى فيه زيادة من
إظهار الحب ، وفى ذلك كله إلهاب للنفس المؤمنة على قبول
قضاء الله بالرضا لما فى ذلك من الخير فى الدارين .

الفصل الثاني

أسلوب المدح والذم

أسلوب التعجب

أسلوب رب

أسلوب كم

أسلوب المدح والذم في البيان النبوى

سبق الحديث عن أسلوب المدح والذم ، وبيان القول في كونه أسلوبا خبريا أو إنشائيا وقد رجحت فيما مضى ما عليه جمهور البلاغيين من عده أسلوبا إنشائيا غير طلبى وهو ما تمضى الدراسة عليه بمشيئة الله^(١) وقبل دراسة هذا الأسلوب بلاغيا في كلامه — صلى الله عليه وسلم — أوجز القول في هذا الأسلوب نحويا

أركان الأسلوب

أ — فعل

ب — فاعل

ج — المخصوص بالمدح أو الذم

خلاف النحاة في نعم ونس

أولا: البصريون

الرأى عند البصريين أنهما فعلاان ماضيان جامدان ولهم على ماذهبوا إليه أدلة أوجزها فيما يلى

- ١ — أن الضمير يتصل بهما على حد اتصاله بالأفعال ، فإنهم قالوا : نعمنا رجلين ونعموا رجالا ، ، كما قالوا : قاما ، وقاموا .
- ٢ — أن تاء التأنيث الساكنة التى لم يقلبها أحد من العرب هاء في الوقف تتصل بهما كما تتصل بالأفعال نحو : نعمت المرأة .

(١) التمهيد — أنواع الإنشاء غير الطلبى

٣ — أهما مبنيان على الفتح كالأفعال الماضية، ولو كانا اسمين لما بنيا على الفتح من غير علة .

ثانيا : الكوفيون

الرأى عند الكوفيين أهما اسمان ، ولهم على ماذهبوا إليه أدلة أوجزها فيما يلي : —

١— أهما جاءت في كلام العرب وأشعارها مسبوقة بحرف جر من ذلك قولهم (نعم السير على بنس العير) والجر مما يختص بالأسماء .

٢ — أهما وردت مناداة فالعرب تقول : يانعم المولى ويانعم النصير ، والنداء من خصائص الأسماء .

٣ — أنه لا يحسن اقتران الزمان بهما كسائر الأفعال ، فلا يحسن أن تقول : نعم الرجل أمس .

٤— أهما جامدان لا يتصرفان .

٥ — أن نعم قد استعملت في كلام العرب على وزن ليس من أوزان الأفعال فالعرب تقول : نعيم الرجل زيد .

موقف البصريين من رأى الكوفيين

رد البصريون أدلة الكوفيين بما أوجزه فيما يلي :

أولا : أن حرف الجر إنما دخل عليهما على تقدير الحكاية ، وحروف الجر تدخل على تقدير الحكاية ، وقد جاء حرف الجر داخلا على ما لا خلاف في أنه فعل ، ولم يقل أحد حينئذ بأنه اسم كما في قول الشاعر :

والله ما ليلي بنام صاحبه

فالتقدير : والله ما ليلي بليل نام صاحبه.

ثانيا : أن المقصود بالنداء محذوف للعلم به ، والتقدير فيه يا لله نعم المولى .

ثالثا : أنهما امتنعنا من اقتران الزمان (الماضي والمستقبل) بهما وسلبتا التصرف ؛ لأن (نعم) موضوعة لغاية المدح ، (وبئس) موضوعة لغاية الذم ، فجعلت دلالتهما على الزمان مقصورة على الآن ، لأنك إنما تمدح وتذم بما هو موجود في الممدوح والمذموم لا بما كان فزال ، ولا بما سيكون في المستقبل .

رابعا : أما استعمال نعم على نعيم فإنها رواية شاذة ، وإن صحت فليس فيها حجة ؛ لأن هذه الياء نشأت عن إشباع الكسرة ، لأن الأصل في نعم (بكسر النون وتسكين العين) نعم (بفتح النون وكسر العين) وأشبع الكسرة فنشأت الياء ، وهذا كثير في كلامهم .

هذا ولم يرد البصريون استدلال الكوفيين على اسمية نعم وبئس بالجمود ، لأنه أضعف من أن يرد عليه ، لأن العربية فيها كثير من الأفعال الجامدة ولم يقل أحد بأنها أسماء .

وهذا الخلاف هو أحد طريقتين للنحاة ، وهو المشهور في كتب النحو ، ولابن عصفور طريقة في تحرير الخلاف ، فقد ذكر أنه لم يختلف أحد من البصريين والكوفيين على فعلية نعم وبئس ، وإنما الخلاف فيهما

بعد إسنادهما إلى الفاعل ، وستمضى هذه الدراسة على أنهما فعلاان كما هو مذهب البصريين والنحاة^(١).

لطائف في خلو (نعم وبئس) من الدلالة الزمانية

ويحسن ذكر لطائف هنا أوردتها أهل العلم في خلو أفعال المدح والذم من الزمن قال د/عباس حسن " ومع أن كلا منهما يعرب فعلا ماضيا ، فإنه متجرد من دلالة الزمنية ، ومنسلخ عنها بعد أن تكونت منه ومن فاعله جملة إنشائية غير طلبية يقصد منها إنشاء المدح العام أو الذم العام من غير إرادة زمن ماض ، أو غير ماض ، فكلاهما انتقل إلى نوع خاص من الإنشاء المحض غير الطلبي لا دلالة فيه على زمن مطلقا"^(٢) ، وقد ذكر د/ إبراهيم السامرائي أيضا أن أسلوب المدح والذم من المعاني التي جرت فيها العربية على أن تؤدي بالفعل في حيز الجملة الفعلية ، على أن يكون الفعل حدثا مفرغا من دلالة الزمان ، على نحو ما كان في سائر الأساليب التي أفادت معاني خاصة كالدعاء والرجاء والتمنى "^(٣)

(١) أسرار العربية لابن الأنباري ٩٦ : ١٠٣ بتصرف ت/ د. محمد بحجة البيطار ط الترقى دمشق ١٣٧٧ هـ ، والإنصاف لابن الأنباري ٩٧/ ١ : ١٢٦ ت/ محمد محي الدين عبد الحميد ط بيروت ١٤٠٧ هـ ، أوضح المسالك لابن هشام الأنصاري وعدة السالك بماشه ٣/ ٢٧٠ : ٢٧٣ الأول تحقيق / محمد محي الدين عبد الحميد والثاني تأليفه ط بيروت المكتبة العصرية بدون تاريخ .

(٢) النحو الوافي د/ عباس حسن ٣/ ٣٦٩ ط دار المعارف الرابعة

(٣) من أساليب القرآن د/ إبراهيم السامرائي ط دار الفرقان الأردن ١٩٨٣ م

وقال د/ تمام حسان " إن هذين اللفظين ليس معناهما الفعل الماضى كما زعم القائلون بذلك ، وإنما معناهما الإفصاح عن تأثر وانفعال دعا إلى المدح أو الذم بل إن ابن جنى فى اللمع يقول : — إن معناهما المبالغة فى المدح والذم ، وتعبيره بالمبالغة يتجه اتجاه تعبيرى بالإفصاح ، وفى كلا التعبيرين إشارة إلى ماهو أكثر من مجرد المدح والذم "(١)

أنواع فاعل نعم وبئس

للنحاة فى فاعل نعم وبئس شروط تناسب دلالتهما ، وما سيقتا له فى كلام العرب لذا حصروا فاعلهما فى الأنواع التالية:

- ١ — المعرف بأل الجنسية أو العهدية .
- ٢ — المضاف إلى المعرف بأل .
- ٣ — المضاف إلى المضاف إلى المعرف بأل .
- ٤ — الضمير المستتر وجوبا بشرط أن يكون ملتزما بالإفراد والتذكير ، وعائدا على تمييز بعده ، ولكل من الضمير المستتر والتمييز شروط ذكرها النحاة تعرف فى مظاهرها .
- ٥ — (ما) أو (من) وللنحاة مع (ما) إذا أسندت إلى نعم وبئس شروط وإعرابات مذكورة فى كتب النحو تراجع فى مظاهرها .
- ٦ — الذى .

(١) اللغة العربية معناها ومبناها ١١٥ . ومعنى قوله " تعبيرى بالإفصاح " الإنشاء غير الطلبي فهو المقابل للطلب عنده .

٧ — النكرة المضافة أو غير المضافة .

٨ — المضاف إلى ما فيه أل .

٩ — العلم أو المضاف إلى العلم (١)

المخصوص بالمدح والذم

علامته عند النحاة أن يصلح وقوعه مبتدأ خبره الجملة الفعلية التي قبله مع استقامة المعنى ، ويشترط في هذا المخصوص أن يكون معرفة أو نكرة مختصة بوصف أو إضافة أو غيرهما من وسائل التخصيص ، أو يصلح أن يكون خبرا إذا جعلنا الفاعل مبتدأ موصوفا بكلمة الممدوح أو المذموم على حسب المعنى ، وأن يكون أخص من الفاعل لا مساويا له في المعنى ولا أعم منه ، وأن يكون مطابقا له في المعنى فيكون مثله في مدلوله تذكيرا وتأنيثا وإفرادا وتثنية وجمعا .

كما اشترطوا أن يكون متأخرا عن الفاعل فلا يتوسط بينه وبين فعله ، ويجوز تقدمه على الفعل والفاعل معا ، كما يجب تأخيره عن التمييز إذا كان الفاعل ضميرا مستترا له تمييز ، أما إذا كان الفاعل اسما ظاهرا فيجوز تقدم المخصوص على التمييز

وتأخيره ، وإذا كان المخصوص مؤنثا جاز تذكير الفعل وتأنيثه ، وإن كان الفاعل مذكرا ، هذا ويجوز حذف المخصوص إن تقدم على جملته لفظ يدل عليه بعد حذفه ، ويغنى عن ذكره متأخرا ، ويمنع اللبس والخفاء

(١) شرح الأشموني ٢٨/٣ : ٣٦ بتصرف ط عيسى الخليلي بدون تاريخ .

في المعنى ، ويسمى المشعر بالمخصوص سواء أكان صالحا لأن يكون هو المخصوص أم غير صالح .

إعراب المخصوص

للمخصوص عند النحاة إعرابات عدة: —

- ١ — أن يكون مبتدأ مؤخرًا ، والجملة التي قبله خبر عنه .
- ٢ — أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف وجوبا .
- ٣ — أن يكون مبتدأ وخبره محذوف .
- ٤ — أن يعرب بدلا من الفاعل .

والأوجه الثلاثة الأولى هي المشهورة بخلاف الوجه الرابع ، وقد رجح د/ عباس حسن الوجه الأخير لخلوه من الحذف والتقدير ، والتقديم والتأخير ، ورأى أنه من الواضح السهل الأخذ به (١)

الأفعال الجارية مجرى نعم وبئس

القاعدة عند جمهور النحاة أن كل فعل ثلاثي صالح للتعجب منه ، فإنه يجوز استعماله على فعل (بضم العين) إما بالأصالة كظرف وشرف ، وإما بالتحويل كضرب وفهم ، ثم يجرى حينئذ مجرى نعم وبئس في إفادة المدح والذم وفي حكم الفاعل وحكم المخصوص ، تقول في المدح : فهم الرجل زيد ، وخبث الرجل عمرو (٢)

(١) النحو الوافي د/ عباس حسن ٣ / ٣٧٧ : ٣٧٩ بتصرف .

(٢) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ٣ / ٢٨٠ ، وشرح الأشواق ٣ / ٣٨ ، والنحو الوافي د/ عباس حسن ٣ / ٣٨٤ .. بتصرف

المزايا العامة لأسلوب المدح والذم

لأسلوب المدح والذم خصائص ومزايا عامة كامنّة وراء كل أسلوب ثم يتفرد كل موقع بعد ذلك بإيجاءات ينبه عليها في مواضعها ، ومن الخصائص العامة :

١ — الإيضاح بعد الإبهام بنكاته الثلاث : —

أ — إراءة المعنى في صورتين مختلفتين .

ب — زيادة تمكين الممدوح في القلب ، وذلك مما يزيد في مدحه .

ج — كمال لذة العلم حيث يراد به إمالة السامع لهذا الكلام فتتم محبة الممدوح .

٢ — إبراز الكلام في معرض الاعتدال من جهة أنه ليس من الإيجاز المحض للإطناب بالإيضاح بعد الإبهام ، ولا من الإطناب المحض للإيجاز بحذف جزء الجملة .

٣ — إيهام الجمع بين المتنافيين ، وهما الإيجاز والإطناب ، ولاشك أنه من الأمور المستغربة التي تستلذها النفس .

وهذه النكات يصح اعتبارها في الأسلوب على قول من يجعل المخصوص مبتدأ محذوف الخبر ، أو خبرا محذوف المبتدأ (١)

(١) شروح التلخيص ٣ / ٢١٣ : ٢١٥ بنصرف .

من مواقع أسلوب المدح والذم في البيان النبوى الشريف

أولا : أسلوب المدح

يأتى أسلوب المدح في البيان النبوى الشريف لمقاصد منها : —

أولا : قهدة الروع

عن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : — رأيت على عهد النبى — صلى الله عليه وسلم — كأن يبدى قطعة إستبرق ، فكأنى لأريد مكانا من الجنة إلا طارت إليه ، ورأيت كأن اثنين أتيا أن أرادا أن يذهبا بي إلى النار فتلقاهما ملك فقال : لم ترع خليا عنه ، فقصة حفصة على النبى — صلى الله عليه وسلم — إحدى رؤياى ، فقال النبى — صلى — الله عليه وسلم — نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل ، فكان عبد الله يصلى من الليل ، وكانوا لا يزالون يقصون على النبى — صلى الله عليه وسلم — الرؤيا أنها فى الليلة السابعة من العشر الأواخر ، فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — أرى رؤياكم قد تواترت فى العشر الأواخر فمن كان متحريها فليتحرها من العشر

الأواخر " (١)

قوله : "نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل "

الفاعل هنا الرجل والمخصوص بالمدح عبد الله ، والغرض من مجئ أسلوب المدح هاهنا تهدئة روع سيدنا عبد الله إذ أزعجه ما رآه في المنام من عرضه على النار ، ولقد جاء قوله — صلى الله عليه وسلم (لو كان يصلي من الليل) بيانا لسبب عرضه على النار ، وأنه كان تنبيها له إلى قيام الليل كما ذكر العلماء يقول القرطبي : — رحمه الله تعالى — " وإنما فهم النبي — صلى الله عليه وسلم — من رؤية عبد الله للنار أنه ممدوح ؛ لأنه عرض على النار ثم عوفي منها ، وقيل له : لا روع عليك ، وهذا إنما هو لصلاحه وما عليه من الخير غير أنه لم يكن يقوم — من الليل إذ لو كان ذلك ما عرض على النار ولا رآها ، ثم إنه حصل لعبد الله — رضى الله عنه — من تلك الرؤية يقين مشاهدة النار والاحتراز منها ، والتنبيه على أن قيام الليل مما يتقى به النار ، ولذلك لم يترك قيام الليل بعد ذلك — رضى الله عنه " (٢)

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب التهجد باب (فضل من تعار من الليل فصلى) وباب (فضل قيام الليل) وكتاب المناقب باب (مناقب عبد الله بن عمر — رضى الله عنهما) وكتاب التعبير باب (الأمن وذهاب الروع فى المنام) ، وراه مسلم فى صحيحه كتاب فضائل الصحابة باب (فضائل عبد الله بن عمر — رضى الله عنهما) .

(٢) المفهم للقرطبي ٦ / ٤٠٩ ، ٤١٠ .

ويقول الكرماني أيضا : " قال المهلب : إنما فسر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — هذه الرؤيا في قيام الليل من أجل قول الملك : لم ترع أى لم تعرض عليك النار لأنك مستحقها ، وإنما ذكرت بها ، ثم نظر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في أحواله فلم ير شيئا يغفل عنه من الفرائض فيذكر بالنار ، وعلم مبيته في المسجد فعبر ذلك بأنه منه على قيام الليل فيه " (١)

وللجملة (لو كان يصلى من الليل) موقع لطيف فهي تزيد من تهدئة روع سيدنا عبد الله ، فمعرفة سبب الإيذاء تشفى النفس ، ومما يساعد على ذلك مجيؤها بأسلوب التمنى إطماعا له في استحقاق تمام المدح حيث أبرز المنبه عليه وهو قيام الليل ، في صورة التمنى المحبب إلى النفس

ثانيا : الترغيب في الاقتداء

عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : — كن أزواج النبی — صلى الله عليه وسلم — عنده لم يغادر منهن واحدة ، فأقبلت فاطمة تمشي ما تخطى مشيتها من مشية رسول الله — صلى الله عليه وسلم — شيئا فلما رآها رحب بها فقال : — مرحبا بابنتي ، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله ، ثم سارها فبكت بكاء شديدا ، فلما رأى جزعها سارها

(١) صحيح البخارى بشرح الكرماني ١٨٥/٦ .

الثانية فضحكت ، فقلت لها خصك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من بين نسائه بالسرار ، ثم أنت تبكين ؟ فلما قام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سألتها ما قال لك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ؟ قالت : ما كنت أفشى على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سره قال : فلما توفي رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قلت : عزمت عليك بما لى عليك من الحق لما حدثتني ما قال لك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ؟ فقالت أما الآن فنعم ، أما حين سارني في المرة الأولى ، فأخبرني أن جبريل كان يعارضه بالقرآن في كل سنة مرة أو مرتين ، وإنه عارضه الآن مرتين ، وإني لأرى الأجل إلا قد اقترب ، فاتقى الله واصبري ، فإنه نعم السلف أنا لك ، قالت فبكيت بكائي الذي رأيت ، فلما رأى جزعي سارني الثانية فقال : يا فاطمة أما ترضى أن تكوني سيدة نساء المؤمنين ، أو سيدة نساء هذه الأمة ؟ قالت : فضحكت الذي رأيت " (١)

قوله " نعم السلف أنا لك " الفاعل هنا السلف ، والمخصوص بالمدح قوله : (أنا) ، والمقصد من سوق أسلوب المدح هنا هو ترغيب فاطمة — رضى الله عنها — في الاقتداء بالنبي — صلى الله عليه وسلم — والسير على النهج ، وقد أرشد السياق لهذا حيث قال : — صلى الله عليه وسلم — (وإني لأرى الأجل إلا قد اقترب) وهذا يستوجب إيضاء الذرية

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل فاطمة — رضى الله عنها

ونصحها ، ومما يؤيد أن المقصد من سوق أسلوب المدح هو السير على النهج هو مجئ فاعل نعم بهذا اللفظ (السلف) فلم يقل نعم الرسول أو نعم الوالد ، وإنما جاء باللفظ المختص باتباع السيرة الحسنة ، لذا جاء في الدعاء : اللهم اجعلني خير خلف لخير سلف ، وفي مجئ المخصوص بالمدح ضمير تكلم تأكيد على اتباع نهجه — صلى الله عليه وسلم — لما فيه من التعيين والتحديد

ثالثا : الحث على معرفة حق الله في المال

عن أبي سعيد الخدري — رضى الله عنه — أن النبي — صلى الله عليه وسلم — جلس ذات يوم على المنبر ، وجلسنا حوله فقال : إني مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها ، فقال رجل يا رسول الله : أو يأتي الخير بالشر فسكت النبي — صلى الله عليه وسلم — فقليل له ما شأنك تكلم النبي — صلى الله عليه وسلم — ولا يكلمك فرأينا أنه يتزل عليه فمسح عنه الرُخَصاء ، فقال : أين السائل ؟ وكأنه حمده فقال : إنه لا يأتي الخير بالشر ، وإن مما يبيت الربيع يقتل حبطا أو يلم إلا آكلة الخضراء أكلت حتى إذا امتدت خاصرتها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ورتعت ، وإن هذا المال خضرة حلوة ، فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل ، أو كما قال النبي — صلى الله عليه وسلم — وإنه من

يأخذه بغير حقه كالذى يأكل ولا يشبع ، ويكون شهيدا عليه يوم
القيامة " (١)

الغرض العام من سوق هذا الحديث هو التحذير من الاغترار
بالدنيا وزينتها ، ولما كان المال هو أعظم زينة الحياة الدنيا جاء مقدما في
قوله تعالى " المال والبنون زينة الحياة الدنيا " (الكهف / ٤٦) ومن ثم
كان التحذير منه أشد ، يقول — صلى الله عليه وسلم " وإن هذا المال
خضرة حلوة " فمنظره يجذب إليه من يراه كما أن طعمه يغرى على
جمعه وتحصيله ، ثم حث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أصحابه
على أداء حق الله فيه قائلا " فنعلم صاحب المال المسلم ما أعطى منه
المسكين واليتيم وابن السبيل " فالرسول — صلى الله عليه وسلم — يمدح
صاحب المال الذى يهلكه فى الحق فيعطى من فضله المسكين وغيره .
وفاعل نعم هنا هو " صاحب المسلم " وفيه إنباء بما فيه الخير ،
لما فى كلمة صاحب من إرادة الخير للمصاحب ، والمخصوص بالمدح
مخدوف ، وهو المال لدلالة السياق عليه ، وقوله " ما أعطى منه المسكين
واليتيم وابن السبيل " قيد للمال يبين أن الإعطاء من المال لذوى الحق
يكسبه كل المادح ، فيخرجه من دائرة المحذر منه إلى دائرة المرغب فيه ،

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الزكاة باب الصدقة على اليتامى وراه مسلم فى صحيحه كتاب
الزكاة باب التحذير من الاغترار بزينة الدنيا

ويرشدنا أيضا إلى المقصد من أسلوب المدح ، والواضح أن المقصد هنا الحث على معرفة حق الله في المال .

رابعا : التأدب في الشكوى

عن عبد الله بن عمرو — رضى الله عنهما — قال : " أنكحني أبي امرأة ذات حسب ، فكان يتعاهد كنته يسألها عن بعْلِها ، فتقول : نعم الرجل من رجل لم يَطأ لنا فراشا ، ولم يفتش لنا كنفا مذ أتيناها فلما طال ذلك عليه ذكر للنبي — صلى الله عليه وسلم — ، فقال ألقني به فلقيته بعد ، فقال : كيف تصوم ؟ قال : كل يوم ، قال : وكيف تحتم ؟ قال : كل ليلة ، قال : صم في كل شهر ثلاثة ، واقرأ القرآن في كل شهر ، قال : قلت : أطيق أكثر من ذلك ، قال : صم ثلاثة أيام في الجمعة ، قال : قلت أطيق أكثر من ذلك ، قال : أفطر يومين وصم يوما ، قال : قلت أطيق أكثر من ذلك ، قال : صم أفضل الصوم صوم داود صيام يوم وإفطار يوم ، واقرأ في كل سبع ليال مرة ، فليتني قبلت رخصة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وذاك أني كبرت وضعفت ، فكان يقرأ عليه بعض أهله السبع من القرآن بالنهار والذي يقرؤه يعرضه من النهار ليكون أخف عليه بالليل ، وإذا أراد أن يتقوى أفطر أياما وأحصى وصام مثلهن كراهية أن يترك شيئا فارق النبي — صلى الله عليه وسلم — عليه " (١)

(١) رواه البخارى في صحيحه كتاب فضائل القرآن باب في كم يقرأ القرآن .

يتضح المقصود من أسلوب المدح " نعم الرجل من رجل " بالنظر إلى الجملة التي بعده : " لم يظاً لنا فراشا ولم يفتش لنا كنفا مذ أتيناها " فإن كانت واقعة مـوقع

التعليل للمدح كان أسلوب المدح بمثابة الاستعارة العنادية ، ولعل هذا هو المناسب لحال المرأة ، لأنه لا يعقل أن تمدح المرأة زوجها بهجره ، ومعلوم أن النساء يمتنعن الحياء من ذكر مثل هذا ، فذكرها مثل هذا لوالد زوجها يدل على أن الحال معها قد تأزم لاسيما أنها كررت ذلك كما يدل الحديث أرايت إلى قوله " فلما طال ذلك عليه " الذي وقع عقب الأسلوب تأمل قول الكرماني في قوله : صلى الله عليه وسلم " نعم الرجل من رجل " المخصوص بالمدح مخدوف ، ثم قال : يحتمل أن يكون معناه : نعم الرجل من بين الرجال ، والنكرة في الإثبات قد تفيد التعميم ، كما قال الزمخشري في قوله تعالى (علمت نفس ما أحضرت) أو أن يكون من باب التجريد كأنها جردت من رجل موصوف بكذا وكذا رجلا فقالت : نعم الرجل المجرد من كذا فلان " (١)

وهذا الكلام ليس فيه مطعن على الصحابي الجليل ، فقد كان سلوكه هذا اجتهاد منه في طاعة ربه ، وأسلوب المدح يكشف عن علو أدب هذه المرأة (٢) وحسن دينها حيث شكت زوجها بأسلوب مهذب

(١) عمدة القارى ٢٠ / ٥٨

(٢) هي أم محمد بنت محمية بن جزء الزبيدي حليف قريش (عمدة القارى ٢٠ / ٥٨)

لطيف ، والتجريد يفيد أنه قد بلغ الكمال في هذه الصفة لدرجة جعلتها تجرد من الصحابي نفسها لها هذه الصفة .

هذا ما أراه في الأسلوب — والله أعلم — وإن كان الإمام العيني يقول : — " حاصل الكلام هنا أن هذه المرأة شكرت عبد الله أولاً بأنه قوام بالليل ، صوام بالنهار ، ثم شكت من حيث أنه لم يضاجعها ، ولم يطعم شيئاً عندها فحط عليه أبوه عمرو ، ويؤيد ذلك ما جاء في رواية هشيم " فأقبل على يلومني ، فقال : أنكحتك امرأة من قريش ذات حسب فعضلتها وفعلت ، ثم انطلق إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — فشكاى " (١)

والفاعل هنا هو قولها الرجل ، والمخصوص بالمدح محذوف لدلالة السياق عليه ، وقد تضمن الحديث الجمع بين التمييز وفاعل نعم الظاهر ، وقد اختلف النحاة في هذا الجمع ، فأجازوه المبرد وابن السراج والفارسي ، ومنعه سيبويه والسيرافي مطلقاً ، وقيل إن أفاد معنى زائداً جاز وإلا فلا " (٢) وقد أفاد التمييز هنا معنى لم يفده الفاعل بواسطة نعتة بقولها : — لم يظاً لنا فراشا ، ولم يفتش لنا كنفاً ، حيث كشف عن سبب شكواها تلك المتكررة ، كما سبق بيانه .

(١) عمدة القارى ٢٠ / ٥٨ .

(٢) أوضح المسالك لابن هشام ٢٧٧/٣ ، ٢٨٧ ، وشرح الأشموني ٣/ ٣٤ ، ٣٥ .

ثانيا : أسلوب الذم

يأتى أسلوب الذم لمقاصد منها : —

أولا : إظهار الكراهة

عن عائشة — رضى الله عنها — " أن رجلا استأذن على النبي — صلى الله عليه وسلم — فقال : ائذنوا له فلبئس ابن العشيرة ، أو بئس رجل العشيرة فلما دخل عليه ألان له القول ، قالت عائشة : فقلت : يا رسول الله قلت له الذى قلت ثم أنت له القول ؟ قال : يا عائشة إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من ودعه أو تركه الناس اتقاء فحشه " (١)

تأول العلماء غيبة الرسول — صلى الله عليه وسلم — بقوله : بئس أخو العشيرة وبينوا ما يمكن أن يظهر لغير ذوى البصيرة من التناقض بين فعله وقوله بكلام بحمله : أن قوله هذا إخبار بحق بل هو علم من أعلام النبوة ، فقد كان من الرجل فى حياة النبي — صلى الله عليه وسلم — وبعد موته ما يدل على ضعف إيمانه ، وقد ارتد مع المرتدين ، وجئ به أسيرا إلى أبى بكر — رضى الله عنه .

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الأدب باب لم يكن النبي فاحشا ولا متفحشا ، وباب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب ، وباب المداراة مع الناس ورواه مسلم فى صحيحه كتاب البر والصلة والآداب باب مداراة من يتقى فحشه

أما أفعاله معه — صلى الله عليه وسلم — وإلانة القول له ، فهو من المداراة ، وهى مباحة ، وتستحب فى بعض الأحوال ، بخلاف المداينة المحرمة ، والفرق بينهما : أن المداراة بذل الدنيا لصالح الدين أو الدنيا ، والمداينة بذل الدين لصالح الدنيا ، والنبي — صلى الله عليه وسلم — بذل من دنياه حسن العشرة وطلاقة الوجه ، ولم يرو أنه مدحه حتى يكون ذلك خلاف قوله لعائشة — رضى الله عنها " (١)

وقد قصد الرسول — صلى الله عليه وسلم — من أسلوب الذم هنا أن يبين حال هذا الرجل ، ليعرفه الناس ولا يغتر به من لم يعرف حاله ، وقد جاء حديثه — صلى الله عليه وسلم — مع عائشة — رضى الله عنها — بعد ذلك مبينا سوء مآل هذا الرجل " إن شر الناس مترلة عند الله يوم القيامة من ودعه الناس اتقاء فحشه " فقد جمع الرجل بين الشرين سوء الحال ، وسوء المآل ، والفاعل هنا ابن العشيرة ، والمخصوص محذوف لدلالة السياق عليه .

ثانيا : التهيب من مقابلة الإحسان بالإساءة

عن عمران بن حصين — رضى الله عنهما — قال : أسرت امرأة من الأنصار وأصيبت العضباء ، فكانت المرأة فى الوثاق ، وكان القوم يرمحون نعمهم بين يدي بيوتهم ، فانفلتت ذات ليلة من الوثاق فأتت

(١) المفهم ٥٧٢/٦ ، وشرح النووى ٣٨٩/٨ ، وشرح الأبي ٣٨/٧ ، وعمدة القارى ١٧١/٢٢ بتصرف

الإبل ، فجعلت إذا دنت من البعير رغا فتركه ، حتى تنتهي إلى العضباء فلم ترُع ، قال : وناقة منوقة فقعدت في عجزها ثم زجرها فانطلقت ونذروا بها فطلبوها فأعجزهم ، قال : ونذرت لله إن نجاهها الله عليها لتحرّنها ، فلما قدمت المدينة رآها الناس فقالوا: العضباء ناقة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقالت : إنما نذرت لله إن نجاهها الله عليها لتحرّنها ، فأتوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فذكروا ذلك له ، فقال : سبحان الله ! بئسما جزئها نذرت لله إن نجاهها الله عليها لتحرّنها ، لاوفاء لنذر في معصية ، ولافيما لايملك العبد "^(١)

قوله : " بئسما جزئها ، نذرت لله إن نجاهها الله عليها لتحرّنها " الفاعل هنا ما ، وهي مصدرية (٢) والتقدير : بئس الجزاء ، والمخصوص بالذم قوله : نذرت لله إن نجاهها الله عليها لتحرّنها ، والتقدير : بئس الجزاء نذرنا نحر الناقة التي نُحْتها .

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب النذر باب لاوفاء لنذر في معصية الله .

(٢) للنحاة في ما إذا وقعت بعد نعم أو بنس ووليها جملة فعلية أربعة أوجه: —

أ — أن تعرب تمييزاً ، واختلفوا في هذا الوجه على ثلاثة أقوال تراجع في مظانها .

ب — أن تعرب فاعلاً ، واختلفوا في هذا الوجه على خمسة أقوال تراجع في مظانها .

ج — أن تعرب مخصصاً .

د — أن تكون كافة ، كفت نعم وبنس كما كفت قل ، وطال ، فتكون داخلية على الجملة الفعلية ينظر في هذا الموضع شرح الأشتوني ٣/ ٣٥ ، ٣٦ بتصرف .

والمقصود من سوق أسلوب الذم هنا الترهيب من مقابلة الإحسان بالإساءة ، ويؤيد ذلك وقوعها بعد أسلوب التعجب ؛ لذلك علل القرطبي مجئ أسلوب الذم بقوله " إنما صدر هذا الذم منه ، لأن ذلك النذر مستقبح عادة لأنه مقابلة الإحسان بالإساءة ، وذلك أن الناقة بُجّتها من الهلكة ، فقابلتها على ذلك بأن تهلكها ، وهذا هو الظاهر من قوله — صلى الله عليه وسلم — سبحان الله ! بئس ماجزتها ! نذرت لله إن نجّها الله عليها لتنجّرها " (١)

ثالثا : الترهيب من ترك دعوة الفقراء عند الولائم

عن أبي هريرة — رضى الله عنه — أنه كان يقول : " بئس الطعام طعام الوليمة يدعى إليه الأغنياء ، ويترك المساكين ، فمن لم يأت الدعوة فقد عصى الله ورسوله " (٢)

المقصود من أسلوب الذم هنا : الترهيب من ترك دعوة الفقراء عند الولائم ، وقصر الدعوة إليها على الأغنياء وغير ذلك مما هو الغالب في الولائم ، ويقوى من هذا المقصد تركيب الأسلوب نفسه ، فقد أسند بئس إلى الطعام على سبيل المجاز العقلى ، ومعلوم أن المقصود بالذم هو المولم لا الوليمة نفسها ، وفي هذا الإسناد مبالغة في الذم ، وكأن الذم تعدى صاحب الطعام إلى الطعام نفسه .

(١) المفهم ٦١٣/٤

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب النكاح باب الأمر بإجابة الداعي إلى دعوة .

والفاعل هنا هو الطعام ، والمخصوص بالذم (طعام الوليمة) وفي ذكره زيادة تقبيح له ، ويقوى من هذا ذكر المخصوص (طعام الوليمة) بلفظ الفاعل (الطعام) فكأنه قصد بالذم مرتين لفظاً ومعنى ، فأسند الفعل إليه مرة ، وأسند إليه الخبر مرة على إعراب المخصوص مبتدأ مؤخرًا

رابعاً : ذم الحرص على الإمارة وطلبها

عن أبي هريرة — رضى الله عن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : إنكم ستحرصون على الإمارة ، وستكون ندامة يوم القيامة ، فنعم المرضعة وبئست الفاطمة ^(١)

يتحدث الرسول — صلى الله عليه وسلم — عن الإمارة وكيف يكون الحرص عليها ، ثم كيف يكون الندم عليها يوم لا ينفع مال ولا بنون ، ولقد استخدم الرسول — صلى الله عليه وسلم — لإخراج هذا المعنى عدة أساليب :

- ١— أسلوب المدح والذم (نعم وبئس) .
- ٢— أسلوب الاستعارة (المرضعة والفاطمة) حيث شبه — صلى الله عليه وسلم — الإمارة وما معها من مال وجاه ولذات بالمرضعة ، ثم شبه ما يترتب عليها من قتل وعزل ومطالبة تبعات في الآخرة بالفاطمة .

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الأحكام، باب : ما يكره من الحرص على الإمارة

٣— أسلوب المقابلة بين نعم المرضعة وبئست الفاطمة ، وقد تضافرت هذه الأساليب مجتمعة في إبراز ذم الحرص على الإمارة وطلبها .

ولقد جاء فاعل نعم وبئس معرفا بلام الجنس ، فإن أفعال المدح والذم موضوعة للمدح العام والذم العام ، أى المدح المخصوص وذمه بجميع محاسن جنس الفاعل وقبائحه ، أى إذا أردت مرضعا أجمع للممدوح كلها فهي الإمارة ، وإذا أردت فاطمة أجمع للمذام كلها فهي الإمارة أيضا .

والمخصوص بالمدح والذم هنا هو الإمارة ، وقد حذف لدلالة السياق عليه ، وألحظ في قوله — صلى الله عليه وسلم — (نعم المرضعة وبئست الفاطمة) إلحاق التاء ببئس ، وعدم إلحاقها بنعم ، وقد ذكر الطيبي — رحمه الله تعالى — نكتة لهذا الاختلاف فقال : " إنما لم تلحق التاء بنعم لأن المرضعة مستعارة للإمارة ، وتأنيثها غير حقيقى ، فترك إلحاق التاء بها ، وألحقت ببئس نظرا إلى كون الإمارة حينئذ داهية دهياء ، قال : وإنما أتى بالتاء فى الفاطمة والمرضعة ؛ إشارة إلى تصوير تيّسك الحاليتين المتجددتين فى الإرضاع والفظام : " (١)

خامسا : تطمين المؤمنين بنصر الله

عن أنس بن مالك — رضى الله عنهما — أن النبى — صلى الله عليه وسلم — كان إذا غزا بنا قوما لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر

(١) عمدة القارى ٢٤ / ٢٢٧ .

، فإن سمع آذاناً كف عنهم ، وإن لم يسمع آذاناً أغار عليهم ، قال :
فخرجنا إلى خير فأنتهينا إليهم ليلاً ، فلما أصبح ولم يسمع آذاناً ركب
، وركبت خلف أبي طلحة ، وإن قدمي لتمس قدم النبي — صلى الله
عليه وسلم — قال : فخرجوا إلينا بمكاتلهم ومساحيهم ، فلما رأوا
النبي — صلى الله عليه وسلم — قالوا : محمد والله والخميس ، قال :
فلما رأهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : الله أكبر ، الله
أكبر خربت خير ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين
" (١)

قوله : " إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين " ، القاعدة
عند جمهور النحاة أن كل فعل ثلاثي صالح للتعجب منه ، فإنه يجوز
استعماله على فعل بفتح الفاء ، وضم العين ، ثم يجرى مجرى نعم وبئس
في إفادة المدح والذم ، وفي حكم الفاعل وحكم المخصوص ، ومن أمثله
ساء ، فإنه في الأصل سوأ بالفتح ، وحول إلى فعل بضم العين فصار

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الآذان باب ما يحقن بالآذان من الدماء ، وكتاب الصلاة باب ما
يذكر في الفخذ وكتاب الجمعة باب التكبير والغسل بالصبح والصلاة عند الإغارة والحرب وكتاب الجهاد
والسير باب دعاء النبي إلى الإسلام والنبوة وباب التكبير عند الحرب وكتاب المناقب باب سؤال المشركين
أن يريهم النبي آية وكتاب المغازي باب غزوة خيبر ورواه مسلم في صحيحه كتاب النكاح باب فضيلة
إعتاقه أمته ثم يتزوجها وكتاب الجهاد والسير باب غزوة خيبر

قاصرا ، ثم ضمن معنى بئس فصار جامدا قاصرا محكما له ولفاعله بما لبئس " (١)

وقد وقع أسلوب الذم هنا جوابا للشرط (إذا نزلنا بساحة قوم . .) والفاعل هنا هو صباح ، وهو مضاف إلى ما عرف بأل (المنذرين) وفي إضافة فاعل ساء إلى المنذرين تسجيل على اليهود ونفى للعدر ، وفي إسناد صباح إلى المنذرين مجاز عقلي علاقته الزمانية مبالغة فيما سيحل بهم ، وكأن ما سائرل بهم يسوء من يعقل ومن لا يعقل .

والمخصوص بالذم محذوف والتقدير : فساء صباح المنذرين صباحهم ، ، وفي تقديم المسند — وذلك على إعراب المخصوص مبتدأ مؤخرا — تعجيل بالمساءة ، وفي تأخير المسند إليه وحذفه تهويل له ، وكأن الرسول — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه لما نزلوا باليهود انتفى صباحهم أصلا ، والمقصد من أسلوب الذم هنا هو تطمين المؤمنين بنصر الله وغلبتهم أعداءهم وزيادة تهديد اليهود .

(١) أوضح المسالك ٢٨٠/٣ ، ٢٨١ ، وشرح الأشواق ٣/ ٣٩ .

أسلوب التعجب

سبق الحديث عن اختلاف العلماء في أسلوب التعجب ، هل هو أسلوب خبرى أم إنشائي؟ وقد اختارت هذه الدراسة مذهب الجمهور من القول بأنه إنشاء غير طلبى ^(١)

والتعجب لغة : انفعال يحدث في النفس عند الشعور بأمر خفى سببه ، واصطلاحاً : استعظام زيادة في وصف الفاعل خفى سببها ، وخرج بها المتعجب منه عن أمثاله أو قل نظيره فيها " ^(٢)

وليس من هم هذا البحث الغوص في الخلافات الإعرابية الواردة في أسلوب التعجب، فذلك معروف مشهور في كتب النحو تراجع في مظانها ، وإنما حسبنا هنا الوقوف على دلالات هذا الأسلوب وإيجاءاته ، وسأتناول بعون الله — تعالى — ماورد من هذا الأسلوب في صحيح البخارى ومسلم ، ومعلوم أن التعجب له صيغ قياسية وأخرى سماعية ، وسأبدأ بالقياسية منها لكثرة إيجاءاتها في البيان النبوى الشريف .

(١) ينظر التمهيد أنواع الإنشاء غير الطلبى .

(٢) ينظر عدة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك للشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ٢٥٠/٣ .

من مواقع أسلوب التعجب في البيان النبوي

أولا : الصيغ القياسية

يأتى التعجب في الحديث الشريف لأغراض منها : —

أولا : الإنكار والدهش

عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : — جاءت امرأة إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — تعرض عليه نفسها قالت : يارسول الله ألك بي حاجة ؟ فقالت بنت أنس : ما أقل حياءها ، واسوأأناه واسوأأناه ! قال : هي خير منك ، رغبت في النبي — صلى الله عليه وسلم — فعرضت عليه نفسها " (١)

قولها : " ما أقل حياءها " ، جاء بأسلوب التعجب كاشفا عن دهش بنت أنس لما رأت من مخالفة ماهو شائع ، بل مخالفة ماهو ثابت من أن المرأة هي المطلوبة دائما لا الطالبة ، ومما ضاعف من تعجبها إتباعها أسلوب التعجب بأسلوب استغاثة مكررا كاشفا عن عظم ماوقع من هذه المرأة في نظرها .

" فقد نظرت — رضى الله عنها — إلى ظاهر الصورة ، ولم تدرك أنه يجوز للمرأة أن تعرض نفسها على الرجل الصالح وأن تعرفه رغبتها فيه لصلاحه وفضله ، أو لعلمه وشرفه أو لخصلة من خصال الدين ، وأنه

(١) رواه البخارى في صحيحه كتاب الأدب باب: عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح .

لأعار عليها في ذلك ، بل ذلك يدل على فضلها ، ولذلك قال أنس لابنته :
 هي خير منك " (١)

وأسلوب التعجب هنا هو أنسب الأساليب للتعبير عن حالة دهشها ، ولا يخفى أن صيغة التعجب هنا فيها رائحة الإنكار بادية ظاهرة ، ولو ورد أسلوب آخر لما وفى بحق المقام ، وذلك لما تفيدته هذه الصيغة من الإنكار لظهور فعل مثير للدهش.

(١) عمدة القارى ٢٠ / ١١٣ .

ثانيا : الحث على تنفيذ المطلوب

عن سهل بن سعد — رضى الله عنه — قال : جاءت امرأة إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — ببرد فقل سهل للقوم : أتدرون ما البردة ؟ فقال القوم : هي شملة ، فقال سهل : هي شملة منسوجة فيها حاشيتها ، فقالت يارسول الله أكسوك هذه فأخذها النبي — صلى الله عليه وسلم — محتاجا إليها فلبسها ، فرآها عليه رجل من الصحابة فقال : يارسول الله ما أحسن هذه فاكسنيها ، فقال : نعم ، فلما قام النبي — صلى الله عليه وسلم — لآمه أصحابه ، قالوا : ما أحسنت حين رأيت النبي — صلى الله عليه وسلم — أخذها محتاجا إليها ، ثم سألتها إياها وقد عرفت أنه لا يسأل شيئا فيمنعه ، فقال : رجوت بركتها حين لبسها النبي — صلى الله عليه وسلم — لعلى أكفن فيها" (١)

قول الصحابي : " ما أحسن هذه فاكسنيها " يفيد أسلوب التعجب هنا : الحث على تنفيذ المطلوب ، ولقد جاء الأسلوب كاشفا عن شدة رغبة الصحابي الجليل في اكتساء الشملة المهداة للرسول — صلى الله عليه وسلم — فاصطفى أسلوب التعجب طريقا للتعبير عن عظم رغبته فيها ، إذ دل أسلوب التعجب ظاهرا على أن حسننها قد جاوز الحد وأدهش العقل ، ودل باطنا على أن له فيها مطمعا وعظم رغبة ، وما أفاده

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الأدب باب : حسن الخلق والسخاء ، وما يكره من البخل .

أسلوب التعجب ضمنا أفادته الجملة الواقعة بعده صراحة (فاكسنيها) ،
ولبصره — صلى الله عليه وسلم — بدخائل النفوس ، وفقه ما وراء
الأسلوب جاء جوابه سريعا ، كما دلت الرواية التي وردت بقاء التعقيب
(فقال : نعم) فأسلوب التعجب هنا هو أنسب الأساليب لهذا المقام .

ثالثا : إظهار الفرح بالبشارة

عن عقبة بن عامر — رضى الله عنه — قال : كانت علينا رعاية
الإبل ، فجاءت نوبتي فروحتها بعشى — فأدركت رسول الله — صلى
الله عليه وسلم — قائما يحدث الناس ، فأدركت من قوله ما من مسلم
يتوضأ فيحسن وضوءه ، ثم يقوم فيصلى ركعتين مقبل عليها بقلبه
ووجهه إلا وجبت له الجنة ، قال : فقلت : ما أجود هذه فإذا قائل
بين يدي يقول : التي قبلها أجود ، فنظرت فإذا عمر ، قال : إني قد
رأيتك جئت آنفا ، قال : ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ ، أو فيسبغ
الوضوء ، ثم يقول أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبد الله ورسوله
إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء " (١)

قوله : " ما أجود هذه " جاء أسلوب التعجب هنا كاشفا عن دهشة
عقبة بن عامر — رضى الله عنه — مما يجزى به المصلى هاتين الركعتين ،
ومما زاد من عجبه سهولة القيام بهما ، وإذا ما كانت الوسيلة سهلة ،
والعاقبة وافرة العطاء كان ذلك أعجب للنفس وأطرب لها ،

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الطهارة باب الذكر المستحب عقب الوضوء .

يقول النووي: — رحمه الله — قوله ما أجود هذه ، يعنى هذه الكلمة أو الفائدة أو البشارة أو العبادة ، وجودتها من جهات منها أنها سهلة متيسرة يقدر عليها كل أحد بلا مشقة ، ومنها أن أجرها عظيم " (١)

ومعلوم أن صعوبة الوسيلة تقتضى وفرة الجزاء وكثرته ، وقد جاءت بشارة الرسول — صلى الله عليه وسلم — على غير المعتاد ، فكان الأنسب لتعبير الصحابي عن الفرح بهذه البشارة هو أسلوب التعجب الموافق لمحى الشئ على غير المتوقع .

رابعاً : التعبير عن كثرة الاستعاذة

عن عائشة — رضى الله عنها — أن النبي — صلى الله عليه وسلم — كان يدعو في الصلاة : اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة الدجال ، وأعوذ بك من فتنة الحيا والممات ، اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم ، قالت : فقال له قائل : ما أكثر ما تستعيز من المغرم يارسول الله ! قال : إن الرجل إذا غرم حدث فكذب ووعد فأخلف " (٢)

(١) النووي على صحيح مسلم ١٢٢/٢ .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الأذان باب الدعاء قبل السلام ، وكتاب الاستقراض وأداء الديون ، باب : من استعاذ من الدين ، وراه مسلم فى صحيحه فى كتاب الصلاة باب الاستعاذة فى الصلاة من عذاب القبر

قوله : " ما أكثر ما تستعيز من المغرم يارسول الله " كشف أسلوب التعجب عن المقام الذى ورد فيه هذا الأسلوب ، وهو كثرة استعاذة الرسول — صلى الله عليه وسلم — من المغرم كثرة ملفقة للنظر ، داعية إلى العجب ، وبدهى أن كثرة الاستعاذة من الشئ تكشف عن شدة سطوته ، وغلبة قهره ، وآية ذلك ما كشف به الرسول — صلى الله عليه وسلم — عن وجه الحكمة من كثرة الاستعاذة بقوله : " إن الرجل إذا غرم حدث فكذب ووعد فأخلف " ولا أخوف من شئ يخرج من حد الإيمان إلى حد النفاق ، حيث إن الكذب وخلف الوعد آيتان من آيات النفاق ، ومما يدل على قهر الدين وغلبته ما روى فى موضع آخر من أنه — صلى الله عليه وسلم — قال : " إن الدين راية الله فى الأرض ، فإذا أراد الله أن يذل عبدا وضعه فى عنقه " (١)

ترى أيليق بدين هذا خطره ألا تكثر الاستعاذة منه كثرة تدعو للعجب ؟ لذا كان إيراد الصحابى الجليل التعبير عن كثرة الاستعاذة من المغرم بأسلوب التعجب أفضل وسيلة تعبيرية للكشف عن حال الصحابى الجليل الداهشة من كثرة استعاذة الرسول — صلى الله عليه وسلم — فقد لاءم أسلوب التعجب الحال والمقام ، وكشف كذلك عن شدة خطر الدين ولو جاء أسلوب آخر مكانه ما لاءم المقام ، ولا عبر عن الحال .

خامسا : التعبير عن كثرة ملابسة المعصية

(١) رواه الحاكم فى المستدرک وقال : صحيح على شرط مسلم ، ينظر العمدة ١١٨/٦ .

عن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — أن رجلا كان على عهد النبي — صلى الله عليه وسلم — كان اسمه عبد الله وكان يلقب حمارا ، وكان يضحك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكان النبي — صلى الله عليه وسلم — قد جلده في الشراب ، فأتى به يوما فجلد ، فقال رجل من القوم : اللهم العنه ، ما أكثر ما يؤتى به فقال النبي : — صلى الله عليه وسلم — لا تلعنوه ، فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله " (١)

قول الرجل : — اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به " وقعت جملة التعجب هنا كالتعليل للدعاء عليه باللعن والطرده ، وفي مجئ جملة التعليل بأسلوب التعجب قطع للعدر في لعنه والدعاء عليه إذ أن أسلوب التعجب يدل على كثرة الإتيان به لإقامة الحد عليه في شرب الخمر ، وعدم ارتداعه فكان ذلك مناسبا للمقام الذى دعى عليه فيه .

ويناسب أسلوب التعجب ما بعده من نهي الرسول — صلى الله عليه وسلم — عن لعنه بقوله : " لا تلعنوه " والتعليل لهذا النهي أيضا " فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله " فلو لم يكن فعل الرجل الذى أقيم عليه الحد في الشراب مجاوزا الحد لما نهي الرسول — صلى الله عليه وسلم — عن الدعاء عليه بهذا الأسلوب ولأتى نهي بأسلوب

(١) رواه البخارى في صحيحه كتاب الحدود، باب: ما يكره من لعن شارب الخمر ، وأنه ليس بخارج من

أشد زجرا كأن يقول مثلا : مه فإن اللعنة راجعة إليك ، أو بل أنت الملعون ، فمجيئ أسلوب النهي عن اللعن بهذا البناء اللغوي ، المصحوب بالتعليل ، يدل على أن حال من جئ به لإقامة الحد عليه حال داعية للعن ، ومعلوم أن ارتكاب فعل كهذا في موقف غير هذا الموقف لا يحتاج تعليلا ، وإنما يكون بأسلوب زجر يناسب المرتكب ، وكل هذه قرائن مقالية ترشح لمجيئ أسلوب التعجب الكاشف عن كثرة ارتكاب الصحابي المقام عليه الحد شرب الخمر كثرة مدهشة ، إذ تطوى هذه القرائن في طياتها عذرا للصحابي الآخر الذي لعنه ، فكان أسلوب التعجب أنسب الأساليب للتعبير عن هذا الموقف .

سادسا : نفى الإنكار

عن عباد بن عبد الله بن الزبير أن عائشة — رضى الله عنها — أمرت أن يمر بجنازة سعد بن أبي وقاص في المسجد فتصلي عليه ، فأنكر الناس ذلك عليها ، فقالت : ما أسرع ما نسى الناس ما صلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على سهيل بن البيضاء إلا في المسجد ^(١)

قول عائشة — رضى الله عنها — " ما أسرع ما نسى الناس " جاء أسلوب التعجب هنا موافقا للمقام ، وهو إنكار الناس على أم المؤمنين

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الجنائز ، باب : الصلاة على الجنازة في المسجد

عائشة — رضى الله عنها — ما أمرت به من أن يمر بجزارة سعد بن أبي وقاص في المسجد لتصلى عليه ، وأسلوب التعجب هنا أنسب الأساليب لنفى إنكارهم بقصد إنكار الإنكار ، وقد أسعفها أسلوب التعجب في دفع إنكار الناس عليها طلبها هذا ، وقد أيد أسلوب التعجب ما جاء بعده من سوق حجة على إنكارها إنكارهم حيث قالت : " ما صلى رسول الله على سهيل بن البيضاء إلا في المسجد " فقد جاء الأسلوب معبرا عن الحال وملائما للمقام .

سابعا : التعجب من فعل ابن آدم وأطماعه

عن سعيد بن المسيب عن عطاء بن يزيد الليثي أن أبا هريرة أخبرهما أن الناس قالوا: يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ قالوا : لا يارسول الله ، قال : فهل تمارون في الشمس ليس دونهما سحاب قالوا : لا ، قال : فإنكم ترونه كذلك يحشر الناس يوم القيامة فيقول من كان يعبد شيئا فليتبع فمنهم من يتبع الشمس ، ومنهم من يتبع القمر ، ومنهم من يتبع الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله فيقول : أنا ربكم فيقولون : أنت ربنا فيدعوهم فيضرب الصراط بين ظهراني جهنم ، فأكون أول من يجوز من الرسل بأتمته ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل ، وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم سلم

، وفي جهنم كالليب مثل شوك السعدان ، غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله ، تحطف. الناس بأعمالهم ، فمنهم من يوبق بعمله ، ومنهم من يخردل ثم ينجو حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله، فيخرجونهم ويعرفونهم بآثار السجود ، وحرّم الله على النار أن تأكل أثر السجود فيخرجون من النار فكل ابن آدم تأكله النار إلا أثر السجود فيخرجون من النار قد امتحشوا، فيصب عليهم ماء الحياة ، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل ، ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ، ويبقى رجل بين الجنة والنار ، وهو آخر أهل النار دخولا الجنة مقبلا بوجهه قبل النار ، فيقول: يارب اصرف وجهي عن النار قد قشبنى ريحها، وأحرقنى ذكاؤها ، فيقول: هل عسيت إن فعل ذلك بك أن تسأل غير ذلك ، فيقول :لاوعزتك ، فيعطى الله مايشاء من عهد وميثاق فيصرف الله وجهه عن النار فإذا أقبل به على الجنة رأى بهجتها سكت ما شاء الله أن يسكت ثم قال : يارب قدمنى عند باب الجنة ، فيقول الله له : أليس قد أعطيت العهود والميثاق أن لا تسأل غير الذى كنت سألت ؟ فيقول: ربى لاأكون أشقى خلقتك ، فيقول :فما عسيت إن أعطيت ذلك أن لا تسأل غيره ؟ فيقول :لاوعزتك لأسأل غير ذلك ، فيعطى ربه ما شاء من عهد وميثاق ، فيقدمه إلى باب الجنة فإذا بلغ بابها فرأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور ، فيسكت ما شاء الله أن يسكت

، فيقول : يارب أدخلني الجنة ، فيقول الله : — تعالى — ويحك يا ابن آدم ما أغدرك ، أليس قد أعطيت العهود والميثاق أن لا تسأل غير الذى أعطيت ؟ فيقول : يارب لا تجعلنى أشقى خلقك ، فيضحك الله — عز وجل — منه ثم يأذن له فى دخول الجنة ، فيقول له تمن فيتمنى حتى إذا انقطعت أمنيته ، قال الله — عز وجل — زد من كذا وكذا أقبل يذكره ربه — عز وجل — حتى إذا انتهت به الأمانى ، قال الله تعالى لك ذلك ومثله معه " (١)

قوله : عز وجل — "ويحك يا ابن آدم ما أغدرك " يقول السيوطى : " قال المحققون : إذا ورد التعجب من الله صرف إلى المخاطب ، كقوله تعالى : " فما أصبرهم على النار " (البقرة / ١٧٥) أى هؤلاء يجب أن يتعجب منهم ، وإنما لا يوصف — تعالى — بالتعجب لأنه استعظام يصحبه الجهل ، وهو — تعالى — متره عن ذلك ، ولهذا تعبر جماعة بالتعجب بدله ، أى أنه تعجب من الله للمخاطبين " (٢)

وفى الحديث يدل أسلوب التعجب على التعجب من فعل ابن آدم وأطماعه ، وفى الوقت نفسه كشف أسلوب التعجب عن عظم ما يشاهده

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الأذان، باب: فضل السجود ، وكتاب الرقاق باب : الصراط جسر جهنم وكتاب التوحيد، باب : قول الله تعالى وجوه يومئذناضرة ، ورواه مسلم فى صحيحه كتاب الإيمان باب ما جاء فى رؤية الله تعالى فى الدار الآخرة .

(٢) الإتيقان فى علوم القرآن ٢ / ٩٩ .

ابن آدم ، وفى الأسلوب أيضا رائحة إنكار على ابن آدم مخالفته العهد
والمواثيق التى قطعها على نفسه .

ثانيا : الأساليب السماعية

ورد التعجب في الأحاديث السابقة بالصيغ المبوب له بها في كتب العربية ، هذا وقد يرد التعجب بعبارات أخرى نحو : سبحان الله ، لله دره فارسا " " كبر مقتا عند الله " (الصف: ٣) وقد ذكر النحاة أن قوله تعالى (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم) (البقرة / ٢٨) من التعجب السماعي ، وهو عند البلاغيين من الاستفهام التعجبي لا من التعجب .

وقد ورد من هذه العبارات في السنة المطهرة صيغة " سبحان الله " فقط ، ولم أعثر على سواها ، وللعلماء كلام في لفظ سبحان قال العيني : " سبحان علم للتسييح كعثمان علم للرجل (١) وانتصابه على المصدرية ، كأنك قلت : سبحت الله تسييحا ، فجعل سبحانه في موضع التسييح (٢) والحاصل أنه منصوب بفعل محذوف لازم الحذف " (٣) ، وقد ذكر ابن الأنباري أن معنى سبحان الله : "سبحتك تزيها لك ياربنا من الأولاد

(١) يقول العيني : فإن قلت : إذا كان علما كيف أضيف ؟ قلت : ينكر عند إرادة الإضافة ، وقال ابن الحاجب : كونه علما إنما هو في غير حالة الإضافة ينظر العمدة ٩٥ / ٢ .

(٢) أي أنه ناب عن المصدر في الانتصاب على المفعول المطلق ينظر أوضح المسالك ١٨٩: ١٨٧/٢

(٣) أي من المصادر المسموعة التي كثر استعمالها ، ودلت القرائن على عاملها أوضح المسالك ١٩٠ / ٢ : ١٩٧ ، ونص الكلام من عمدة القاري ٢٣٩/٣ وما سبق بالهامش تعليقات من الباحثة من أوضح المسالك .

والصاحبة والشركاء أى نزهناك من ذلك، وقال القزاز : معناه برأت الله
— تعالى — من السوء " (١)

وقد تستعمله العرب فى مقام التعجب ، يقول الزمخشري :
"سبحان من فلان تعجب منه ، قال الأعشى :

أقول لما جئني فى فخره # سبحان من علقمة الفاخر

وقد ذكر الزمخشري أنه من المجاز " (٢) وفى الوسيط : " تقول : سبحان
الله : كلمة تزيه ، وتقول سبحان من كذا : إذا تعجبت منه " (٣)

وعلى قول الزمخشري وغيره يكون استخدام هذه الصيغة فى التعجب
من المجاز ، لأن حقيقتها تزيه الله ، فعلى هذا يكون استخدام هذا
الأسلوب من الاستعارة لما فى التزيه والتعجب من الانفعال ، فالجامع هو
الانفعال فى كل ، فالتزيه يكون نتيجة انفعال المخلوق بآلاء الخالق ونعمه
، والتعجب يكون نتيجة انفعال الناظر بما يرى ، أو بما يسمع .

(١) عمدة القارى ٢٣٨/٣ .

(٢) أساس البلاغة للزمخشري مادة (س ب ح) تحقيق عبد الرحيم محمود ط بيروت ١٩٨٢ م .

(٣) المعجم الوسيط مادة (س ب ح) .

وهذه دراسة لبعض مواطن التعجب السماعي .

عن أنس — رضى الله عنه — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عاد رجلا من المسلمين قد خفت فصار مثل الفرخ ، فقال له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — هل كنت تدعو بشئ أو تسأله إياه ؟ قال : نعم ، كنت أقول اللهم ما كنت معاقبي في الآخرة فعجله لى في الدنيا ، فقال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — سبحان الله ! لاتطيقه أو لاتستطيعه ، أفلا قلت : اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار ، قال : فدعا الله فشفاه " (١)

قوله : — صلى الله عليه وسلم — " سبحان الله " أراد به التعجب مما دعا به هذا الرجل على نفسه ، وقد بين — صلى الله عليه وسلم — وجه العجب بقوله : لاتطيقه ، يقول القرطبي : "قوله : سبحان الله لاتطيقه ، يعنى أن عذاب الآخرة لا يطيقه أحد فى الدنيا ، لأن نشأة الدنيا ضعيفة لاتحمل العذاب الشديد والألم العظيم بل إذا عظم عليه ذلك هلك ومات ، فأما نشأة الآخرة فهى للبقاء ، إما فى نعيم وإما فى عذاب إذ لاموت كما قال فى حق الكفار : (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليدوقوا العذاب)

(١) رواه مسلم فى صحيحه كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب : كراهة الدعاء بتعجيل العقوبة

(النساء : ٥٦) ثم إن النبي — صلى الله عليه وسلم — أرشده إلى أحسن ما يقال ، وهو قوله : ربنا آتانا في الدنيا حسنة " (١) وقد كشف أسلوب التعجب أيضا عن إنكار الرسول — صلى الله عليه وسلم — على الصحابي الجليل قوله ذاك .

عن عائشة — رضى الله عنها — أن امرأة سألت النبي — صلى الله عليه وسلم — عن غسلها من الحيض ، فأمرها كيف تغتسل ، قال : خذى فرصة من مسك فتطهري بها ، قالت : كيف أتطهر ؟ قال : تطهري بها ، قالت : كيف ؟ قال : سبحان الله تطهري فاجتذبتها إلى فقلت : تتبعى بها أثر الدم " (٢)

قوله : — صلى الله عليه وسلم — " سبحان الله " مراد به التعجب ، والتعجب هنا من خفاء مثل هذا عليها ، وقد جاء التعجب هنا مناسبا للمقام أى مناسبة ، فالرسول — صلى الله عليه وسلم — عندما أخبر السائلة — وهى أسماء بنت شكل — عن أخذها فرصة من المسك للتطهر بها ، لم يدر بخلده أنها لاتعلم كيفية التطهر ، فهذا أمر لا يخفى شأنه على

(١) المفهم ٣٢/٧ .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الحيض باب : ذلك المرأة نفسها إذا تطهرت من الحيض ، وكيف تغتسل وراه مسلم فى صحيحه كتاب الطهارة باب : صفة غسل المرأة من الجنابة.

النساء ، لهذا لما سألته بعد عن كيفية التطهر أعاد عليها ما قال " تطهري بها " وكأنه ينبهها إلى أن هذا مما لا يذكر ، فلما لم تدرك مراد الرسول — صلى الله عليه وسلم — ، وأعادت السؤال أخذه العجب كل العجب ، فقال : سبحان الله ! تطهري ، وأعرض عنها بوجهه كما تدل رواية أخرى للبخارى .

وهنا أدركت أم المؤمنين الموقف فجذبتها ، وبينت لها ما خفى عليها ، فقد جاء التعجب هنا معربا عن دهشة الرسول — صلى الله عليه وسلم — كاشفا عن حاله ، وكذلك حال تلك المرأة الغافلة عما هو بدهى ، ومما يؤيد دلالة هذه الصيغة على التعجب ما حدث من الرسول — صلى الله عليه وسلم — من أنه أعرض عنها بوجهه كما تدل الرواية الأخرى ، فقد لاءم أسلوب التعجب هنا المقام ، وكشف عن الحال .

أسلوب رب

اختلف البلاغيون في أسلوب " رب " أخبرى هو أم إنشائي ؟ وقد سارت هذه الدراسة على أنه من أسلوب الإنشاء غير الطلي (١) وقد اختلف النحاة في رب هل هي اسم أم حرف؟ فمذهب البصريين أنها حرف ، ومذهب الكوفيين أنها اسم ، واختلفوا أيضا في معناها ، فمذهب الجمهور أنها للتقليل ، ومذهب ابن درستويه وجماعة أنها تفيد التكثر ، وذهب فريق آخر إلى أنها لمبهم العدد فيكون تقيلا وتكثيرا ، وذهب بعضهم إلى أنها لم توضع لتقليل ولا تكثير ، بل ذلك مستفاد من سياق الكلام ، يقول أبو حيان : " وهذا الذى نختاره من المذاهب " (٢) ولرب أحكام نحوية عدة تختص بها تراجع مظاهرها (٣)

(١) ينظر التمهيد

(٢) ارتشاف الضرب من لسان العرب لأبي حيان التوحيدي ٤ / ١٧٣٧ ، ١٧٣٨ تحقيق د/ رجب عثمان مراجعة د/ رمضان عبد التواب ط الخانجي أولى ١٩٩٨ م .

(٣) رصف المبادئ في شرح حروف المعاني للمالقي ٢٦٦ : ٢٧١ تحقيق د/ أحمد محمد الخراط ط دار القلم دمشق ١٩٨٥ م، وارتشاف الضرب ٤ / ١٧٣٧ : ١٧٥٠ ، مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصارى ١٥٤/١ ، ١٥٨ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ط بيروت ١٩٩٢ م .

من مواقع " رب " في البيان النبوى الشريف

وقد جاءت لمقاصد منها :

أولا : إظهار التكثير

عن أم سلمة — رضى الله عنها — قالت : استيقظ النبى — صلى الله عليه وسلم — فقال : سبحان الله !! ماذا أنزل الليلة من الفتن ، وماذا فتح من الخزائن ؟ أيقظوا صواحب الحجر ، فرب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة ^(١)

قوله : " رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة " يقول العيني : " المراد إما التى تلبس رقيق الثياب التى لا تمنع من إدراك البشارة معاقبات فى الآخرة بفضيحة التعرى ، وإما اللابسات للثياب الرقيقة النفيسة عاريات من الحسنات فى الآخرة فندبهن على الصدقة ، وحضهن على ترك السرف فى الدنيا يأخذن منها أقل الكفاية ، ويتصدق بما سوى ذلك " ^(٢) ويقول الطبى : " قوله رب كاسية فى الدنيا عارية فى الآخرة ، كالبيان لموجب استيقاظ الأزواج فى قوله : أيقظوا صواحب الحجر أى لا ينبغي لمن أن يتغافل ويعتمد على كونهن أهالى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أى رب كاسية حلى الزوجية المشرفة بها ، وهى عارية عنها فى الآخرة

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب العلم باب العلم والعظة بالليل ومواضع أخر من صحيحه .

(٢) عمدة القارى ٢ / ١٧٤ .

لا ينفعها إذا لم تضمها مع العمل ، قال تعالى : " فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون (المؤمنون / ١٠١) (١)

ومعنى رب هنا التكثر (٢) والسياق هو الذى حدد هذا المعنى حيث إن الحديث مسوق للتخويف ، ولا يناسبه أن يكون المعنى للتقليل ، إذ يترتب على ذلك أن يكون القليل هو أن يعرى فى الآخرة من كان كاسيا فى الدنيا ، لاسيما أن الواقع يشهد بكثرة حدوث هذا الأمر لذا يقول العيني : — رحمه الله تعالى — وهذه البلوى عامة فى هذا الزمان لاسيما فى نساء مصر فإن الواحدة منهن تتغالى فى ثمن قميص إما من عندها أو بتكليفها زوجها حتى تفصل قميصا بأكمام هائلة ، وذيل سابلة جدا منجرة ورائها أكثر من ذراعين ، وكل قميص من كمها يصلح أن يكون قميصا معتدلا ، ومع هذا إذا مشت يرى منها أكثر بدنها من نفس كمها ، فلا شك أنهن ممن يدخلن فى هذا الحديث (٣) والحديث وإن صدر فى حق أزواجه — صلى الله عليه وسلم — فالعبرة لعموم اللفظ لالخصوص السبب (٤)

والخلاصة أن رب جاءت هنا لإفادة التكثر وهو الأنسب لمقام التخويف والتهويل ، والألصق بمقام العظة .

(١) عمدة القارى ٢ / ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٢) عمدة القارى ٢ / ١٧٤ ، ومعنى اللبيب لابن هشام ١٥٤ .

(٣) عمدة القارى ٢ / ١٧٤ .

(٤) عمدة القارى ٧ / ١٧٤ .

ثانيا : التقليل

عن أبي بكرة — رضى الله عنه — قال : خطبنا النبى — صلى الله عليه وسلم — يوم النحر ، قال : أتدرون أى يوم هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليس يوم النحر ؟ قلنا : بلى ، قال : أى شهر هذا ؟ فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، فقال : أليس ذو الحجة ؟ قلنا : بلى ، قال : أى بلد هذا ؟ فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليست بالبلدة الحرام ؟ قلنا : بلى ، قال : فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا ، في بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربكم ، ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم ، قال : اللهم اشهد فليبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلغ أوعى من سامع ، فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض " (١)

قوله : " قرب مبلغ أوعى من سامع " رب هنا للتقليل ، ومعنى قوله رب مبلغ أوعى من سامع ، أى رب شخص بلغه كلامى كان أحفظ له ، وأفهم لمعناه من الذى نقله عني ، يقول العيني : " فإن قلت : كلمة رب أصلها للتقليل ، وقد تستعمل للتكثير ، فأيهما المراد هنا ؟ قلت

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الحج باب الخطبة أيام منى ورواه مسلم فى صحيحه كتاب القسامة والقصاص والديات ، باب تحريم الدماء والأموال والأعراض .

: الظاهر أن المراد معنى التقليل تدل عليه الرواية التي تقدمت في كتاب العلم : عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه " (١)

وقد استنبط العيني من الحديث أنه قد يأتي في آخر الزمان من يكون له من الفهم في العلم من ليس لمن تقدمه ، وأن ذلك يكون في القليل لأن رب موضوعه للتقليل ، وعسى موضعها الإطماع ، وليست لتحقيق الشيء (٢)

وقد ذكر القرطبي — رحمه الله تعالى — أن الحديث " فيه حجة على أن المتأخر قد يفهم من الكتاب والسنة ما لم يخطر للمتقدم ، فإن الفهم فضل يؤتيه الله من يشاء ، ولكن هذا يندر ويقل ، فأين البحر من الوشل ، والعل من العلل ليس التكحل في العينين كالكحل " (٣) وقد ذكر أيضا أن هذا الحديث كقوله — صلى الله عليه وسلم — فيما أخرجه الترمذى (٤) " نضر الله امرأ سمع منا حديثا فبلغه غيره كما سمعه فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه ليس بفقيه " (٥)

(١) عمدة القارى ١٠ / ٨١ .

(٢) عمدة القارى ٢ / ٣٨ .

(٣) المفهم ٥ / ٤٩ .

(٤) رواه الترمذى في الجامع كتاب العلم باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع ، وأبو داود كتاب العلم باب فضل نشر العلم

(٥) المفهم ٥ / ٤٩ .

وفى إirاده — صلى الله عليه وسلم — الخبر بأسلوب رب المفيدة
 التقليل أدب جم لأن فى عدم الإتيان به مجاهدة للحضور من الصحابة —
 رضوان الله تعالى عليهم — بقلّة الفهم والوعى ، وهو من أجمل مواضع
 رب ، فجاء رب تحاميا من الوقوع فى هذه المجاهدة .
 عن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله — صلى الله
 عليه وسلم — قال : رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله
لأبره" (١)

قوله : لو أقسم على الله لأبره " أى : لو حلف على وقوع شئ
 أوقعه الله إكراما له بإجابة سؤاله ، وصيانتة من الخنث فى يمينه ، وهذا
 لعظم منزلته عند الله — تعالى — وإن كان حقيرا عند الناس ، وقيل
 : "معنى القسم هنا الدعاء ، وإبراره إجابته " (٢)
 وفى الحديث حث منه — صلى الله عليه وسلم — على عدم مباحدة
 الضعفاء والخاملين ، إذ يتوقع أن يكون أحدهم مقبولا عند الله ، والعافل
 إن توقع خيرا لزمه ، وفى إيراد الحديث بأسلوب رب التى تفيد التقليل هنا
 محاكاة للواقع إذ ليس كل حقير عند الناس ذا منزلة عالية عند الله .

(١) رواه مسلم فى صحيحه كتاب البر والصلة والآداب باب فضل الضعفاء والخاملين وكتاب ذكر الموت
 وما بعده باب صفة أهل الجنة .

(٢) ينظر المفهم للقرطبي ٦ / ٦٠٩ ، ٦١٠ ، وشرح مسلم للنووي ٨ / ٤٢٣ ، وشرح الأبي
 والسنوسي ٧ / ٦١

ويرى القرطبي " أن رب تصلح في هذا البيت أن تحمل على التكثير ،
فكأنه قال : كثير ممن يكون هذا حاله لو أقسم على الله لأبره " (١)

(١) المفهم للقرطبي ٧ / ١٧٠

كم الخبرية

سبق الحديث في التمهيد عن اختلاف العلماء في كم الخبرية ، وهل تفيد الإنشاء فقط أم الإخبار فقط أم تحتملها ؟ وقد سارت هذه الدراسة على ماعليه الجمهور من أنها من الإنشاء غير الطلبي ، وقد ذكر العلماء أن كم هذه تفيد التكثر (١)

كم في البيان النبوى الشريف

تأتى كم في البيان النبوى الشريف لقصد التكثر :

عن أم سلمة — رضى الله عنها قالت : " استيقظ النبى — صلى الله عليه وسلم — من الليل وهو يقول : لا إله إلا الله ماذا أنزل الليلة من الفتن ، وماذا أنزل من الخزائن من يوقظ صواحب الحجرات كم من كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة " (٢)

هذا الحديث من معجزاته — صلى الله عليه وسلم — حيث أخبر بمغيب وقع كما ذكر — صلى الله عليه وسلم — وقد ورد الحديث برواية أخرى بـ " رب " بدلا من كم سبق ذكرها ، والتعبير بكم المفيدة التكثر هنا مناسب للمقام ، فالمقام هنا للتخويف والتهويل ، فقد أضفت كم

(١) معنى اللبيب لابن هشام ١ / ٢٠٧ ، وارتشاف الضرب من لسان العرب لأبي حيان الأندلسى ٢ / ٧٧٦ .

(٢) رواه البخارى في صحيحه كتاب اللباس ، باب : ما كان النبى — صلى الله عليه وسلم — يتجوز من اللباس والمخيط .

بدلالاتها هذه على الأسلوب ما يخلع القلوب من الخوف ، حيث أشعرت
بقلة الناجين وكثرة المعذبين من هذا الصنف ، وهذا أدعى إلى إقلاع
المقتترف عن ما هو عليه فرارا من العذاب الواقع إلى النجاة .

عن جابر بن سمرة — رضى الله عنه — قال : صلى رسول الله —
صلى الله عليه وسلم — على ابن أبي الدحداح ، ثم أتى بفرس عرى ،
فعلقه رجل فركبه ، فجعل يتوقص به ونحن نتبعه نسعى خلفه قال :
فقال رجل من القوم : إن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : كم
من عذق معلق (أو مدلى) فى الجنة لابن الدحداح " (١)

قوله : " كم من عذق فى الجنة لابن الدحداح " لهذا القول قصة
جرت وهى أن يتيما خاصم أباالبابة فى نخلة فبكى الغلام ، فقال النبي :
— صلى الله عليه وسلم — له أعطه إياها ولك بها عذق فى الجنة ، فقال
: لا ، فسمع ذلك ابن الدحداح ، فاشتراها من أبى لبابة بحديقة له ، ثم
قال للنبي — صلى الله عليه وسلم — ألى بها عذق إن أعطيتها اليتيم ؟ قال

(١) رواه مسلم فى صحيحه كتاب الجنائز باب ركوب المصلى على الجنازة إذا انصرف ، والدحداح من
الرجال : القصير الغليظ البطن والجمع دحاديح يراجع اللسان والوسيط مادة (د ح ذ) ، والعذق :
قنو النخلة ، والجمع أعذاق وعذوق اللسان والوسيط مادة (ع ذ ق) ، ويتوقص به فرسه : يشب وثبا
قصير الخطى اللسان والوسيط مادة (و ق ص)

: نعم ، فقال النبي : — صلى الله عليه وسلم — كم من عذق معلق في الجنة لابن الدحداح " (١)

وقد جاء التعبير بكم مناسبا للمقام فالرسول — صلى الله عليه وسلم — يبشر الصحابي — رضى الله عنه — بما له في الجنة جزاء لما صنع ، فيتخذ من كم وما تدل عليه من تكثير أداة تساعد على تفخيم وتعظيم هذا الجزاء ، فكم ليست جامدة من المعاني بل هي حية بالمعاني والإيحاءات التي تفهم من السياق .

(١) ينظر المفهم للقرطبي ٦٢٣/٢ ، شرح صحيح مسلم غي الدين النووي ٣٩/٤ ، وشرح مسلم لأبي السنوسي ٩٥/٣ .

الفصل الثالث

القسم ومواقعه في البيان النبوي

توطئة

سبق الحديث في التمهيد عن أسلوب القسم ، هل هو من الإنشاء
الطلبى أم من الإنشاء غير الطلبى ؟ وقد سارت هذه الدراسة على ما عليه
جمهرة العلماء من كونه إنشاء غير طلبى .

والقسم وسيلة من وسائل التوكيد التى يلجأ إليها المتكلم لتوكيد كلامه
، وتثبيته وتوثيقه فى النفوس ؛ لذا يقول سيويه " اعلم أن القسم توكيد
لكلامك " (١)

ولعل مما يكشف عن التأثير النفسى للقسم ما روى عن بعض الأعراب
أنه لما سمع قوله — تعالى — " وفى السماء رزقكم وما توعدون . فو رب
السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون " (الذاريات / ٢٢ ، ٢٣
(صرخ وقال : من ذا الذى أغضب الجليل حتى ألقاه إلى اليمين " (٢)

وستقوم دراسة هذا الأسلوب — إن شاء الله — على حسب
المقامات التى ورد فيها ، وكيف جاء ملائما المقام مطابقا الحال ، وقبل
البدء فى هذه الدراسة أوجز القول فى الصيغ التى كان يقسم بها سيد البرية
— صلى الله عليه وسلم — فقد كان العرب فى جاهليتهم يقسمون بأشياء

(١) الكتاب لسيويه ٣ / ١٠٤ تحقيق عبد السلام هارون ط دار الكتب العلمية نشر الخانجي ١٤٠٨ هـ

(٢) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ٣ / ٤١ تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم ط دار التراث دون تاريخ

شئ من الآباء والأصنام ، فجاء الإسلام ليحرم كل ذلك ، ويحدد المحلوف به وهو الله — عز وجل — ومن هنا جاء قوله : — صلى الله عليه وسلم — من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت " (١)

يقول المهلب : — إنما كان — صلى الله عليه وسلم — يحلف في تضاعيف كلامه ، وكثير من فتواه تبرعاً بذلك لنسخ ما كانت الجاهلية عليه من الحلف بآبائهم وأهنتهم وأصنام وغيرها ، ليعرفوا أن لا محلوف به سوى الله — عز وجل — وليتدربوا على ذلك حتى ينسوا ما كانوا عليه من الحلف بغير الله — تعالى " (٢)

وقد بين الإمام البخارى فى صحيحه كتاب الأيمان والنذور باب كيف كانت يمين النبى — صلى الله عليه وسلم ؟ بين الصيغ التى كان يحلف بها الرسول — صلى الله عليه وسلم — مثل (والله ، بالله ، تالله ، لا ومقلب القلوب ، والذى نفسى بيده ، وأيم الذى نفسى بيده) أما الأحاديث التى ورد فيها الحلف بالأب على لسانه — صلى الله عليه وسلم — مثل حديث : أما وأبيك لتنبأنه " (٣) وحديث : أفلح وأبيه إن صدق " (٤)

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الشهادات باب كيف يستحلف ، ورواه مسلم فى صحيحه كتاب الأيمان والنذور باب النهى عن الحلف بغير الله — تعالى .

(٢) عمدة القارى للعيني ١٧٩ / ٢٣ .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه كتاب الزكاة باب بيان أى الصدقة أفضل

(٤) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الإيمان باب الزكاة من الإسلام ، ورواه مسلم فى صحيحه كتاب الأيمان باب وجوب التزام شرائع الإسلام .

فقد وجه شراح الحديث هذا الحلف بأن ذلك جرى على اللسان بحكم السبق من غير قصد للحلف به ، كما جرى منه : تربت يمينك ، وعقرى حلقى وهذه عادة بشرية لا مؤاخذه عليها ، ولا ذم يتعلق بها " (١)

حديث النحاة عن القسم

تحدث النحاة عن حروف القسم (الباء والواو والتاء) فذكروا أن الباء أصل حروف القسم لدخولها على الظاهر والمضمر نحو (بالله لتفعلن ، وبك لأفعلن) وأنه يجوز إظهار فعل القسم معها وحذفه ، ولا يجوز ذلك في غيرها من حروف القسم ، فدل على أصالتها وفرعية غيرها في الباب .

أما الواو فتكون للقسم عوضا عن الباء ، و لا تخفص إلا الظاهر ، و لا تتعلق إلا بمحذوف نحو (يس والقرآن الحكيم) (يس / ٢) فإن تلتها واو أخرى ، فالتالية حرف عطف ، وإلا لاحتاج كل من الاسمين إلى جواب نحو قوله : — تعالى (والتين والزيتون) (التين / ١)

(١) المفهم للقرطبي ١٦١/١ وشرح صحيح مسلم للنووي ١٣٤/٤ ، وعمدة القاري ٢٣ / ١٧٥ .

أما التاء فتكون للقسم بدلا من الواو نحو قوله : — تعالى (وتالله لأكيدين أصنامكم) (الأنبياء / ٥٨) وتختص بالتعجب ، وباسم الله — تعالى — وربما قالوا : تربي ، وترب الكعبة ، وتالرحمن " (١)

وتحدث النحاة أيضا عن حذف جملة القسم ، فذكر ابن هشام أن هذا الحذف كثير جدا مع غير الباء من حروف القسم ، وحيث قيل : لأفعلن ، أو لقد فعل ، أو لئن فعل ، ولم يتقدم جملة قسم ، فثم جملة قسم مقدرة ، نحو (لأعذبه عذابا شديدا) (النمل ٢١) (ولقد صدقكم الله وعده) (آل عمران / ١٥٢) (لئن أخرجوا لا يخرجون معهم) (الحشر / ١٢) واختلف في نحو : لزيد قائم ، ونحو : إن زيدا قائم أو لقائم ، هل يجب كونه جوابا لقسم أو لا ؟ " (٢)

وتحدث ابن هشام عن حذف جواب القسم ، فذكر أنه يجب إذا تقدم عليه أو اكتنفه ما يغني عن الجواب ، فالأول نحو : زيد قائم والله ، ومنه : إن جاءني زيد والله أكرمته ، والثاني : نحو : زيد والله قائم ، فإن قلت : زيد والله إنه قائم أو لقائم ، احتمال كون المتأخر عنه خيرا عن المتقدم عليه ، واحتمل كونه جوابا ، وجملة القسم وجوابه الخير ، ويجوز

(١) ينظر رصف المباني في شروح المعاني للمالقي صفحات ٢٢٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٤٨٣ ، وينظر مغني اللبيب ١ / ١٢٣ ، ١٣٤ ، ٣٦١/٢ .

(٢) مغني اللبيب ٦٤٥/٢

فى غير ذلك نحو (والنازعات غرقا . . .) الآيات ، أى لتبعثن . . .
 وقيل الجواب : إن فى ذلك لعبرة وهو بعيد لبعده " (١)

(١) معنى اللبيب ٦٤٥/٢ ، ٦٤٦

مواقع القسم في البيان النبوى الشريف

القسم في مقام (رد الدعوى التى يدعيها المخاطب)

عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ، ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار " (١)

المقصود من القسم التأكيد على وجوب إيمان اليهود والنصارى بالإسلام الذى هو خاتم الرسالات " فعندما بعث — صلى الله عليه وسلم — وآمن به من آمن ، وكفر به من كفر رأى بعض أهل الكتاب من اليهود والنصارى أن يتخذوا لأنفسهم رأيا وسطا — فى زعمهم — بين المؤمنين به والمكذبين له ، فقالوا إنه رسول الله حقا لكن لا إلينا بل إلى الأميين كأنهم لم يسعهم تكذيبه جملة لما بهرهم من دلائل صدقه ، ولم يستطيعوا فى الوقت نفسه مقاومة أهوائهم ، والتزول عن كبريائهم ،

(١) رواه مسلم فى صحيحه كتاب الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد — صلى الله عليه وسلم .

فيكونون منه كالتابع من المتبوع ، ففى شأن هذا الفريق سبق هذا الحديث للرد عليهم بأبلغ وجه وأكدته ^(١)

ووراء اختياره — صلى الله عليه وسلم — صيغة القسم " والذى نفس محمد بيده " دون غيرها من صيغ القسم مغزى لطيف وهو " التنبيه إلى ما فى الافتراء على الله من المخاطرة بالنفس كأنه قال : كيف أجرؤ أن أقول على الله ما ليس لى بحق ، وروحي فى يده وهو القادر على أن ينتقم من الكاذب ، فهذا منه — صلى الله عليه وسلم — إشارة إلى قوله — تعالى — (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين) (الحاقة / ٤٤ : ٤٧) ^(٢)

وما بينه الدكتور دراز من مغزى اختياره — صلى الله عليه وسلم — هذه الصيغة " والذى نفس محمد بيده " كان بياناً إجمالياً فصله د / محمد أحمد على فى كتابه من أسرار البيان النبوى حيث يقول : " لم يختار الرسول — صلى الله عليه وسلم — اسماً من أسماء الله ليقسم به فى هذا المقام ، وإنما جاء باسم الموصول وصلته التى تعلن أن من أقسم به على هذا الأمر يمكن أن يتصرف فى نفسه كيفما شاء ، ومتى شاء ، ويمكن أن يعاقبه أشد العقاب إذا هو تجراً وأخبر عن الله ما لم يوح به إليه ، إن نفسه

^(١) المختار من كنوز السنة د/ محمد عبد الله دراز تقديم بخارى أحمد عبده ص ١٤٦

ط دار الأنصار ١٣٩٨هـ .

^(٢) المختار من كنوز السنة ١٤٧ .

بيده فكيف يكذب عليه ؟ وكيف يقسم به حائثا ؟ ما أبعده — صلى الله عليه وسلم — عن ذلك ، وأبعد ذلك منه ، إن هذا المعنى كان سيضيع تماما لو أنه أقسم بالله أو بأى اسم من أسمائه ، وهذا المعنى من شأنه أن يهيج النفوس ، ويطمئن القلوب لاستقبال الخبر بالطمأنينة والقبول ^(١) .

ثم تحدث داخل بناء صيغة القسم عن سر العدول عن التعبير بالضمير كأن يقول : والذى نفسى بيده ، أو لم يذكر صفته والذى نفس رسول الله بيده " فقد عدل عن الضمير إلى الاسم الظاهر ليومئ إلى أن نفسه بيد الله لا بصفته نبيا ، ولكن بصفته إنسانا مخلوقا ، فف نفسه بيد الله من قبل أن يوحى إليه ومن بعده ، وكل إنسان من بنى آدم نفسه بيد الله كذلك ، فإذا كان الإنسان نفسه بيد الله فعليه ألا يكذب على الله ، وألا يتقول عليه ، وألا يخفى الحقائق التى يعرفها لأن نفسه بيده ، وربما من أجل ذلك لم يقل : والذى نفس رسول الله بيده ، واختار بدلا من ذلك الاسم المجرد العارى عن صفة النبوة والرسالة ، ولو استخدم الضمير كما هو الظاهر لاحتمل أن القصد إلى صفته لا إلى ذاته ، ولو استخدم الاسم الظاهر الذى ينبئ عن صفته لاحتمل أن كذبه على الله لكونه نبيا أو رسولا كبيرة من الكبائر ، أما وقد استخدم الاسم الظاهر الدال على الذات فإنه أفاد أن نفس الإنسان من حيث هو إنسان بيد الله — تعالى — وأنه يملك الانتقام منه إذا هو كذب على الله .

(١) من أسرار البيان النبوى د / أحمد محمد على ١٤ ، ١٥ ط دار الصحوة ١٩٨٥ م .

وقد ذكر أيضا أن في هذا إيقاظا لضمائر اليهود والنصارى الذين يعرفون من كتبهم أنه رسول الله حقا ، وأنهم مطالبون بالإيمان به ، ولكنهم يمارون ويكابرون ويرفضون الإيمان به ، وإذا فإن عند هؤلاء من هذا الخبر مثلما أعلن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكما أنه لا يستطيع أن يكذب على الله ، ولا أن يتقول لا بوصفه نبيا بل بوصفه بشرا نفسه بيد الله خالقه ومالك أمره ، فكذلك لا ينبغي لهؤلاء أن يكتموا ما علموه من كتبهم بشأنه ، لا أن يتراجعوا عن الإيمان به ، فهم أيضا نفوسهم بيد الله — تعالى — وكتمان ما علموه من كتب أنبيائهم يمكن أن يعرضهم للانتقام من الله — تعالى — الذى بيده نفوسهم وأرواحهم" (١)

والخلاف في معنى اليد معروف وملخصه أن العلماء منه على فريقين فريق يفوض وفريق يؤول المفوضون : يؤمنون بأن الله يدا كما أثبت لنفسه ، والمؤولون : يذهبون إلى أن اليد بمعنى القدرة ، وكل يترع إلى تترية الله — تعالى — الأولون يفرون من التعطيل والآخرين يفرون من مشاهة الله — تعالى — الحوادث ، والمذهب الأول أسلم ، والمذهب الثاني أحكم (٢)

(١) من أسرار البيان النبوى د/ أحمد محمد على ١٥ ، ١٦ .

(٢) يراجع في هذا الموضوع عمدة القارى ١ / ١٤٤ بتصرف والمختار من كنوز السنة د/ محمد عبد الله دراز ١٤٧ ، ١٤٨ بتصرف .

ونعود إلى جواب القسم " لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار " ويستوى فى السماع من كان فى عصره أو غيره أو فى جزيرة العرب أو سواها حتى لو كان فى أقصى أطراف الأرض .

" واختار السماع على وجه الخصوص ولم يختَر فعلا آخر كالعلم مثلا حتى يبين أن مجرد وصول الخبر إلى السامع يلزمه بالإيمان ، يستوى فى ذلك أن يصله خبرا مسموعا أو خبرا مقروءا ، وليس المقصود بالسماع هو السماع باسمه ، وإنما المقصود السماع بأمره ونبوته ورسالته على وجهها الصحيح من غير بتر أو تزيف أو تشويه يصرف الناس عن الإيمان . . . وعلى هذا الفهم يمكن أن يكون فى الكلام إيجاز بالحذف ، وأن يكون أصل التركيب لا يسمع برسالتى أحد فحذف المضاف ، وأدخل حرف الجر على المضاف إليه مباشرة ، وهذا يوحى أن السماع به سماع بصفته ، سماع بنبوته ورسالته ، وليس السماع به شيئا غير ذلك ، وأين هو ذلك الخبر الذى كان ينتقل باسمه بعد البعثة النبوية وإلى الآن مجردا عن صفته وعن رسالته ؟ إن السماع به هو سماع برسالته ، فلهذا صح الحذف وبناء الكلام على الإيجاز " (١)

(١) من أسرار البيان النبوى ١٨ ، ١٩ .

وجاء قوله " أحد " منكرا للعموم والشمول لا فرق بين حبر وراهب وقسيس وأمى^(١) والمراد بالأمة أمة الدعوة من يوم بعثه — صلى الله عليه وسلم — إلى يوم القيامة^(٢) ، لذا يقول النووي : " أى ممن هو موجود فى زمنى وبعدى إلى يوم القيامة ، فكلهم يجب عليه الدخول فى طاعته " ^(٣)

" أما الإشارة إليها باسم الإشارة القريب فلائها بين يديه ، وإن كان لها امتداد لا يحد زمانا ولا مكانا " ^(٤) وقوله " يهودى ولا نصرانى " صفة لأحد وخصهما بالذكر " تنبيها على من سواهما ، وذلك لأن اليهود والنصارى لهم كتاب ، فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتابا فغيرهم ممن لا كتاب له أولى " ^(٥)

" ومن ناحية أخرى نجد أنه لو لم ينص هنا على اليهود والنصارى لزعموا أنهم لا يدخلون فى هذا الحديث لأنهم — بزعمهم — يقعون خارج هذه الأمة ، فاليهود يعدون أنفسهم أمة موسى ، والنصارى يعدون أنفسهم أمة عيسى ، وبالتالي فإن هذا الخبر لا يصل أثره إليهما ،

(١) السابق ١٩ بتصرف .

(٢) المختار من كنوز السنة ١٥٠ .

(٣) شرح صحيح مسلم النووي ١ / ٤٦٦ .

(٤) من أسرار البيان النبوى د / أحمد محمد على ٢٠ .

(٥) شرح صحيح مسلم للنووى ١ / ٤٦٦ .

ولا يلزمهما بحال ، ولكن وصف الفاعل (أحد) بهذا الوصف (يهودى ولا نصرانى) قطع الطريق على كلا الفريقين " (١)

وقوله : " ثم يموت " ثم هنا حرف عطف وهى للترتيب والتراخى ، " ولم يؤمن بالذى أرسلت به " جملة حالية : أى يموت على هذه الحالة ، وهى عدم الإيمان بالذى أرسل به محمد — صلى الله عليه وسلم .

" وفائدة التعبير بـثم إما لاستبعاد حصول الموت على الكفر من أهل الكتاب بعد سماعهم به ، وإما مراعاة لجانب المفهوم ، فقد دل الحديث بمنطوقه على أن الذى يكون من أصحاب النار هو من يجتمع فيه أمور ثلاثة : أن يسمع بالرسول ، وأن لا يؤمن بما أرسل به ، وأن يموت على ذلك ، ومفهومه أن النجاة يكفى فيها واحد من ثلاثة . . . ولعل هذا مما تشير إليه كلمة ثم لكن محل نفع الإيمان قبل الموت ما لم يقع حال الغرغرة فإن الإيمان فى هذه الحالة لا يفيد " (٢)

ونلاحظ أنه — صلى الله عليه وسلم — قال : ولم يؤمن بالذى أرسلت به ، ولم يقل : ولم يؤمن بى ، كما قال قبل ذلك " لا يسمع بى أحد " لأن البناء على الإيجاز بالحذف هناك كان جائزا ، لأن المقام يتحملة ، أما هنا فإن المقام لا يتحملة ، وذلك أنه قد يسمع المرء به ويؤمن به ، ولا يكون من أصحاب الجنة لأن إيمانه كان بعقريته أو

(١) من أسرار البيان النبوى ٢٠ ، ٢١ .

(٢) المختار من كنوز السنة ١٥٠ ، ١٥١ .

عظمته أو أخلاقه أو سلوكه أو غير ذلك من جوانب شخصيته — صلى الله عليه وسلم — مما عرف به وشهر عنه ، إن هذا إيمان به أيضا ، ولكن إيمان غير مفيد ، أما الإيمان المفيد فهو الإيمان بالذى أرسل به " (١)

ونلاحظ أنه قال : ولم يؤمن بالذى أرسلت به ، ولم يقل مثلاً ولم يؤمن برسالتى أو بكتابتى مثلاً ، ولا يكون الكلام مبنيًا على الإيجاز بالحذف " ولكنه اختار هذه الصيغة على ما سواها ليفهم أن ما جاء به من الكتاب لم يخترعه من عند نفسه ، ولم يؤلفه تأليفاً ، وإنما أرسل به أرسله به من نفسه بيده ، ومن المستبعد إن لم يكن من المستحيل أن يدعى على من نفسه بيده شيئاً لم يكلفه به ، ولم يوح به إليه " (٢)

قوله : " إلا كان من أصحاب النار " هذا هو جزاء من سمع به من أهل الكتاب ، ثم لم يؤمن به ومات على ذلك ، وكونه من أصحاب النار يدل على ملازمته وخلوده فى النار وعصاة المؤمنين ، وإن عذبوا بالنار لا يسمون من أصحاب النار لأنهم إنما يترلون عند أصحاب النار إلى أمد ثم يرجعون إلى دارهم التى أعدت لهم " (٣)

" وفى اختيار لفظ أصحاب هنا مغزى جليل فإن الصحبة فيها ألفة ومودة ومحبة وحرص ورغبة ، وكأن هذه المعانى كلها قائمة بين النار

(١) من أسرار البيان النبوى د / أحمد محمد على ٢١ ، ٢٢ .

(٢) من أسرار البيان النبوى ٢٢ .

(٣) المختار من كنوز السنة ١٥٠ .

وبين أصحابها ، وهذا يوحى بأن سعيهم إليها يوم القيامة إنما يكون سعى
النجذاب إليها كما يجذب الصاحب إلى صاحبه بعد طول غياب ، حتى لو
أراد أن يصرف وجهته إلى مكان آخر لما استطاع إلى ذلك سبيلا ^(١)
فقد تضافرت التراكيب الداخلية في جملة القسم على بيان تأكيد إيمان
اليهود والنصارى بالرسول — صلى الله عليه وسلم — ورسالته .

عن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : لما فتحت خير أهديت
للنبي — صلى الله عليه وسلم — شاة فيها سم ، فقال النبي : — صلى
الله عليه وسلم — اجمعوا إلى من كان ههنا من يهود ، فجمعوا له ،
فقال لهم : إني سائلكم عن شئ فهل أنتم صادقى عنه ، فقالوا : نعم ،
قال لهم النبي : — صلى الله عليه وسلم — من أبوكم ؟ قالوا : فلان ،
فقال : كذبتكم بل أبوكم فلان ، قالوا : صدقت ، قال : فهل أنتم
صادقى عن شئ إن سألت عنه ؟ فقالوا : نعم يا أبا القاسم ، وإن
كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا ، فقال لهم : من أهل النار ؟
قالوا : نكون فيها يسيرا ، ثم تخلفونا فيها ، فقال النبي : — صلى الله
عليه وسلم — اخسأوا فيها والله لا تخلفكم فيها أبدا ، ثم قال : هل أنتم
صادقى عن شئ إن سألتكم عنه ، فقالوا : نعم يا أبا القاسم ، قال :

(١) من أسرار البيان النبوى ٢٣ .

هل جعلتم في هذه الشاة سما ، قالوا : نعم ، قال : ما حملكم على ذلك ؟ قالوا : أردنا إن كنت كاذبا نستريح ، وإن كنت نبيا لم يضرك " (١) جاء القسم هنا ردا على دعوى يدعيها المخاطبون ، فقد سأل الرسول — صلى الله عليه وسلم — جماعة من اليهود عن أهل النار ، فادعوا أنهم يكونون فيها يسيرا ، ثم يخلفهم فيها النبي وأصحابه ، فجاء رده — صلى الله عليه وسلم — عليهم مؤكدا بليغا : اخسأوا فيها والله لا تخلفكم فيها أبدا .

وقد جاء أسلوب القسم مناسبا للمقام ملائما الحال ، فلا يصح أن يخاطب إنسان بخلاف ما يعتقد بأسلوب عار من التوكيد ، وإذا حذفنا القسم من الجملة وقلنا مثلا : كذبتم لا تخلفكم فيها على غرار رده — صلى الله عليه وسلم — على اليهود عندما أجابوه عن السؤال الأول لما ناسب المقام ؛ لأن سؤاله — صلى الله عليه وسلم — الأول والثالث كانا عن أمر ماض ، فلم تكن حاجة إلى التوكيد لذا جاء الجواب عاريا عن القسم ، أما السؤال الثاني : من أهل النار ؟ فهو عن أمر غيبي ، والأمور الغيبية تفتقر إلى التوكيد ، لاسيما إذا كان المخاطب يعتقد خلاف ما يخاطب به .

(١) رواه البخارى في صحيحه كتاب الطب باب ما يذكر في سم النبي وكتاب الجزية باب إذا غدر المشركون بالمسلمين .

هذا وقد قدم الرسول — صلى الله عليه وسلم — لأسلوب القسم بأسلوب استعارة فيها زجر وطرده ولعن لهم تنبيهها على كذبهم ، وذيل أسلوب القسم بظرف الزمان المستقبل (أبدا) تأكيدا لتأييد الجواب ، وفيه أيضا بشارة للمؤمنين

عن عكرمة أن رفاعة طلق امرأته فتزوجها عبد الرحمن بن الزبير القرظي ، قالت عائشة : وعليها خمار أخضر فشكت إليها ، وأرقها خضرة بجلدها ، فلما جاء رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والنساء ينصر بعضهن بعضا ، قالت عائشة : ما رأيت مثل ما يلقي المؤمنات لجلدها أشد خضرة من ثوبها ، قال : وسمع أنها قد أتت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فجاء ومعه ابنان له من غيرها ، قالت : والله مالى إليه من ذنب إلا أن ما معه ليس بأغنى عني من هذه ، وأخذت هدبة من ثوبها ، فقال : كذبت والله يارسول الله إني لأنفضها نفص الأديم ، ولكنها ناشز تريد رفاعة ، فقال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — فإن كان ذلك لم تحلى له ، أو لم تصلحى له حتى يذوق من عسيلتك ، قال : وأبصر معه ابنين له ، فقال : بنوك هؤلاء ؟ قال : نعم ، قال : هذا الذى تزعمين ما تزعمين ، فوالله لهم أشبه به من الغراب بالغراب " (١)

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب اللباس باب الثياب الخضر .

وردت في هذا الحديث أقسام عدة منها ما هو على لسان المرأة (تميمية بنت وهب) ومنها ما هو على لسان زوجها (عبد الرحمن بن الزبير) ومنها ما هو على لسان المصطفى — صلى الله عليه وسلم .

فلنأخذ أولاً ما ورد على لسان المرأة حيث قالت : والله ما لي إليه من ذنب إلا أن ما معه ليس بأغنى عني من هذه " يقول الراوى : وأخذت هدبة من ثوبها ، فقد ادعت المرأة دعوى ، وأتت بأسلوب القسم لتؤكد دعواها ، وهذا — والله أعلم — لما تعلمه في نفسها من عدم أحقيتها فيما ادعته ، كما سيتبين لنا بعد من جواب زوجها ، ومن حكم رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

وقد جاء بناء جملة جواب القسم بناءً بديعاً حيث عبرت بما النافية ، وقدمت خبرها مبادرة في نفى جرمها في حق زوجها ، وأخرت الاسم مزيداً بمن زيادة تأكيد في إثبات براءتها ، ومما ضاعف من ذلك بناء الجواب جملة بأسلوب تأكيد الذم بما يشبه المدح ، حيث إن (إلا) أوهمتنا أن ما يأتي بعدها يكون نقيض ما أثبت قبلها ، فإذا به يثبت تقصير زوجها في حقها .

وكنيت عن قصور زوجها في الجماع بكناية عجيبة حيث أخذت هدبة من ثوبها ، وقالت : إلا أن ما معه ليس بأغنى عني من هذه ، فكلام المرأة جملة يؤول إلى قولنا : يضاعف من تعذبي دون ذنب منى مع شدة تقصيره في حقى .

وقد جاء جواب زوجها على دعواها هذه مكافئا أسلوبها في إثبات دعواها ، فقد جاء بفاء التعقيب ، وكأنها استنفرت استنفاراً قويا فلم يملك أن يتريث في جوابها ؛ لذا جاءت الرواية (فقال : كذبت) فقدم ذكر الحكم عليها قبل إثبات مبرره .

وجاء مع المقسم به بندائه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لفتا قويا لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — عنها إليه حتى يقبل بكليته عليه ، ثم جاء جواب القسم أيضا بكناية عجيبة مؤكدا بأن واسمية الجملة واللام لأن المقام لمخاطبة مدّع (إني لأنفضها نفص الأديم) كناية عن كمال قوة المباشرة في مقابل كنائيتها عن شدة قصوره في الجماع ، وزاد ذلك بأن عطف على جوابه جملة استدراكية تقيم عليها دعوى تفسر سبب دعواها الأولى (ولكنها ناشز تريد رفاعه) وبعد أن استمع المصطفى — صلى الله عليه وسلم — للطرفين جاء حكمه (فإن كان ذلك لم تحلى له أو لم تصلح له حتى يذوق من عسيلتك) .

وقد جاء عبد الرحمن إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ومعه ابنان له من امرأة أخرى فسأله — صلى الله عليه وسلم — بنوك هؤلاء ؟ فأجاب نعم ، وهنا جاء رده — صلى الله عليه وسلم — على المرأة ردا قويا عنيفا قائلا : (هذا الذى تزعمين ما تزعمين) فقال : (تزعمين) إشارة إلى أنه زعم ، وأنه ليس من وادى الصدق واليقين ، وعبر باسم الموصول مرتين تفضيحا لقولها ، واستهجانا بالتصريح بما ادعته

على زوجها من العنة ، فدعواها تعنى أن ما مع زوجها من الأولاد أبناء سفاح من غيره .

ثم قال : — صلى الله عليه وسلم (فوالله لهم أشبه به من الغراب بالغراب) مصدرا الجملة بأسلوب القسم زيادة توكيد لكذبها ورفض دعواها ، وجملة القسم بنيت هكذا ردا للدعوى بالدليل ، وآية ذلك أننا لو حذفنا هذا الكلام وعبرنا بقولنا : والله إن أولاده لأقوى شبيها به لفسد المعنى ، ولكنه عبر بما عبر به دفعا لدعواها بكل قوة ، حيث لاشبه أقوى من شبه الغراب بالغراب .

القسم فى مقام تطيب نفس المخاطب

" عن جابر بن عبد الله — رضى الله عنه — أن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — جاء يوم الخندق بعدما غربت الشمس جعل يسب كفار قريش ، وقال : يا رسول الله ما كدت أن أصلى حتى كادت الشمس أن تغرب ، قال النبى : — صلى الله عليه وسلم — والله ما صليتها فترلنا مع النبى — صلى الله عليه وسلم — بطحان فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها ، فصلى العصر بعدما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب" (١)

قوله : — صلى الله عليه وسلم " والله ما صليتها " المقصود من سوق أسلوب القسم هنا تطيب نفس عمر — رضى الله عنه — يقول النووى : — رحمه الله " وإنما حلف النبى — صلى الله عليه وسلم — تطيباً لقلب عمر — رضى الله عنه — فإنه شق عليه تأخير صلاة العصر إلى قريب من المغرب فأخبره النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه لم يصلها بعد ليكون لعمر به أسوة ، ولا يشق عليه ما جرى ، وتطيب نفسه ، وأكد ذلك الخبر باليمين" (٢)

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الآذان باب قول الرجل ما صليتا وكتاب الجمعة باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو ، وكتاب مواقيت الصلاة باب من صلى بالناس جماعة بعد ذهاب الوقت وكتاب المغازى باب غزوة الخندق ورواه مسلم فى صحيحه كتاب الصلاة باب من فاتته صلوات كيف يقضيها ؟

(٢) شرح صحيح مسلم للنووى ٣ / ١٤٢ .

أرأيت كيف ألقى القسم ببرده على قلب عمر — رضى الله عنه — وكيف تبدل حزنه وانزاح أسفه مما حدث رغما عنه دون أن يقصد إليه ، ولا أجمل من أسلوب القسم في هذا الموقع ولو جاء أسلوب سواه لما كان له من الأثر في تطيب قلب عمر ما للقسم ، إذ قطع القسم على عمر — رضى الله عنه كل سبيل إلى التعلق بالحزن وكان المقسم عليه " والله ما صليتها " بالنفى وجاء المفعول به ضميرا حتى يندفع كل احتمال أن يكون المقصود صلاة أخرى سوى التي فعلت بعمر تلك الأفاعيل ، وحملته على سب كفار قريش إظهارا لغضبه وإبداء لحزنه .

" عن سعيد بن المسيب عن أبيه أنه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، فقال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يعرضها عليه ، ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب ، وأبي أن يقول لا إله إلا الله ، فقال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك ، فأنزل الله — عز وجل (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربي من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) (التوبة /

(١١٣) وأنزل الله — تعالى — في أبي طالب فقال لرسول الله — صلى الله عليه وسلم (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) (القصص / ٥٦) (١)

قوله : — صلى الله عليه وسلم " أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك " المقصود من سوق أسلوب القسم هنا تأكيد عزم الرسول — صلى الله عليه وسلم — على الاستغفار تطيباً لنفس عمه أبي طالب (٢) ولأسلوب القسم موقع لطيف حيث إن الرسول — صلى الله عليه وسلم — ألح على استنطاق عمه الشهادة عند الموت كما وضع سياق الحديث ، (فلم يزل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يعرضها عليه ، ويعيد له تلك المقالة)

وقد كان هذا منه — صلى الله عليه وسلم — حرصاً شديداً على نجاة عمه ورغبة في دخوله الجنة ، ولكن هذا الحرص من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ووجه بإباء ورفض من عمه وكانت النتيجة أن آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب (فكان هذا داعياً لغضب الرسول — صلى الله عليه وسلم — ولكن كلامه تجاه هذا الموقف جاء على غير المتوقع بأسلوب القسم المفيد تأكيد عزمه على الاستغفار ؛

(١) رواه البخارى في صحيحه كتاب الجنائز باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله ورواه أيضاً في كتاب تفسير القرآن باب قوله تعالى : إنك لا تهدي من أحببت ، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب قول الله — تعالى — إنك لا تهدي من أحببت .
(٢) شرح صحيح مسلم للنووى ١ / ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

تطيباً لنفس عمه الذى كانت له يد بيضاء فى حمايته والذود عنه ، وأمر ذلك فى الدعوة معروف مشهور فلقد كان حاميه وقت شدة حاجته إلى الحماية .

بل إن عناصر القسم أفادت كلها تأكيد عزمه على الاستغفار وهى : أما^(١) ولفظ الجلالة ولام التوكيد والفعل الملحق به نون التوكيد الثقيلة ، وكل هذا مما يناسب الموقف الراض لما يدعو إليه عمه ، وأقوال المحيطين بعمه وأزه أزا شديدا على أن يبقى على ملتهم ، وقد كان معتمدتهم فى تحريضه على البقاء هو تذكيره بعملة والده عبد المطلب .

" عن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : خرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ذات يوم أو ليلة ، فإذا هو بأبي بكر وعمر ، فقال : ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟ قالوا : الجوع يا رسول الله ، قال : وأنا والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما ، قوموا فقاموا معه ، فأتى رجلا من الأنصار فإذا هو ليس فى بيته ، فلما رآته المرأة قالت : مرحبا وأهلا ، فقال لها رسول الله : — صلى الله عليه —

(١) يقول النووى قال ابن الشجرى فى الأملى : ما الزيدة للتوكيد ركبوها مع همزة الاستفهام ، واستعملوا مجموعها على وجهين : أحدهما أن يراد به معنى حقا فى قولهم : أما والله لأفعلن ، والآخر أن يكون افتتاحا للكلام بمترلة ألا كقولك : أما إن زيدا منطلق ، وأكثر ما تحذف ألفها إذا وقع بعدها القسم ليدلوا على شدة اتصال الثانى بالأول لأن الكلمة إذا بقيت على حرف واحد لم تقم بنفسها فعلم بحذف ألف ما افتقارها إلى الاتصال بالهمزة شرح صحيح مسلم للنووى ١ / ٢٤٧ .

وسلم — أين فلان ؟ قالت : ذهب يستعذب لنا الماء إذ جاء الأنصارى ، فنظر إلى رسول الله وصاحبيه ، ثم قال : الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافا منى ، قال : فانطلق فجاء بعدق فيه بسر وتمر ورطب ، فقال : كلوا من هذه وأخذ المدينة ، فقال له رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — إياك والخلوب فذبح لهم فأكلوا من الشاة ، ومن ذلك العذق وشربوا ، فلما أن شبعوا ورووا ، قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — لأبي بكر وعمر ، والذى نفسى بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم " (١)

قوله : — صلى الله عليه وسلم — وأنا والذى نفسى بيده لأخرجن الذى أخرجكما " الغرض من القسم هنا إظهار التسلية والتصير ، وهو مستوحى من كلام محيى الدين النووى حيث يقول : " قوله : — صلى الله عليه وسلم (وأنا والذى نفسى بيده لأخرجن الذى أخرجكما) فيه جواز ذكر الإنسان ما يناله من ألم ونحوه لا على سبيل التشكى وعدم الرضا للتسلية والتصير كفعله — صلى الله عليه وسلم — هنا ولا لتماس

(١) رواه مسلم فى صحيحه كتاب الأشربة باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك ويتحققه تحققا تاما .

دعاء أو مساعدة على التسبب في إزالة ذلك العارض ، فهذا كله ليس بمذموم ، إنما يذم ما كان تشكيا وتسخطا وتجزعا " (١)

وزيادة في إظهار التسلية والتصبر جاء بناء جملة جواب القسم (لأخرجني الذي أخرجكما) بتعريف المسند إليه بالموصولية ، ولم يقل مثلاً : أخرجني الجوع بالعلمية إichاء بتمام تماثل مقدار الدافع للخروج عند النبي وصاحبيه ، ولو قال : أخرجني الجوع لما أفاد اتحاد مستوى الدافع فالجوع درجات متفاوتة .

وفي قوله : — صلى الله عليه وسلم — " والذي نفسى بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة " الغرض من القسم هنا التأكيد على شكر النعم ، وقد بين العلماء نوع هذا السؤال يقول النووي : " وأما السؤال عن هذا النعيم ، فقال القاضى عياض : المراد السؤال عن القيام بحق شكره ، والذي نعتقده أن السؤال هنا سؤال تعداد النعم ، وإعلام بالامتنان بها ، وإظهار الكرامة بإسباغها ، لاسؤال توبيخ وتقريع ومحاسبة والله أعلم " (٢)

ويقول الإمام القرطبي : " قول النبي (لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة) أى سؤال عرض لاسؤال مناقشة ، وسؤال إظهار التفضل والمنن

(١) شرح صحيح مسلم للنووى ٧ / ٢٣٧ .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووى ٧ / ٢٣٨ .

لا سؤالاً يقتضى المعاتبة والمحن . . . وإنما قال النبي : — صلى الله عليه وسلم — هذا استخراجا للشكر على النعم وتعظيما لذلك " (١)
وهذا اغتنام للفرص لتخون الصحابة بالموعظة المقترنة بفعل أحسوا
أثره لتوهم ؛ لذا جاء باسم الإشارة زيادة تعيين للنعمة التي جنوها لتوهم
، وضعا للنفس في حال مقارنة بين حالتها حين الجوع وحالتها حين
الشبع .

عن خباب بن الأرت — رضى الله عنه — قال : شكونا إلى رسول
الله — صلى الله عليه وسلم — وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة قلنا
له : ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو الله لنا ، قال : كان الرجل فيمن قبلكم
يحفر له في الأرض ، فيجعل فيه ، فيجاء بالمنشار ، فيوضع على رأسه ،
فيشق باثنتين ، وما يصده ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما
دون لحمه من عظم أو عصب ، وما يصده ذلك عن دينه ، والله كَيِّمٌ
هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا
الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون " (٢)

(١) المفهم للقرطبي ٥ / ٣٠٧ .

(٢) رواه البخارى في صحيحه كتاب الإكراه باب من اختار الضرب والقتل والهوان على
الكفر ، وكتاب المناقب باب علامات النبوة وباب ما لقى النبي وأصحابه من المشركين
بعكة .

قوله : "والله لَيُتِمَّنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون" المقصود من سوق أسلوب القسم هنا التسلية والتصير وتطبيب النفس ، وقد ساق — صلى الله عليه وسلم — تسليته لأصحابه في إطار تبشيرهم بتمام أمر الإسلام وشيوعه.

وقد اشتمل المقسم عليه على عناصر تسير في اتجاه التسلية والتصير نفسه ، وأول ما يلقانا من ذلك قوله (ليتمن) فلم يقل : والله لتصرن ، وإنما عبر عن النصر بتمام الدين وشيوعه في وقت كانوا فيه مستضعفين أذلاء ، لا يطمحون إلى غير صرف الأذى عنهم .

وقد جاءت (حتى) بعد ذلك لتؤكد على تمام هذا الأمر (حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت . . .) فقد ذكر في ابتداء الغاية وانتهائها مكانين ينتشر فيهما دين غير دين الإسلام ، وحضارة قوية ، فوق أهما في أقصى الجزيرة ، وهما من البعد عن مكة بمكان ، وكلها دلالات على غلبة هذا الدين كل الديانات وانتصاره على كل الحضارات ، وكل ذلك مما يشجع المسلمين على تحمل الأذى ويقوى صبرهم على ذلك.

وقد ساعد الأسلوب بين يدي جملة القسم على أداء المقصود من التسلية والتصير بذكر أحوال المعذيين من قبل في سبيل الحق (كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض ، فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع

على رأسه ، فيشق باثنتين ، وما يصده ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم إلى عصب ، وما يصده ذلك عن دينه (وهاتان صورتان لتعذيب البشر للبشر من أبشع ما يكون ، ولذلك أثر بالغ في التسلية والتصير ، وكأن لسان الحال يقول : هل ما أنتم فيه يعد شيئاً إذا قيس بحال من قبلكم ؟ ففيه تموين وتصغير لما يشتكى منه المسلمون بجانب ما لاقى غيرهم ، فالصبر على تحمل المكاره هو دين كل مستمسك بدينه لئلا يُلحق بالحق في شتى الأعصار والأمصار .

عن أبي سعيد الخدري — رضى الله عنه — أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ (قل هو الله أحد) يرددّها ، فلما أصبح جاء إلى رسول — صلى الله عليه وسلم — فذكر ذلك له ، وكأن الرجل يتقأها ، فقال رسول الله: — صلى الله عليه وسلم — والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن ^(١)

الرجل السامع هو أبو سعيد الخدري ، والرجل القارئ هو قتادة بن النعمان ، ومعنى قوله : كأن الرجل يتقأها ، أى: يعد أنها قليلة ، والمراد استقلال قراءته لا التنقيص ^(٢) وقول الراوى كأن الرجل يتقأها ، وصف منه لحال من خاطبه — صلى الله عليه وسلم — بأسلوب القسم ، وهو

(١) أخرجه البخارى في صحيحه كتاب التوحيد باب ما جاء في دعاء النبى — صلى الله عليه وسلم — أمته إلى توحيد الله ، وأخرجه أيضاً في كتاب فضائل القرآن باب فضل قل هو الله أحد . وكتاب الأيمان والنذور باب كيف كانت يمين النبى .

(٢) عمدة القارى ٣٣/٢٠

وصف يفسر لنا المقام الذى ورد فيه أسلوب القسم ، يقول أبو الحسن القابسى : " لعل الرجل الذى بات يرددها كانت منتهى حفظه ، فجاء يقلل عمله ، فقال له سيدنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — (إنها لتعدل ثلث القرآن) ترغيبا له فى عمل الخير ، وإن قل ، والله — عز وجل — أن يجازى عبده على اليسير بأفضل مما يجازى الكثير " (١)

فالمقصود من سوق أسلوب القسم تطيب نفس المخاطب ، ولقد اختار الرسول — صلى الله عليه وسلم — لأداء هذا المقصد أسلوب القسم ، زيادة تطيب لنفسه ، وقد جاء مستقل عمله ، لذا جاء جواب القسم كاشفا عن فضل السورة الكريمة ، ومؤكدا بأن واسمية الجملة واللام تزيلا له منزلة المنكر ، وكأنه باستقلاله ذاك بمثابة من ينكر فضل السورة ، ولهذا أثر بالغ فى تطيب نفسه ، وتعظيم عمله ، ويتضح هذا إذا ما حذفنا ما جاء فى الرواية ، وقلنا مثلا : إن ثوابها لعظيم ، أو عرينا الأسلوب من التوكيدات التى وردت فيه ، ما من ريب أن المعنى ينطفئ ، ولا يكون له الأثر ذاته فى تطيب نفس من عمل جهده واستقل عمله ، فوق أن مجئ تطيب النفس بأسلوب القسم وما فى الجواب من التوكيدات وبيان فضل السورة من جملة الكتاب العزيز ، إن مجئ الأسلوب بهذه الهيئة يفيد أنه لا يجوز له أن يستقل عمله ذاك ولا يجوز لغيره بالأولى أن يستقل ذلك ، وإلا انسحب استقلال العمل إلى استقلال المعمول به ، وأى فضل فوق

(١) عمدة القارى ٢٠ / ٣٣

أن تعدل ثلث القرآن بغض النظر عن تأويل العلماء معنى أنها تعدل ثلث القرآن كما أورده العيني (١) ولكل ذلك أثر بالغ في إزالة حالة الحزن التي سيطرت على الرجل وحملته إلى الشكاية إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — أن أناسا من الأنصار قالوا يوم حنين حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء ، فطفق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يعطى رجالا من قريش المائة من الإبل ، فقالوا يغفر الله لرسول الله ، يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ، قال أنس : فحدث ذلك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من قولهم فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من آدم ، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : ما حديث بلغني عنكم ؟ فقال له فقهاء الأنصار أما ذوو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئا ، وأما أناس منا حديثه أسنانهم ، قالوا : يغفر الله لرسوله ، يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فإني أعطى رجالا حديثي عهد بكفر أتألفهم ، أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال ، وترجعوا إلى رجالكم برسول الله ؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به ، فقالوا :

(١) ينظر عمدة القارى ٣٣ / ٢٠

بلى يا رسول الله قد رضينا ، قال : فإنكم ستجدون أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله فإنى على الحوض ، قالوا سنصبر " (١) قوله : — صلى الله عليه وسلم — فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به " ، المقصود من القسم هنا تطيب أنفس الأنصار الذين ملأ بعضهم الحزن أن أعطى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قريشا وتركهم ، يقول الراوى : فطفق رسول الله يعطى رجالا من قريش المائة من الإبل ، فقالوا يغفر الله لرسول الله يعطى قريشا وسيوفنا تقطر من دمائهم .

وقد بين لهم الرسول — صلى الله عليه وسلم — الحكمة من وراء فعله ذاك (إن أعطى رجالا حديثى عهد بكفر أتألفهم) ووراء هذا التعبير بشارة لهم بأنهم على الإيمان الحق الذى لا يحتاجون معه إلى تأليف قلوب ، كما أن فيه تطيبا لهم بكشف أن إعطائه قريشا لا تكمن وراءه محبة ولا تفضيل لهم على الأنصار ، وإنما يكمن وراءه شئ آخر لو أعطى الأنصار على وجهه لكرهوا ذلك أشد الكره .

ثم استفهم الرسول — صلى الله عليه وسلم — هذا الاستفهام (أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون إلى رجالكم برسول الله ؟) وقد جاء هذا الاستفهام مقدمة وتمهيدا لجملة القسم ، وقد بين — صلى الله عليه وسلم — جملة الجواب باسم الموصول (ما) الذى يفيد التفخيم

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب فرض الخمس باب ما كان النبى يعطى المؤلفة قلوبهم ، وكتاب المغازى باب غزوة الطائف فى شوال ، ورواه مسلم فى صحيحه كتاب الزكاة باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام .

والتعظيم ، وجاء خبره أفعل تفضيل ، وكل ذلك مما يطيب أنفسهم بما رجعوا به من الخير وما رجع به المؤلفه من المتاع الزائل ، وقد ختم الحديث أيضا بما يدلهم على ما سينالونه من البلاء في الإسلام ، وأن الصبر على ذلك من جزائه ملاقة الرسول — صلى الله عليه وسلم — على الحوض ، لذا كان جوابهم (سنصبر)

عن عمرو بن تغلب أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أتى بمال أو سبي فقسمه فأعطى رجالا وترك رجالا ، فبلغه أن الذين ترك عَتَبُوا ، فحمد الله ثم أثنى عليه ، ثم قال : أما بعد : فوالله إني لأعطي الرجل وأدع الرجل ، والذي أدع أحب إلى من الذي أعطى ، ولكن أعطى أقواما لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع ، وأكل أقواما إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير فيهم عمرو بن تغلب ، فوالله ما أحب أن لي بكلمة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حمر النعم" (١)

المقصود من القسم الذي جرى على لسانه — صلى الله عليه وسلم — فيما يبدو — تطيب نفس هؤلاء الذين تركهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولم يعطهم ، وذلك بيان سبب العطاء والمنع (ولكن أعطى أقواما لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع ، وأكل أقواما لما في قلوبهم من الغنى والخير) فقد كشفت هذه الجملة عن السبب الحقيقي

(١) رواه البخارى في صحيحه كتاب الجمعة باب من قال في الخطبة بعد الثناء أما بعد

وراء عدم عطائهم ، فدلّت الجملة الأولى بالمفهوم على مدحهم لأنه إذا ما وصف المعطون بالجزع والهلوع فهذا بالضرورة نفى للوصف عن الممنوعين ، وفي ذلك تطيب للخاطر ، ثم أتبع ذلك بالتصريح بمدحهم بأن قلوبهم عامرة بالخير والغنى ، وفي هذا تصعيد لتطيب أنفسهم ، ومما زاد من تطيب النفس أن ذلك كله جاء في حيز القسم لأن ما جاء بعد ذلك تابع له ، وفي ذلك من تطيب النفس ما فيه لما يكثره أسلوب القسم من وفرة التوكيد .

ولعل مما يدل على أن ذلك وقع من أنفس المخاطبين موقعا طيبا ما جاء على لسان عمرو بن تغلب راوى الحديث (فوالله ما أحب أن لى بكلمة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حمر النعم) ومن أبرع المناسبة في التعبير عن تمام الرضا أنه عبر عن ذلك بأسلوب القسم في تقابل رائع مع أسلوب القسم الذى جاء على لسانه الشريف — صلى الله عليه وسلم .

فى مقام تعظيم الطاعات والحث عليها

" عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله : —
 صلى الله عليه وسلم — قال الله : كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه
 لى وأنا أجزى به والصيام جنة ، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث
 ولا يصخب فإن سابه أحد أو قاتله فليقل : إني امرؤ صائم ، والذى
نفس محمد بيده خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك
 للصائم فرحتان يفرحهما إذا فطر فرح ، وإذا لقي ربه فرح بصومه " ^(١)

قوله : " والذى نفس محمد بيده خلوف فم الصائم أطيب عند الله
 من ريح المسك " المقصود من القسم تعظيم فضل الصوم ، والحث عليه والتأكيد على منزلته
 .

ولقد سلك البيان الشريف مسلكا بديعا إذ جاء الجواب (خلوف
 فم الصائم . . .) بما تكرهه النفوس من الأثر المتخلف عن الصوم ،
 وجعله مفضلا على أطيب أنواع الرياح (المسك) وفى هذا إعلاء لمزلة
 الصائم ومكانته ، لأنه إذا ما كان الخلوف بهذه المزلة عند الله ، فما البال
 بحال من صدر منه هذا الخلوف عند الله — عز وعلا .

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الصوم باب فضل الصوم وباب هل يقول : إني صائم
 إذا شتم ، ورواه مسلم فى صحيحه كتاب الصوم باب فضل الصوم .

وذلك نمط من بيان الميزة عجيب ، كأن تقول لأحد : ووالله لقتار قدرك أحب إلى من لحوم إبل غيرك ، وذلك سبيل معروف في العلو بميزة الشيء بمدح أدناه تنبيها على مكانة أعلاه .

وقد وجه العلماء إسناد استطابة الخلوف إلى الله — سبحانه وتعالى — يقول الأبي : " قال المازري : استطابة الريح من صفة الحيوان الذى له طبع يميل به إلى الشيء فيستطيه أو ينفر به عنه فيستقذره ، ويتقدس الله — سبحانه — عن ذلك فنسبة الاستطابة إليه مجاز واستعارة ، ولما جرت العادة فينا بتقريب الروائح الطيبة منا استعير للصوم لتقريبه من الله — تعالى .

وقال القاضى عياض : قيل معناه أن الله — سبحانه — يثيبه في الآخرة حتى تكون له رائحة أطيب من ريح المسك ، وقيل معناه : ينال صاحبها من الثواب ما هو أفضل من ريح المسك عندنا ، وقيل المعنى : هى أطيب عند ملائكة الله — تعالى — من ريح المسك ، وإن كانت عندنا بضد ذلك ، وقال الداودى : المعنى أن الله يثيب عليها ما لا يثيب على رائحة المسك إذا طيب به للصلاة في يوم الجمعة " (١)

والذى أطمئن إليه أن هذا التعبير أريد به الكناية عن القبول والقرب تعظيما لميزة الصائم عند ربه بطريق أبلغ ، لما للمتطيب بالمسك من حب

(١) شرح صحيح مسلم للإمام الأبي ٣ / ٢٦٦ .

اقترب الناس منه مسا لطيبه ، وميولا إلى الأطيب دائما ، وقد قرب ذلك إلى الناس بما يعرفونه .

عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — عن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : والذى نفسى بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره — أو قال لأخيه — ما يحب لنفسه " (١)

المقصود من القسم تعظيم حق الجار ، والحث عليه ، وتعظيم أمره ، وقد عد هذا الحديث من جوامع كلمه — صلى الله عليه وسلم — وبناء جملة جواب القسم بجملة القصر له معان لطيفة ، فهو من قصر الصفة على الموصوف ؛ لأن حتى الناصبة بمعنى إلا عند طائفة ، فهو فى معنى لا يؤمن إلا من يحب ، والظاهر أنه قصر قلب ردا على من يتوهم أن من لم يحصل له تلك الصفة مؤمن لكنه بمعنى الكامل (٢)

وقد عبر — صلى الله عليه وسلم — بيحب ، ولم يقل مثلا : يفعل ، لأن المحبة هى السبب الأقوى فى الحمل على الفعل ؛ لأن من أحب شيئا حبا صادقا لا يصدده شئ عن فعله (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله . . .) (آل عمران / ٣١) فكأنه — صلى الله عليه وسلم — أرشد إلى ضابط الفعل ، والحامل عليه على وجه العموم إلا لعارض ، وأيضا التعبير بيحب أحسن من التعبير بفعل لأن ذكر الفعل لا يغنى عن المحبة ؛

(١) رواه مسلم فى صحيحه كتاب الإيمان باب بيان تحريم إيذاء الجار

(٢) شرح صحيح مسلم للسنوسى ١/ ١٥٠

لأنه قد يفعل تكرها ، ولامثال الأمر خاصة ، وهو على الوجه قد يوجب أشد البغض ، أو يزيد فيه ، فيؤدى إلى خلاف المقصود ، بخلاف المحبة فإنها تغنى عن الفعل لحصوله معها ، مع حصول المقصود من الألفة والتواد بين المؤمنين على أكمل وجه ، و أيضا الفعل أشق على النفس من المحبة ، فكان التصريح باشتراطه فى الإيمان يوجب النفرة عنه ، فبه طبيب الأطباء وحكيم الحكماء على ما يحصل المقصود وتقبله النفوس ، وأيضا الفعل لا يحسن أن يعد ضابطا لأنه كثيرا ما يفعل الإنسان بنفسه أمورا يكرهاها لاسترقاق نفسه له ، وأسر شهوته إياه أو لغير ذلك من الإكراه ونحوه بخلاف المحبة ، فإنها مطردة منضبطة (١)

وفى قوله (ما يحب) حذف أى مثل ما يحب ، فالكلام على حذف مضاف ، ولو لم يقدر ذلك لأدى إلى معنى أن المرء لا يحب لنفسه شيئا ، إذ الذى يحب لنفسه شيئا هو بعينه الذى يحب لغيره ، وذلك لا يصح أن يكون لهما لاستحالة كون الشيء الواحد فى الوقت الواحد فى محلين فتعين صرفه لأخيه (٢)

وعبر — صلى الله عليه وسلم — بالنفس لأنها أعز شئ على الإنسان (٣) فبناء جملة القسم يتأزر على بيان حق الجار وتعظيم هذا الحق كما مضى بيانه .

(١) شرح صحيح مسلم للستوسى ١/ ١٥٠

(٢) السابق ١/ ١٤٨

(٣) السابق ١/ ١٤٨

عن أبي هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : فوالذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده (١)

المقصود من القسم هنا تعظيم حب الرسول — صلى الله عليه وسلم — وتوكيده والحث عليه ، وقد عد هذا الحديث من جوامع كلمه — صلى الله عليه وسلم — إذ أقسام المحبة ثلاثة : محبة إجلال وإعظام كمحبة الوالد ، ومحبة رحمة وإشفاق كمحبة الولد ، ومحبة مشاكلة واستحسان كمحبة الناس بعضهم بعضا (٢)، فجمع — عليه السلام — ذلك كله .

وجملة جواب القسم (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده) قوله (لا يؤمن) هل المقصود من النفى هنا نفى أصل الإيمان ، أم نفى كمال الإيمان ؟ يقول العيني : قوله (لا يؤمن) أى إيماننا كاملا " (٣)

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الإيمان باب حب الرسول — صلى الله عليه وسلم — من الإيمان .

(٢) كما ورد فى رواية أخرى للحديث : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين .

(٣) عمدة القارى ١ / ١٤٤

ويقول السنوسى : " قال ابن بزيرة : إن لم يرد فى الحديث نفى كمال الإيمان ، بل نفى أصله أفلسنا منه إفلاس المملق ، وفضل الله — تعالى — بأبى ذلك " (١)

والمراد بالحب فى قوله (حتى أكون أحب إليه) الحب العقلى الاختيارى ، يقول العيني : " المحبة أمر طبيعى غريزى لا يدخل تحت الاختيار ، فكيف يكون مكلفا بما لا يطاق عادة ؟ وأجيب بأنه لم يرد به حب الطبع ، بل حب الاختيار المستند إلى الإيمان ، فمعناه : لا يؤمن حتى يؤثر رضائى على هوى الوالدين ، وإن كان فيه هلاكهما " (٢)

ويقول السنوسى : " لم يرد هنا الحب الطبيعى التابع شهوة النفس فإن محبة النفس والولد والمعشوق طبعاً أشد من غيرها ، وليس هذا الحب اختيارياً يؤاخذ به ، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، بل المراد الحب العقلى الاختيارى ، هو إثارة ما يقتضى العقل رجحانه ، وإن خالف الطبع كالدواء يكره طبعاً ويميل إليه العقل لصلاحه ، والعاقل يعلم أن خير الدنيا والآخرة اتباع الرسول ، وأنه أشفق عليه من نفسه والناس كلهم ، فيرجح جانبه على كل مخلوق ، ولا يتم الإيمان إلا بهذا ، وكمالاً أن يتبع عقله حتى يكون الرسول — صلى الله عليه وسلم — أحب إليه عقلاً وطبعاً ، ونحو هذا سلك الخطابى " (٣)

(١) شرح صحيح مسلم للسنوسى ١٤٦/١

(٢) عمدة القارى ١٤٥/١

(٣) شرح صحيح مسلم للسنوسى ١٤٦/١ .

وفى قوله (حتى أكون أحب إليه من والده وولده) يتبادر إلى الذهن سؤال هو : لم لم يذكر نفس الرجل ، وإنما يجب أن يكون الرسول — صلى الله عليه وسلم — أحب إليه من نفسه ؟ قال : — تعالى — (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم . . .) (الأحزاب / ٦) وقد أجاب العيني — رحمه الله — عن ذلك بقوله : " إنما خصص الوالد والولد بالذكر لكونهما أعز خلق الله — تعالى — على الرجل غالباً ، وربما يكونان أعز من نفس الرجل على الرجل ، فذكرهما إنما هو على سبيل التمثيل ، فكأنه قال : حتى أكون أحب إليه من أعزته ، ويعلم منه حكم غير الأعزّة ؛ لأنه يلزم في غيرهم بالطريق الأولى ، أو اكتفى بما ذكر في سائر النصوص الدالة على وجوب كونه أحب إليه من نفسه أيضاً كالرواية التي بعده " (١)

وهنا سؤال آخر : هل يتناول لفظ الوالد الأم ، كما أن لفظ الولد يتناول الذكر والأنثى ؟ وأجيب بأن " الوالد إما أن يراد به ذات له ولد ، وإما أن يكون بمعنى ذو ولد ، نحو لابن وتامر فيتناولهما ، وإما أن يكتفى بأحد الضدين عن الآخر قال : — تعالى (سراييل تقيكم الحر) (النحل / ٨١) وإما أن يكون حكمه حكم النفس في كونه معلوماً من النصوص الأخر " (٢)

(١) عمدة القارى ١/١٤٤

(٢) عمدة القارى ١/١٤٤ ، ١٤٥ .

وقد يقال : ما وجه تقديم الوالد على الولد ؟ وأجيب بأن ذلك للأكثرية لأن كل أحد له والد من غير عكس ، ويرى العين أن الأولى أن يقال : إنما قدم ههنا الوالد نظرا إلى جانب التعظيم ، وقدم الولد على الوالد في حديث أنس في رواية النسائي ؛ نظرا إلى جانب الشفقة والترحم " (١)

المهم أن القسم يتوفر على إبراز حب الرسول — صلى الله عليه وسلم — ومكان ذلك من الدين ، والحديث كله عبارة عن أسلوب قسم ، وفيما ذكره العلماء كفاية .

عن أبي هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : والذى نفسى بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من يأتي رجلا فيسأله أعطاه أو منعه " (٢)

المقصود من القسم هنا الحض على التعفف عن المسألة والتتره عنها ، ولو امتنهن المرء نفسه في طلب الرزق ، وتحشم المشقة في سبيل ذلك ، والحديث كله عبارة عن القسم وجوابه ، وقد جاء جواب القسم ذاكرة أشق الوسائل في تحصيل الرزق ، وجعلها أفضل من المسألة ، وكان أسلوب التفضيل خير وسيلة للتعبير عن ذلك (خير له من أن يأتي رجلا فيسأله . . .) ومما ضاعف من تبغيض المسألة في مقابل مدح المجاهدة في

(١) عمدة القارى ١/١٤٥ .

(٢) رواه البخارى في صحيحه كتاب الزكاة باب الاستعفاف عن المسألة .

طلب العيش قوله : — صلى الله عليه وسلم (أعطاه أو منعه) وهو أسلوب يبين عيب المسألة ، إذ أحوال المسؤول في الغالب لا تخرج عن حالين إما عطاء مع من وأذى ، وإما منع وفيه مذلة وخيبة ، وكل ذلك مما يضاعف من تبغيض المسألة ، والحض على الاجتهاد في طلب العيش .

عن سهل بن سعد — رضى الله عنه — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم —

قال : لأعطين الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه ، قال : فبات الناس يدوكون^(١) ليلتهم أيهم يعطاها ؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال : أين على بن أبي طالب ؟ فقالوا : يشتكى عينيه يا رسول الله ، قال : فأرسلوا إليه فأتوني به ، فلما جاء بصق في عينيه ، ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاها الراية ، فقال على : يا رسول الله : أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال : انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم " ^(٢)

في الحديث الشريف أسلوبا قسم أولهما (لأعطين الراية . . .) إلا أن المقسم به قد حذف ، وفي حذفه مسارعة إلى إلهاب أنفس المخاطبين لتمنى أن يكون هو ذاك الذى يفتح الله على يديه ، وهو المناسب للمقصد من أسلوب القسم ، وهو التشويق إلى الحصول على هذا المنصب .

(١) يدوكون : يخوضون ويختلفون ينظر اللسان والوسيط مادة (دوك)

(٢) رواه البخارى في صحيحه كتاب المناقب باب مناقب على بن أبي طالب ، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل باب فضائل على بن أبي طالب — رضى الله عنه

أما الأسلوب الثاني فالمقصد منه فيما يبدو الحث على الدعوة ، وقد مهد الرسول — صلى الله عليه وسلم — لأسلوب القسم بجملتين إنشائيتين (ادعهم إلى الإسلام) (أخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه) وفي ذلك تنبيه إلى استخدام الحكمة والموعظة الحسنة والصبر والتأني في الدعوة إلى الله ، ثم جاء أسلوب بعد ذلك ذروة الحث على الدعوة إلى الله وإخلاص النية في ذلك لما له من عظيم الأجر ، وقد جاء جواب القسم مبنيًا على أسلوب التفضيل حيث جعل ثمرة من ثمار الدعوة راجحة أثمن ما عرفته العرب حينئذ (حمر النعم) ومما ضاعف من الحث على هذا والترغيب فيه النص على العدد (رجلا واحدا) هذا شأن الواحد من الرجال ، فما شأن قوم بأسرهم ؟ ! وفي ذلك من تعظيم شأن الدعوة ما فيه ، والإلهاب على القيام بها وتحمل المشاق في سبيل الحصول على أجرها .

وما أجمل قول القرطبي " النعم الحمر هي أحسن أموال العرب يضربون بها المثل في نفاسة الشيء ، وليس عندهم شيء أعظم منها ، ويريد — صلى الله عليه وسلم — بالخيرية هنا أن ثواب تعليم رجل واحد وإرشاده للخير أعظم من ثواب هذه الإبل النفيسة لو كانت لك فتصدقت بها ، لأن ثواب تلك الصدقة ينقطع بموتها ، وثواب العلم

والهدى لا ينقطع إلى يوم القيامة كما قال : — صلى الله عليه وسلم —
 إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث فذكر منها علم ينتفع به " (١)
 عن البراء بن عازب — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله
 — صلى الله عليه وسلم — كيف تقولون بفرح رجل انفلتت منه
 راحلته تجر ذمامها بأرض قفر ليس بها طعام ولا شراب ، وعليها له
 طعام وشراب ، فطلبها حتى شق عليه ، ثم مرت بجذل شجرة فتعلق
 زمامها فوجدها متعلقة به ؟ قلنا : شديدا يا رسول الله ! فقال رسول
 الله : — صلى الله عليه وسلم — أما والله أشد فرحا بتوبة عبده من
الرجل براحلته " (٢)

المقصود من أسلوب القسم هنا الحض على التوبة ، وتعظيم شأنها ،
 وقد سلك البيان النبوى إلى بيان هذا المقصود سبيلا رائعا ، فيه من
 التشويق و ضرب المثل من الواقع ما لا يجعل العاصى يتردد فى التوبة إلى
 ربه والإسراع فى ذلك ، وقد جاء بمثل أيضا من واقع حياتهم ، وقد
 تكاثرت الحمل التى تبين شأن هذا الرجل مع راحلته التى انفلتت ، وذكر
 المكان الذى وقع فيه هذا الانفلات بوصف يصور قهر الطبيعة عليه ،
 وافتقاد أسباب الحياة فهى أرض قفر لا طعام فيها ولا شراب ، وراحلته
 نددت وعليها الطعام والشراب مما يصور لك أن حياته هى التى انفلتت ،

(١) المفهم ٢٧٦/٦ .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه كتاب التوبة باب فى الحض على التوبة والفرح بها .

وليس الأمر أمر راحلة ، وإنما الأمر أمر حياة ، فقد انفلتت منه حياته ، فكيف نتصور نحن رجلا سحبت منه حياته سحبا ، أى حالة تلك التى يعيشها ؟ ثم صور الحديث الشريف شدة حاجته تلك ، وشدة لهفته ، ولنتأمل هذا الحرف (حتى) وما يطويه من المشاق وإرهاق النفس فى سبيل الحصول على المطلوب ، ثم لنتأمل حالته بعد كل هذا وقد وجد راحلته التى هى حياته ، لذا جاء جواب الصحابة مبنيا على الإيجاز الشديد (قلنا : شديدا) أى قلنا يفرح فرحا شديدا ، وكأن طريقة العرض هذه جعلتهم يتوجهون بالكلية نحو الصفة ، لأنه لم يعنهم ذكر المسند ولا المسند إليه ، وكأن العرض لحالة هذا الرجل جذبهم جذبا نحو الجواب ، وهم البلغاء الفصحاء أسرهم البيان فأتوا ببيان أسر ، ولنتأمل موقع القسم من بعد ذلك ، إنه جاء مبنيا على ما مضى من فرح من انفلتت راحلة . وقد جاء بأسلوب القسم مسبقا بـ (أما) زيادة فى تنبيه النفس ، ثم جاء جواب القسم مؤكدا باللام واسمية الجملة ، وجاءت أفعل التفضيل لتعلى شأن فرح الله بتوبة عبده على ما مضى مما لا يشك فى شدة فرحه ، وكل ذلك ينعكس على تعظيم شأن التوبة والحث عليها ، والتعبير بالفرح يعنى غاية الإقبال وتمام الرضا .

وللعلماء كلام فى نسبة الفرح لله — تعالى حيث ذكروا أنه محال على الله لأن الفرح " اهتزاز وطرب يجده الإنسان من نفسه عند ظفـره بغرض يستكمل به الإنسان نقصانه ، ويسد به خلته ، أو يدفع به عن

نفسه ضررا أو نقصا ، وكل ذلك محال على الله — تعالى — فإنه الكامل بذاته الغنى بوجوده الذى لا يلحقه نقص ولا قصور ، لكن هذا الفرح عندنا له ثمرة وفائدة ، وهو الإقبال على الشئ المفروح به ، وإحلاله المحل الأعلى ، وهذا هو الذى يصح فى حقه — تعالى — فعبر عن ثمرة الفرح بالفرح على طريقة العرب فى تسميتها الشئ باسم ما جاوره أو كان منه بسبب ، وذلك القانون جار فى كل ما أطلقه الله — تعالى — على نفسه من الصفات التى لا تليق به كالغضب والرضا وغير ذلك " (١)

(١) المفهم ٧٢/٧ .

في مقام البشارة

عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول الله : — عز وجل — يا آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، والخير في يديك ، قال : يقول : اخرج بعث النار ، قال : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين قال : فذاك حين يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ، قال : فاشتد ذلك عليهم ، قالوا : يا رسول الله أينما ذلك الرجل ؟ فقال : أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفا ، ومنكم رجل ، قال : ثم قال : والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا ربع أهل الجنة ، فحمدنا الله وكبرنا ، ثم قال : والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة ، فحمدنا الله وكبرنا ، ثم قال : والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود أو كالرَّقْمَة في ذراع الحمار " (١)

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء باب قصة ياجوج ومأجوج وكتاب الرقاق باب قوله — عز وجل — إن زلزلة الساعة ورواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب كون هذه الأمة نصف

المقصود من الأقسام هنا التأكيد على البشارة التي ساقها النبي — صلى الله عليه وسلم — لأصحابه ، وقد وقعت البشارة من نفس أصحابه موقعا حسنا فحمدوا وكبروا ، وقد جاء الجواب مؤكداً بأن واللام واسمية الجملة ، وقد عبر — صلى الله عليه وسلم — أولاً بالربيع ثم بالثلث ثم بالشرط ، ولم يقل : شطر أهل الجنة لفائدة حسنة ، وهي أن ذلك أوقع في نفوسهم وأبلغ في إكرامهم ، فإن إعطاء الإنسان مرة بعد أخرى دليل على الاعتناء به ، ودوام ملاحظته ، وفيه فائدة أخرى : هي تكرير البشارة مرة بعد أخرى ، وفيه أيضاً حملهم على تحديد شكر الله — تعالى — وتكبيره وحمده على كثرة نعمه (١)

وقد عبر — صلى الله عليه وسلم — بالطمع (إني لأطمع) مع أن هذه الطماعية قد حققت له بقوله — تعالى (ولسوف يعطيك ربك فترضى) (الضحى / ٥) أدبا مع الحضرة الإلهية ووقوفا مع أحكام العبودية (٢)

ويرى السنوسى أن التعبير بالرجاء — كما جاء في رواية أخرى أرجو بدل أطمع — لئلا يتكل الناس (٣)

أهل الجنة ، والرقمة : هنة ناتئة تشبه الظفر في ذراع الدابة من داخل وهما رقمتان في الذراعين أو نقطة سوداء كالدرهم ينظر الوسيط مادة (ر ق م)

(١) شرح صحيح مسلم للنووى ٩٨/١ وعمدة القارى ٢٣٩ / ١٥

(٢) المفهم للقرطبي ٤٧٢ / ١

(٣) شرح صحيح مسلم للإمام السنوسى ٣٨٣ / ١

وقد جاء التعبير بالقسم بما يحمله من طاقات التوكيد مناسبة المقام وملائما الحال ، فقد اشتد على الصحابة ما قاله لهم النبي — صلى الله عليه وسلم — عن أهوال يوم القيامة ، وعن عدد أهل النار ، فأراد الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن يطمئنهم ، فساق لهم البشارة في ثوب القسم تأكيدا لوقوعها .

وما من ريب أن سوق البشارة عارية عن أسلوب القسم لا يكون لها الأثر ذاته إذا ما سيقّت مع أسلوب القسم الذى أضفى على نفس المخاطبين سحابات من الطمأنينة

عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : جاءت هند بنت عتبة إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — فقالت : يا رسول الله والله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلى من أن يذّهم الله من أهل خبائك ، وما على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلى من أن يعزهم الله من أهل خبائك ، فقال النبي — صلى الله عليه وسلم — وأيا والذى نفسى بيده ، ثم قالت : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل ممسك فهل على حرج أن أنفق على عياله من ماله بغير إذنه ؟ فقال النبي — صلى الله عليه وسلم — لا حرج عليك أن تنفق عليهم بالمعروف " (١)

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب المناقب باب ذكر هند بنت عتبة وكتاب الأحكام باب من رأى للقاضى أن يحكم بعلمه فى أمر الناس وكتاب الأيمان والنذور باب كيف كانت يمين النبي ورواه مسلم فى صحيحه كتاب الأقضية باب قضية هند .

قول هند " والله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلى من أن يذلهم الله من أهل خبائك ، وما على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلى من أن يعزهم الله من أهل خبائك " هذا القول وصف من هند لحالها في الكفر ، وما كانت عليه من بغض رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وبغض أهل بيته ، وما آلت إليه حالها لما أسلمت ، وهذا تذكر لنعمة الله عليها بما أنقذها الله منه ، وبما أوصلها إليه ، وتعظيم لحرمة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولتنبسط فيما تريد أن تسأل عنه ، ولتنزول آلام القلوب لما كان منها يوم أحد في شأن حمزة وغير ذلك " (١)

ويعد هذا بمثابة براعة استهلال لذكر حاجتها بين يدي رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وإنما ذكرت أسلوب القسم في مستهل حديثها تأكيداً للدلالة على صدق حديثها ، لأن الشأن في كل كافر أن يبغض رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فلم تكن هناك حاجة إلى القسم إلا تأكيد صدقها في الحديث قبل ذكر حاجتها ، وذلك مما يعطى انطباعاً قوياً عن صدقها فإذا ما ذكرت حاجتها بعد ذلك وبخل زوجها انجر هذا الانطباع إلى ما تريد .

(١) المفهم للقرطبي ١٥٩ / ٥

قد أرادت بأهل الخباء نفسه — صلى الله عليه وسلم — ولكنها كنت بذلك ؛ لأنها أكبرت أن تخاطبه بذلك لما فيه (١)، ويحتمل أن تريد بأهل الخباء أهل بيته ، والخباء يعبر به عن مسكن الرجل وداره " (٢) ولما وصفت هند حالها وما كانت عليه ، وما آلت إليه بشرها المصطفى — صلى الله عليه وسلم — بأنها ستزداد حبا له ، وسيتمكن الإيمان من قلبها ، وساق البشرى ملفعة بأسلوب القسم تؤكد لها قائلا (وأيضا والذى نفسى بيده) أى : " وأيضا وستزيدن فى ذلك ، ويتمكن الإيمان فى قلبك فيزيد حبك لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — ويقوى رجوعك عن بغضه ، وقيل معناه : وأنا أيضا بالنسبة إليك مثل ذلك ، والأول أولى ، بيان ذلك من جهة طرف الحب والبغض ، فقد كان فى المشركين من هو أشد أذى للنبي — صلى الله عليه وسلم — من هند وأهلها ، وكان فى المسلمين بعد أن أسلمت من هو أحب إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — منها ومن أهلها ، فلا يمكن حمل الخبر على ظاهره " (٣) فللقسم أثر بالغ هنا فى تأكيد البشارة .

(١) كذا قال الشراح ، ولعل المقصود بقولهم ما فيه أى ما فيه من سوء الأدب بحضرة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لاسيما أنها بدأت حديثها بذكر البغض الشديد لهم قبل الإسلام ، ولعل الشراح لم يصرحوا بهذا اعتمادا على فهم القارئ وتأديبا مع الصحابة الأخيار .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووى ٢٤٩/٦ وشرح صحيح مسلم للأبى والسنوسى ١٢/٥ .

(٣) عمدة القارى ٢٨٤/١٦ .

القسم فى مقام الزجر والمنع

عن المسور بن مخرمة أن على بن أبى طالب خطب بنت أبى جهل ، وعنده فاطمة بنت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فلما سمعت بذلك فاطمة أتت النبى — صلى الله عليه وسلم — فقالت له : إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك ، وهذا على ناكح بنت أبى جهل ، قال المسور : فقام النبى — صلى الله عليه وسلم — فسمعتة حين تشهد ثم قال : أما بعد فإنى أنكحت أبا العاص بن الربيع فحدثنى فصدقنى ، وإن فاطمة بنت محمد مضغة منى ، وإنما أكره أن يفتنوها ، وإنما والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبدا ، قال : فترك على الخطبة " (١)

قوله : — صلى الله عليه وسلم — " وإنما والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبدا " المقصود من القسم هنا تأكيد منع الجمع بين بنت رسول الله وبنت عدو الله (٢) وقد اصطفى — صلى الله عليه وسلم — ألفاظ جملة جواب القسم ليزداد المنع تأكيدا على تأكيد ، حيث قال : — صلى الله عليه وسلم — لا تجتمع بنت رسول الله وبنت

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب المناقب باب ذكر أصحاب النبى — صلى الله عليه وسلم — منهم أبو العاص بن الربيع ، ورواه مسلم فى صحيحه كتاب فضائل الصحابة باب فضائل فاطمة .

(٢) استمها جويرية ، وقيل جميلة وقيل العوراء عمدة القارى ١٦ / ٢٣٠ .

عدو الله " ولم يقل مثلاً : لا تجتمع بنتى وبنت أبى جهل ، وإنما عبر برسول الله الذى هو أحب الناس إلى الله ، وعبر بعدو الله الذى هو من أبغض الناس إلى الله ، وهذا مما يقوى المنع ، ثم أنهى كلامه بالتأييد (أبدا) وهذا يعنى أن هذا الأمر ليس خاضعا للنقاش ولا الحوار ، ومعلوم أن الأمر كان خاصا باجتماعهما عند على ، ولكن مع هذا قال : عند رجل واحد زيادة فى التأكيد ، وبياناً لامتناع ذلك لعلى وسواه من أصحابه — صلى الله عليه وسلم — كما أن فى التعبير ببنت رسول الله وبنت عدو الله إلهاباً لعلى ولغيره من أصحابه — صلى الله عليه وسلم — وإلا فقد فضلوا عدو الله على حبيب الله وهذا مما لا يمكن أن يطرأ لأحد من الصحابة على بال ، ولا يمر على خاطر أحدهم ، وقد مهد للقسم بجملة أبانت عن مكانة فاطمة — رضى الله عنها — عند والدها (فاطمة بنت محمد مضغة منى) أى أن من أذاها فقد أذى رسول الله نفسه ، وأى الناس يقدر على ذلك ؟ وأى الناس يقدر على مضغ جزء من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ؟ وكل ذلك تمهيد جيد للقسم ، وجاءت جملة أخرى كشفت عن علة امتناع ذلك (وإنما أكره أن يفتنوها)

" عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : جاء ثلاثة رهط (١) إلى بيوت أزواج النبي — صلى الله عليه وسلم — يسألون عن عبادة النبي — صلى الله عليه وسلم — فلما أخبروا كأنهم تقالوها ،

(١) هم على بن أبى طالب وعبد الله بن عمرو بن العاص وعثمان بن مظعون ينظر العمدة ٢٠ / ٦٥ .

فقالوا : وأين نحن من النبي — صلى الله عليه وسلم ؟ قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبدا ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر " أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا ، فجاء رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله واتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني " (١)

قوله : — صلى الله عليه وسلم " أما والله إني لأخشاكم لله واتقاكم له " المقصود من سوق أسلوب القسم هنا تغيير المخاطبين عما هم عليه من الاعتقاد والعمل ، وترغيبهم في الاتباع والاقتداء بهديه — صلى الله عليه وسلم — والتأكيد على أنهم على خطأ .

ولقد جاء أسلوب القسم هنا مناسبا للمقام ، إذ المخاطبون كانوا على اعتقاد أن استغراق الأزمان بالعبادات أولى ، وكان اعتقادهم هو الأولى عندهم من فعله — صلى الله عليه وسلم — وحجتهم في ذلك أنهم ليسوا كالنبي إذ غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فكانوا في ذلك كالمنكرين لفعله — صلى الله عليه وسلم — فجئ لهم بأسلوب يشاكل حالهم من الإنكار ، حشدت فيه التوكيدات (أما ولفظ الجلالة وإن واللام واسمية الجملة) تناسبا مع حالهم ومع ما يفهمه كلامهم من عدم

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح .

اقتناعهم بمقالة الرسول — صلى الله عليه وسلم — استنادا إلى حجتهم تلك التي ذكروها ، فجاء القسم ملها لهم لترك ما هم عليه من تعنية أنفسهم بالعبادة ثم إن الاستمسك بالشئ ، والتعلق به لا يجعل إزاحته من قلب المستمسك به أمرا هينا ، فناسب هذا التعلق والاستمسك أسلوب القسم لقوته ووفرة توكيده وصدوره من الرسول — صلى الله عليه وسلم — عن عائشة — رضى الله عنها — أن النبي — صلى الله عليه — وسلم — دخل عليها وعندها امرأة ، قال : من هذه ؟ قالت : فلانة — تذكر من صلاحها — قال : مه ، عليكم من العمل بمل تطيقون ، فوالله لا يعمل الله حتى تملوا وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه " (١) قوله: — صلى الله عليه وسلم — " فوالله لا يعمل الله حتى تملوا " يرشد — صلى الله عليه وسلم — أمته إلى ما يصلحهم ، وهو ما يمكنهم الدوام عليه بلا مشقة ، لأن النفس تكون فيه أنشط ، ويحصل منه مقصود الأعمال ، وهو الحضور فيها والدوام عليها بخلاف من تعاطى من الأعمال ما يشق ، فإنه يصدد أن يتركه أو بعضه أو يفعل به بكلفة وبغير انشراح القلب ، فيفوته خير عظيم ، وقد ذم — سبحانه وتعالى — من التزم فعل البر ثم قطعه بقوله (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها) (الحديد / ٢٧)

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الإيمان باب أحب الدين إلى الله أدومه وراه مسلم فى صحيحه كتاب الصلاة باب أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل ، وكتاب صلاة المسافرين باب أمر من نعى فى صلاته .

وقد جاء أسلوب القسم هنا لتأكيد مقصوده — صلى الله عليه وسلم — وهو الزجر عن التشديد والغلو ، وفي جملة جواب القسم (لا يمل الله حتى تملوا) أسند الملل إليه — سبحانه وتعالى — وهو محال في حقه فلا بد من تأويل ، وفي ذلك يقول العيني : " الملل لا يجوز على الله — تعالى — ولا يدخل تحت صفاته ، لأنه ترك الشئ استثقالا ، وكرهية له بعد حرص ومحبة فيه ، وهو من صفات المخلوق فلا بد من تأويل ، واختلف العلماء فيه ، فقال الخطابي : معناه أنه لا يترك الثواب على العمل ما لم يترك العمل ، وذلك أن من مل شيئا تركه ، فكفى عن الترك بالملل ، الذى هو سبب الترك ، وقال ابن قتيبة : معناه أنه لا يمل إذا مللت ، قال : ومثاله قولهم فى البليغ : فلان لا ينقطع حتى تنقطع خصومته ، معناه : لا ينقطع إذا انقطعت خصومته ، ولو لم يكن له فضل على غيره ، وقال بعضهم : معناه أن الله لا يتناهى حقه عليكم فى الطاعة حتى يتناهى جهدكم قبل ذلك فلا تكلفوا ما لا تطيقون من العمل كفى بالملل عنه ، لأن من تناهت قوته عن أمر وعجز عن فعله مله وتركه ، وقال التيمي : معناه أن الله لا يمل أبدا مللت أنتم أو لم تملوا نحو قولهم : لا أكلمك حتى يشيب الغراب ، ولا يصح التشبيه لأن شيب الغراب ليس ممكنا عادة بخلاف ملل العباد ، وحكى الماوردى أن حتى هنا بمعنى حين أو بمعنى أو ، وهذا ضعيف جدا" (١)

(١) عمدة القارى ١ / ٢٥٧ .

وفى قوله : " لا يمل الله حتى تملوا " مشاكلة وازداج ، وهو أن يكون إحدى اللفظتين موافقة للأخرى ، وإن خالفت معناها كقوله — تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) (الشورى / ٤٠) وقوله : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) (البقرة / ١٩٤) (١) ويرى السنوسى فيه وجهين آخرين ، فقد ذكر أنه يجوز أن يكون من باب الاستعارة التبعية ، أى لا يعرض عنكم إعراض الملل ، ولا ينقص ثواب عملكم ما بقى لكم نشاط فإذا فترتم فاقعدوا فإنكم إذا مللتم عن العبادة ، وأتيتم بها على كلال أو فتور كان معاملة الله لكم حينئذ معاملة الملل ، ويجوز أن يجعل من باب المجاز المرسل من باب تسمية المسبب باسم السبب سمي قطع الثواب أو نقصه مللا باسم سببه الواقع من العاملين وهو الكلال والملل للعمال " (٢)

وأسلوب القسم المفيد للتوكيد هنا هو أنسب الأساليب لأن المتشدد فى العبادة يوقن أنه على جادة الصواب وسيلة وغاية ، والمناسب لمخاطب كهذا هو الإتيان بأسلوب يحمل من التوكيد والدلالة ما يرفع هذا اليقين الذى استقر عنده ، إذ القسم يأتى فى عظام الأمور ، ومعنى هذا أن المتشدد فى العبادة ارتكب عزيمة من العظام ، إذ يعتقد ضد ما يلقي إليه من التحذير من المغالاة والتنفير من التشديد على النفس فى الطاعة .

(١) عمدة القارى ١ / ٢٥٧ .

(٢) شرح صحيح مسلم للسنوسى ٢ / ٤٠٤ ، ٤٠٥ .

عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يصلى فى رمضان ، فجئت فقممت إلى جنبه ، وجاء رجل آخر فقام أيضا حتى كنا رهطا ، فلما حس النبى — صلى الله عليه وسلم — أنا خلفه جعل يتجوّز فى الصلاة ، ثم دخل رحله ، فصلى صلاة لا يصليها عندنا ، قال : قلنا له حين أصبحنا : أفطنت لنا الليلة ؟ قال : فقال : نعم ذاك الذى حملنى على الذى صنعت ، قال : فأخذ يواصل — صلى الله عليه وسلم — وذاك فى آخر الشهر ، فأخذ رجال من أصحابه يواصلون ، فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — ما بال رجال يواصلون إنكم لستم مثلى؟ أما والله لو تمادى الشهر لواصلت وصالا يدع المتعمقون تعمقهم ^(١)

المقصود من أسلوب القسم الزجر والمنع لهؤلاء الذين واصلوا مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهذا لما يترتب على واصلهم من مفسد من ملل فى العبادة ، وتعرض للتقصير فى بعض وظائف الدين من إتمام للصلاة بخشوعها وأذكارها وآدابها وملازمة للأذكار ، وسائر الوظائف المشروعة فى نهار رمضان وليله .

وساعد أسلوب القسم فى أداء المقصود هذا الوصف الذى وصف به من واصل مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فلم يقل المصطفى : — صلى الله عليه وسلم — يدع الواصلون واصلهم ، بل قال : يدع

(١) رواه مسلم فى صحيحه كتاب الصوم باب النهى عن الوصال فى الصوم

المتعمقون تعمقهم ، ولهذا أثر بالغ في إلهابهم للإقلاع عما هم عليه ، إذ المتعبدون لله على هذا النحو من الاجتهاد ، لا يقبلون بحال البقاء على وصف يذمون عليه .

يقول القاضى عياض : " هم الذين لكلامهم غور وبعد مرام ، وأصل العمق : البعد ، ومنه بئر عميق أى بعيدة القعر ، وبلد عميق أى بعيد ، والحاصل أنهم أهل التأويل البعيد المتشددون في الأمر من قول أو فعل " (١) وأسلوبه — صلى الله عليه وسلم — وإن كان ظاهره الزجر والمنع ، فإن باطنه الرحمة والرفق ، فما نهاهم — صلى الله عليه وسلم — عن الوصال إلا رحمة بهم ، وشفقة عليهم ، لئلا يتكلفوا ما يشق عليهم ، يدل عليه ما في رواية عائشة (نهاهم النبي — صلى الله عليه وسلم — عن الوصال رحمة بهم .

عن المغيرة بن شعبة — قال : — قال سعد بن عباد : لو رأيت رجلا مع امرأتى لضربتة بالسيف غير مصفح عنه ، فبلغ ذلك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : أتعجبون من غيرة سعد ؟ فوالله لأنا أغير منه ، والله أغير منى ، من أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا شخص أغير من الله ، ولا شخص أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك بعث الله المرسلين مبشرين ومنذرين

(١) شرح صحيح مسلم للإمام الأبي والسنوسى عليه ٣ / ٢٣٥ .

ولا شخص أحب إليه المدحة من الله ، من أجل ذلك وعد الله الجنة
" (١)

المقصود من أسلوب القسم هنا الردع والزجر لسعد بن عباد —
رضي الله عنه — عن الإقدام على قتل من وجده مع امرأته ، فقد كان —
رضي الله عنه — غير متقبل لحكم الشرع فيمن وجد مع امرأته رجلا ،
وهو الإتيان بأربعة شهداء كما جاء في رواية أخرى عن أبي هريرة : "
قال سعد بن عباد لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — لو وجدت مع
أهلي رجلا لم أمسه حتى آتي بأربعة شهداء ؟ فقال رسول الله — صلى
الله عليه وسلم — نعم ، قال : كلا والذي بعثك بالحق ، إن كنت
لأعاجله بالسيف قبل ذلك ، قال : — صلى الله عليه وسلم — اسمعوا إلى
ما يقول سيدكم إنه لغيور ، وأنا أغير منه ، والله أغير مني "
يقول الإمام الطيبي في شرحه لقول سعد " كلا والذي بعثك بالحق إن
كنت لأعاجله بالسيف قبل ذلك " يقول : " إن رسول الله — صلى الله
عليه وسلم — لما تلقى سؤاله بقوله : نعم على الأسلوب الحكيم ،
وأجرى إنكاره مجرى الاستفسار بين بقوله : كلا ، أي : ما أردت
الاستفسار بل الإنكار " (٢)

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الحدود باب من رأى مع امرأته رجلا فقتله وكتاب التوحيد باب
قول النبي لا شخص أغير من الله ورواه مسلم في صحيحه كتاب اللعان أول الكتاب .
(٢) شرح السنوسي ١٤٩/٤ هذا هو رأى الإمام الطيبي ، وإن كان الماوردى وغيره يرى أن قول سعد
ليس ردا لقول النبي — صلى الله عليه وسلم — ولا مخالفة من سعد بن عباد لأمره — صلى الله عليه

فالمناسب للمنكر (وهو سعد) الذى أكد إنكاره بأسلوب القسم (كلا والذى بعثك بالحق) أن يخاطب بأسلوب على شاكلة أسلوبه ، فجاء بأسلوب القسم الذى يحمل من طاقات التوكيد ما يكون رادعا له ، كما جاء فى رواية المغيرة بن شعبة التى نحن بصدد شرحها : أتعجبون من غيرة سعد ؟ فوالله لأنا أغير منه ، والله أغير منى .

ونلاحظ مجئ جملة جواب القسم اسمية مؤكدة باللام تأكيدا لثبوت واستمرار غيرة الله ورسوله ، وقد ساعد الأسلوب بعد فى أداء المقصود من ردع سيدنا سعد — رضى الله عنه — عما ينوى فعله ، وحمله على تقبل الحكم الشرعى ، حيث قال : — صلى الله عليه وسلم — ولاشخص أغير من الله ، ولاشخص أحب إليه العذر من الله . . . ، ولا شخص أحب إليه المدحة من الله يقول الإمام القرطبي : " قال بعض أهل المعاني : إنما قال النبی — صلى الله عليه وسلم — لا أحد أغير من الله ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله منبها سعدا — رضى الله عنه — ورادعا له عن الإقدام على قتل من وجدته مع امرأته ، فكأنه قال : إذا كان الله مع شدة غيرته يحب الإعذار ، ولم يؤاخذ أحدا إلا بعد إنهاء الإعذار ، فكيف تقدم على قتل من وجدته على تلك الحال ؟ ثم قال : وذكره المدح مقرونا مع ذكر الغيرة والإعذار تنبيه لسعد على ألا يعمل غيرته ،

وسلم — وإنما معناه الإخبار عن حالة الإنسان عند رؤيته الرجل عند امرأته واستيلاء الغضب عليه ، فإنه حينئذ يعاجله بالسيف ، وإن كان عاصيا ، ينظر شرح النووى ٣٩١/٥ .

ولا يعجل بمقتضاها ، بل يتأنى ويترفق ، ويتثبت حتى يحصل على وجه الصواب من ذلك ، وعلى كمال الشاء والمدح بالتأنى والرفق والصبر وإيثار الحق ، وقمع النفس عند هيجانها ، وغلبتها عند منازلتها " (١)

عن أبي ברزة الأسلمي قال: بينما جارية على ناقة ، عليها بعض متاع القوم إذ بصُرت بالنبي — صلى الله عليه وسلم — وتضايق بهم الجبل ، فقالت : حلّ حلّ اللهم عنها ، قال : فقال النبي : — صلى الله عليه وسلم — لا . أيم الله لا تصاحبنا راحلة عليها لعنة من الله " (٢)

قوله : — صلى الله عليه وسلم — لا . أيم الله لا تصاحبنا راحلة عليها لعنة من الله ، قوله : (لا) أى : لا تلغنيها ، فحذفت جملة تلغنيها ، وبقيت (لا) دلالة عليها ، وكأن بناء الجملة يتجه للنهي ، وحذفت جملة (اللعن) من اللفظ اتساقا مع غرضه — صلى الله عليه وسلم — من النهي عن اللعن .

ثم جاءت جملة القسم بعد جملة النهي زيادة في الزجر والتأديب ، وقد جاء جواب القسم (لا تصاحبنا) بلا النافية الداخلة على فعل مضارع ، وهذا إخراج للإنشاء مخرج الخبر ، فأصل التعبير (لا تصاحبنا) بلا الناهية ، وهذا يدل على تعلق عدم مصاحبة الناقة الملعونة بنفس رسول

(١) المفهم للقرطبي ٣٠٦/٤ .

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب باب النهي عن لعن الدواب وغيرها ، وحل كلمة زجر للإبل واستحاثات يقال : حل حل يأسكان اللام فيهما ، ويقال أيضا حلّ حلّ بكسر اللام فيهما بالتثنية وبغير تنوين . المفهم للقرطبي ٥٨١/٦ .

الله — صلى الله عليه وسلم — حتى صارت بمثابة الشيء يخبر عنه ، وقد ذكر البلاغيون كلاما طيبا في مثل هذا الأسلوب ، حيث قالوا إن استعمال هذا الأسلوب يكشف عن رغبة المتكلم في تحقيق الطلب (١)

(١) ينظر شروح التلخيص ٢/ ٣٣٨ : ٣٤٠ .

القسم في مقام مواجهة الشك والإنكار

" عن أبي بكرة أن الأقرع بن حابس جاء إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : إنما بايعك سراق الحجيج من أسلم وغفار ومزينة — وأحسب جهينة — فقال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — أرأيت إن كان أسلم وغفار ومزينة — وأحسب جهينة — خيرا من بنى تميم و بنى عامر وأسد و غطفان أخابوا وخسروا ؟ فقال : نعم ، قال : فوالذى نفسى بيده إنهم لأخير منهم " (١)

قوله : — صلى الله عليه وسلم " فوالذى نفسى بيده إنهم لأخير منهم " ورد هذا القول منه — صلى الله عليه وسلم — ردا على الأقرع بن حابس ، الذى احتقر هذه القبائل بعد إسلامها ، وتمسك بفخر الجاهلية وطغيانها فرد عليه — صلى الله عليه وسلم — بأسلوب القسم وأكد الجواب بمؤكدات عدة (إن واللام واسمية الجملة) كل هذا تلاؤما مع حال المخاطب ألا تراه قال : إنما بايعك سراق الحجيج من أسلم وغفار ومزينة؟ فطعن عليهم طعنا شديدا ، وأورد طعنه هذا بأسلوب القصر ، وبإنما التى وضعت " على أن تجئ لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته " (٢)

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب المناقب باب ذكر أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع ، ورواه مسلم فى صحيحه كتاب الفضائل باب من فضائل غفار وأسلم وجهينة .

(٢) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ٣٣٠ تحقيق محمود محمد شاكر نشر الخانجي .

وذكر صفة لانتحاج جدلا حول الخط من قدر الموصوف بها (سراق الحجيج) إذ لأفجر من ذلك الذى يسرق عابدا خرج فى سبيل الله ، وهذا السياق هو الذى يفسر لنا حال المخاطب بأسلوب القسم ، ولو جئ بأسلوب آخر ما لاءم حال المخاطب هذا .

وقد جاء القسم ناسفا ما اعتقده المخاطب ، وجاء الجواب بأفعل التفضيل بعدما قرر الرسول — صلى الله عليه وسلم — الأقرع بن حابس بأسماء القبائل التى لا يطعن فى خيريتها ، ثم بنى على تقريره ذاك أسلوب القسم وأفعل التفضيل زيادة توكيد لخيريتهم بالإسلام ، ودفعنا لأى مقياس غير الإسلام فى تفضيل بعض الناس على بعض ، وكان لذلك أثره البالغ فى دفع معتقد الأقرع بن حابس فيهم وكل من يذهب مذهبه .

عن حنظلة الأسيدى قال : لقينى أبو بكر ، فقال : كيف أنت يا حنظلة ؟ قال : قلت : نافق حنظلة ، قال : سبحان الله ! ما تقول ؟ قال : قلت : نكون عند رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يذكرنا بالنار والجنة حتى كأننا رأى عين ، فإذا خرجنا من عند رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عافسنا الأزواج والأولاد والضيعة فنسينا كثيرا ، قال أبو بكر : فوالله إنا لنلقى مثل هذا فانطلقت أنا و أبو بكر ، حتى دخلنا على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قلت : نافق حنظلة يا رسول الله ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وما ذاك ؟ قلت : يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأننا

رأى عين ، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات
 نسينا كثيرا ، فقال رسول الله : — والذى نفسى بيده لو تدومون على
ما تكونون عندي ، وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى
طرقكم ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات " (١)

قوله : — صلى الله عليه وسلم " والذى نفسى بيده لو تدومون
على ما تكونون عندي وفى الذكر لصافحتكم الملائكة (المقصود من

القسم هنا التأكيد على عدم نفاق حنظلة الأسيدى — رضى الله عنه —
 حيث كان يحصل له الخوف فى مجلس النبى — صلى الله عليه وسلم —
 ويظهر عليه ذلك مع المراقبة والفكر ، والإقبال على الآخرة ، فإذا خرج
 اشتغل بالزوجة والأولاد ومعاش الدنيا ، فخاف أن يكون ذلك نفاقا ،
 فأعلم النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه ليس بنفاق ، وأنه لا يكلف
 الدوام على ذلك .

وقد بنيت جملة جواب القسم بلو التى تدل على امتناع لا امتناع ،
 وفى جملة الشرط عطف قوله (وفى الذكر) على خبر كان " وهذا يفيد
 تعلق وقوع الجواب بأمرين : رؤية الجنة والنار (لو تدومون على ما
 تكونون عندي) ودوام الذكر (وفى الذكر) فيعنى — والله تعالى أعلم

(١) رواه مسلم فى صحيحه كتاب التوبة باب فضل دوام الذكر والفكر فى أمور الآخرة والمراقبة وجواز
 ترك ذلك فى بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا ، ومعنى قول حنظلة عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات
 أى تقارس ذلك واشتغل به وفى المعجم الوسيط عافس الأمور معافسة وعفاسا : مارسها وزاولها (الوسيط
 مادة ع ف س) .

— أن التمكن إنما هو أن يشاهد الأمور كلها بالله — تعالى — فإذا شاهد الجنة لم يحجبه ما شاهد من حسناتها ونعيمها عن رؤية الله — تعالى — بل لا يلتفت إليها من حيث هي جنة ، بل من حيث أنها محل القرب من الله — تعالى — ومحل رؤيته ، ومن كان كذلك ناسب الملائكة في معرفتها ، فبادرت إلى إكرامه وإعظامه ومصافحته ومهابته" (١)

وبين الشرط وجوابه تناسب من حيث إن تعاطى دوام الذكر وعدم الفترة خاصة الملائكة ، وقد عبر عن دوام مصافحة الملائكة لمن داوم على الذكر وعلى الحضور بأسلوب الكناية بقوله : على فرشكم وفي طرقكم . يقول السنوسي : يريد به الديمومة أى فى حالتى فراغكم وشغلكم وفى زمانى تهاركم وليلكم " (٢) وقد قوّض — صلى الله عليه وسلم — ما اتهم به سيدنا حنظلة نفسه من النفاق بـ : —

١ — أسلوب القسم وجوابه " والذى نفسى بيده لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة " والذى يفيد أنهم لا يكلفون الدوام على ذلك .

٢ — أسلوب الاستدراك المقرر لفعل حنظلة : ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ، ومن ثم ناداه باسمه تنبيهاً على أنه كان ثابتاً على الطريق المستقيم وما نافق قط " (٣)

(١) المفهم للقرطبي ٦٨ / ٧ .

(٢) شرح السنوسي على مسلم ١٥٦ / ٧ .

(٣) شرح السنوسي على مسلم ١٥٦ / ٧ .

٣ — تكرار أسلوب الاستدراك تأكيدا لتأثير القول حتى يزيل بذلك عن
 حنظلة — رضى الله عنه — ما اهتم به نفسه من النفاق " (١)
 عن عبد الله بن عمر — رضى الله عنهما — قال بعث النبي —
 صلى الله عليه وسلم — بعثا وأمر عليهم أسامة بن زيد ، فطعن بعض
 الناس في إمارته ، فقال النبي : — صلى الله عليه وسلم — إن تطعنوا
 في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل وأيم الله إن كان
لخليقا للإمارة ، وإن كان لمن أحب الناس إلى ، وإن هذا أحب الناس
 إلى بعده " (٢)

قوله : — صلى الله عليه وسلم " وأيم الله إن كان لخليقا للإمارة ،
 وإن كان لمن أحب الناس إلى ، وإن هذا لمن أحب الناس إلى بعده "
 المقصود من القسم هنا التأكيد على استحقاق أسامة بن زيد وأبيه الإمارة
 من قبل ، وقد جاء القسم مناسبا للمقام الذى قيل ، إذ جاء في مواجهة
 منكرين بل طا عنين ، وذلك لما يحمله من طاقات التوكيد ، وإثبات
 عكس ما يعتقد المخاطب .

وقد جاءت جملتان عقب جملة القسم يضاعفان من التوكيد على
 استحقاق أسامة وأبيه الإمارة (وإن كان لمن أحب الناس إلى ، وإن هذا

(١) شرح السنوسى على مسلم ٧ / ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٢) رواه البخارى في صحيحه كتاب المغازى باب بعث النبي أسامة بن زيد في مرضه الذى توفى فيه
 وكتاب الأيمان والنذور باب قول النبي : وأيم الله وكتاب الأحكام باب من لم يكثر بطعن من لا يعلم في
 الأمراء حديثا ورواه مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة باب فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد

لمن أحب الناس إلى بعده) فقد أثبتت هاتان الجملتان أنهما من أحب الناس لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — وذلك مما يضع الطاعنين على إمرتها موضعاً حرجاً ، إذ صار الطاعنون في مقام الكاره لما يحبه رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

وقد عالج الأسلوب هنا عادة متأصلة عند العرب من عدم جواز إمرة العتيق ، وتقديمه على العرب .

عن أبي طلحة — رضى الله عنه — أن نبي الله — صلى الله عليه وسلم — أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقتلوا في طَوًى من أطواء بدر خبيث مخبث ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال ، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشُدَّ عليها رحلها ، ثم مشى واتبعه أصحابه ، وقالوا ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته حتى قام على شفة الرَكِيّ فجعل يناديهم بأسمائهم ، وأسماء آبائهم يا فلان ابن فلان ، ويا فلان ابن فلان أيسرکم أنکم أطعتم الله ورسوله ؟ فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قال : فقال عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ؟ فقال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم " (١)

(١) رواه البخارى في صحيحه كتاب المغازى باب قتل أبي جهل ورواه مسلم في صحيحه كتاب ذكر الموت وما بعده باب ما جاء أن الميت ليسمع ما يقال (والطَوًى) وهى البئر المطوية بالحجارة ويجمع على

قوله : " والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم " المقصود من سوق أسلوب القسم هنا التأكيد على أن الأموات يسمعون كلام الأحياء ، وتظهر فائدة أسلوب القسم بالنظر في حال المخاطب به — سيدنا عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — حيث أنكر متعجبا على الرسول — صلى الله عليه وسلم — تكليمه القتلى من أهل بدر ، وقد خرج الاستفهام الذى جرى على لسانه — رضى الله عنه — من الاستفهام الحقيقى إلى الاستفهام المجازى لقصد الإنكار (ما تكلم من أجساد لا أرواح لها) .

وإنما ذكر هذا القيد (من أجساد لا أرواح لها) بعد الاستفهام الإنكارى التعجيبى إمعانا فى الإنكار وتعليلا له ؛ لذا جاء أسلوب القسم مثبتا عكس ما يعتقد عمر — رضى الله عنه — وجاء الجواب بما النافية ، وزيدت الباء فى الخبر الذى جاء أفعل تفضيل ، كل ذلك زيادة فى توكيد سماع قتلى بدر لكلامه — صلى الله عليه وسلم — وهذا شأن السمعيات دائما فى الحاجة إلى التوكيد بوسائل شتى ، لعدم وقوعها تحت الحس ، فقد جاء أسلوب القسم مناسبا حال المخاطب ، وقد قوبل الإنكار بالتوكيد نفيا لما أنكر وإثباتا لعكسه .

أطواء (والركى) وهو البئر قبل أن تطوى ، فإن قلت بين قوله (فى طوى) وقوله (الركى) منافاة قلت : لا منافاة لأنها كانت مطوية ثم استهدمت فصارت كالركى (عمدة القارى ١٧ / ٩٢)

عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : أقبل نبي الله — صلى الله عليه وسلم — إلى المدينة وهو مردف أبا بكر ، وأبو بكر شيخ يعرف ، ونبي الله — صلى الله عليه وسلم — شاب لا يعرف ، قال : فيلقى الرجل أبا بكر ، فيقول : يا أبا بكر من هذا الرجل الذى بين يديك ؟ فيقول : هذا الرجل يهدينى السبيل ، قال : فيحسب الحاسب أنه إنما يعنى الطريق ، وإنما يعنى سبيل الخير ، فالتفت أبو بكر فإذا هو بفارس قد لحقهم ، فقال : يا رسول الله هذا فارس قد لحق بنا ، فالتفت نبي الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : اللهم اصرعه ، فصرعه الفرس ، ثم قامت تحمحم ، فقال : يا نبي الله مرئى بما شئت ، قال : فقف مكانك لا تتركن أحدا يلحق بنا ، قال : فكان أول النهار جاهدا على نبي الله — صلى الله عليه وسلم — وكان آخر النهار مسلحة له ، فترل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — جانب الحرّة ثم بعث إلى الأنصار فجاءوا إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — وأبي بكر فسلموا عليهما ، وقالوا اركبا آمنين مطاعين ، فركب نبي الله — صلى الله عليه وسلم — وأبو بكر وحفّوا دونهما بالسلاح ، فقبل في المدينة : جاء نبي الله جاء نبي الله — صلى الله عليه وسلم — ، فأشرفوا ينظرون ، ويقولون : جاء نبي الله ، جاء نبي الله ، فأقبل يسير حتى نزل جانب دار أبي أيوب ، فإنه ليحدث أهله إذ سمع به عبد الله بن سلام ، وهو في نخل لأهله يخترف لهم ، فعجل أن يضع الذى يخترف لهم فيها

فجاء وهي معه فسمع من نبي الله — صلى الله عليه وسلم — ثم رجع إلى أهله ، فقال نبي الله : — صلى الله عليه وسلم — أي بيوت أهلنا أقرب ؟ فقال أبو أيوب : أنا يا نبي الله هذه دارى وهذا بابى ، قال : فانطلق وهبي لنا مقيلا ، قال : قوما على بركة الله — تعالى — فلما جاء نبي الله — صلى الله عليه وسلم — جاء عبد الله بن سلام فقال : أشهد أنك رسول الله ، وأنتك جئت بحق ، وقد علمت يهود أنى سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم ، فادعهم فاسألهم عنى قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت ، فإنهم إن يعلموا أنى قد أسلمت قالوا فى ما ليس فى ، فأرسل نبي الله — صلى الله عليه وسلم — فأقبلوا فدخلوا عليه ، فقال لهم رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — يا معشر اليهود ويلكم اتقوا الله ، فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقا ، وأنى جئتكم بحق فأسلموا قالوا : ما نعلمه ، قالوا للنبي — صلى الله عليه وسلم — قالها ثلاث مرار ، قال : فأى رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : ذاك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا ، قال : أفرايتم إن أسلم ؟ قالوا : حاشا لله ما كان ليسلم قال : أفرايتم إن أسلم ؟ قالوا : حاشا لله ما كان ليسلم ، قال يا ابن سلام اخرج عليهم فخرج ، فقال : يا معشر اليهود اتقوا الله ، فوالله الذى

لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بحق ، فقالوا :

كذبت فأخرجهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم " (١)

المقصود من سوق أسلوب القسم التوكيد على علم اليهود برسالة المصطفى — صلوات الله وسلامه عليه — كما جاء في قوله تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) (البقرة / ١٤٦)

وقد مهد الرسول — صلى الله عليه وسلم — لجملة القسم بجمليتين إنشائيتين كان لهما أثر السحر في تنبيه القلوب وإيقاظ النفوس (يا معشر اليهود) ونلاحظ أنه ناداهم بوصفهم الديني ، وفي ذلك تذكير لهم بعواقب كذبهم فيما يجيبون به ، ثم أتبع ذلك بجملة دعائية ، وفيها من زيادة التنبيه والتخويف ما فيها ، ثم أتبع ذلك بجملة أخرى إنشائية (اتقوا الله) وفي كل ذلك وعظ لهم وتذكير حتى لا ينكروا ما هو معلوم لديهم من نبوته — صلى الله عليه وسلم — ثم جاء أسلوب القسم بعد ذلك ذروة سنام هذه الأساليب بما يحمله من طاقات التوكيد ، وجاء جوابه مؤكداً بإن واللام واسمية الجملة ، وفي صيغة (تعلمون) بعد كل هذه التمهيدات تخويف لهم بكل طريق وإرجاع لهم عن الكذب المتوقع منهم بعد كل هذا الحشد من التوكيد والتمهيد ، ومع كل هذا جاء ردهم بإنكار نبوته —

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب المناقب باب هجرة النبي — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه إلى المدينة .

صلى الله عليه وسلم — وأسلوب القسم وما قبله وما بعده حشد عجيب يتظاهر على ردعهم عن الكذب وحملهم على الصدق في الجواب ، ولكن هيهات لقوم أصرروا على إنكار الحق وإن جاء الحق في كتاب سماوى ، ولم يكن لمثل هؤلاء المنكرين أن يخاطبوا بغير أسلوب القسم ، وما ينطوى عليه من التوكيد الذى هو أنسب الأساليب لمواجهة الإنكار .

ومن تمام التناسب أن أسلوب ابن سلام جاء مطابقا أسلوبه — صلى الله عليه وسلم — حيث جاء بأسلوب القسم ، وجاء جواب قسمه على صورة جواب القسم فى قسم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وذلك بعد تقريرهم بأنه سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم ، ومع كل هذا كذبوه ، لا أظن أن أسلوبا آخر غير أسلوب القسم كان يناسب هذا المقام ، ولا هذا السياق .

القسم فى مقام التحذير والتخويف والترهيب

" عن عائشة — رضى الله عنها — أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية (١) التى سرت فقالوا : من يكلم فيها رسول الله — صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : ومن يجترئ عليه إلا أسامة حب رسول الله — صلى الله عليه وسلم ؟ فكلمه أسامة ، فقال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ثم قام فاختطب فقال : أيها الناس إنما أهلك الذين من قبلكم (٢) أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها " (٣)

قوله : — صلى الله عليه وسلم — وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها " المقصود من أسلوب القسم هنا الترهيب من عدم التسوية فى إقامة الحدود ، وعناصر بناء جملة القسم تتأزر جميعها فى أنه لاشفاعة لقراءة ولا حب فى إقامة حد من حدود الله ، فقد عبر —

(١) هى فاطمة بنت الأسود بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، وهى بنت أخى أبى سلمة بن عبد الأسد الصحابى الجليل ، وقيل : هى أم عمرو بنت سفيان بن عبد الأسد ، وهى بنت عم المذكورة وفيه نظر كما يقول العيني (ينظر عمدة القارى ٢٣ / ٢٧٧)

(٢) المراد بهم بنو إسرائيل ينظر العمدة ١٦ / ٦٠ .

(٣) رواه البخارى فى صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء باب حديث الغار وكتاب المناقب باب ذكر أسامة بن زيد ، وكتاب الحدود باب كراهية الشفاعة فى الحد إذا رفع إلى السلطان ، ورواه مسلم فى صحيحه كتاب الحدود باب النهى عن الشفاعة فى الحدود وباب قطع السارق الشريف وغيره

صلى الله عليه وسلم — بفاطمة التي هي أعز أهله عنده تنبيهها بالأعلى على الأدنى ، لأنه إذا ما كانت فاطمة — رضى الله عنها — بهذا الشأن في إقامة الحد عليها — على تقدير ارتكابها السرقة — فمن كان دورها منزلة أبعد من قبول الشفاعة في إقامة الحد عليه .

ثم عبر — صلى الله عليه وسلم — باسمه الشريف (محمد) فقال : لو أن فاطمة بنت محمد ولم يقل : لو أن فاطمة بنتي ؛ إظهارا للتجرد من كل الأواصر والعواطف عند إقامة الحدود ، وقال : — صلى الله عليه وسلم — في جواب لو : لَقَطَعْتُ يَدَهَا بِإِسْنَادِ الْقَطْعِ لِنَفْسِهِ الشَّرِيفَةِ ، ولم يقل مثلا لَقَطَعْتُ يَدَهَا ؛ بيانا لنفي أى شفاعة في إقامة الحدود ، حتى لو كان المقام عليه الحد ابنا لمقيم الحد ، تعظيما لشرع الله ، وتنبيها على خطر هذا الأمر .

وقد ساعد السياق قبل جملة القسم على بيان المقصود حيث قال : — صلى الله عليه وسلم — لأسامة — رضى الله عنه — أتشفع في حد من حدود الله ؟ بأسلوب الاستفهام الإنكارى ، ثم قال : — صلى الله عليه وسلم — " إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد " .

يقول القرطبي " هذا منه — صلى الله عليه وسلم — تهديد ووعد شديد على ترك القيام بالحدود ، وعلى ترك التسوية فيما بين الدنيئ

والشريف والقوى والضعيف" ^(١) وقد استشكل علماؤنا هذا الحصر —
 إنما أهلك الذين قبلكم — لأنه كانت في بني إسرائيل أشياء كثيرة تقتضى
 الهلاك ، يقول الأبى في ذلك :

" حاصل هذا السبب يرجع إلى أنه محابة في حدود الله ، وحينئذ
 يشكل حصر الهلاك فيه ؛ لأنه كانت في بني إسرائيل أشياء كثيرة تقتضى
 الهلاك ، ويجب : إما بمنع اقتضاء إنما القصر وهو أحد الأقوال فيها ، وإما
 بأن المحصور هلاك خاص ، والخاص قد يكون باعتبار أمر خاص ، ومنه (
 إنما أنت نذير) (هود / ١٢) ولم ينحصر أمره — صلى الله عليه وسلم —
 — في الإنذار لأنه نذير وبشير ، ولكن باعتبار مقام التخويف ، فإنما هو
 بحسب ذلك المقام نذير " ^(٢)

" عن أبى حميد الساعدي — رضى الله عنه — قال : استعمل
 النبي — صلى الله عليه وسلم — رجلا من الأزد يقال له ابن الأتبية
 على الصدقة ، فلما قدم قال : هذا لكم وهذا أهدي لى ، قال : فهلا
 جلس في بيت أبيه أو بيت أمه فينظر أيهدى له أم لا ؟ والذى نفسى
بيده لا يأخذ أحد منه شيئا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبتة ، إن

(١) المفهم للقرطبي ٥ / ٧٩ .

(٢) شرح صحيح مسلم للأبى ٤ / ٤٤٣ .

كان بعيرا له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر ، ثم رفع يده حتى رأينا عُقْرَةَ يُطِيهِ اللَّهُمَّ هل بلغت اللهم هل بلغت ثلاثا " (١)

قوله : — صلى الله عليه وسلم " والذى نفسى بيده لا يأخذ أحد منه شيئا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبة إن كان بعيرا له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر " المقصود من القسم هنا تأكيد التهيب من أخذ العمال الهدايا ، ولقد تآزرت عناصر بناء جملة القسم على بيان المقصود ، ولقد جاءت جملة القسم بأسلوب القصر وبأقوى أدواته النفى والاستثناء ، وجاء المسند إليه (لا يأخذ أحد منه شيئا) منكرا لإرادة لعموم الحكم فلا يخص من ورد بشأنه الحديث ، وجاء متعلق الفعل منكرا ، وبلفظ عام (شيئا) ليشمل كل مأخوذ بلغ في الحقايرة ما بلغ أو بلغ في النفاسة ما بلغ .

وقوله : — صلى الله عليه وسلم — (يحمله على رقبة) يدل على شهرة المتستر بالمعاصى فى الآخرة ، وفضحه على رؤوس الناس بحمله على رقبة ما اختان به وتستتر عليه فى الدنيا ، وقوله : (على رقبة) يكشف عن ذلة الآخذ الهدايا يوم القيامة ، فالرقبة آية العزة فى الإنسان ، لذلك يقولون لمن أكره على الشئ : كسر عنقه وذلت رقبة ، وكان من الممكن

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها باب من لم يقبل الهدية لعلة وكتاب الأيمان والنذور باب كيف كانت يمين النبی وكتاب الحيل باب احتيال العامل ليهدى له وكتاب الأحكام باب هدايا العمال وباب محاسبة الإمام عماله ورواه مسلم فى صحيحه كتاب الإمارة باب تحريم هدايا العمال .

أن يكون التعبير (يحمل على ظهره) أو (يحمل على كتفه) لكن ذكر الرقبة أبلغ في الكشف عن الإهانة والذلة .

وقوله : — صلى الله عليه وسلم (إن كان بعيرا له رغاء . . .) يدل على زيادة إظهار الخيانة على رؤوس الأشهاد يوم القيامة ، فحمله ما اختان به وتستتر به في الدنيا يفضحه صورة ، والصوت الصادر من المحمول يفضحه صوتا " وتخصيص البعير والبقرة والشاة دون غيرها مع ما أفادته الجملة السابقة من العموم بحمل كل ما أخذه ليس سوى مثال أريد به التهويل والتخويف حيث إن منظر الرجل يحمل بعيرا يرغبو فوق كتفه أبشع لاشك عمن يحمل صندوقا من الذهب مثلا ، ثم إنه خرج مخرج الغالب من زكاة الأموال في ذلك العصر حيث كان معظمها من النعم إبلا أو بقرا أو غنما " (١)

أفلا يكون حريا بالعامل أو الوالى أن يتورع عن أخذ الهدايا حتى لا يكون هذا حاله؟ وقد ساعد السياق بين يدي أسلوب القسم وخلفه على بيان المقصود حيث قال : — صلى الله عليه وسلم " فهلا جلس في بيت أبيه أو بيت أمه فينظر أيهدى له أم لا ؟

(١) أقياس من الهدى النبوى د/ محمد الأمين الخضرى ٩٩ بدون دار نشر وبدون تاريخ .

يقول القرطبي : " يعنى أن الذى يستخرج الهدايا من الناس للأمير إنما هو رهبة منه أو رغبة فيما بين يديه أو فى يدي غيره ، ويستعين به عليه فهو رشوة " (١)

ويقول الإمام الأبي : " وإنكاره — صلى الله عليه وسلم — أخذه لها باسم الهدية ، وجعله عقابه عقوبة الغال مطابق لقوله : هدايا الأمراء غلول ، وأن ذلك كله خيانة لله — تعالى — وللمسلمين إما لأنه يأخذه لنفسه منهم باسم الهدية ليساعهم فى بقية ما يأخذه منهم فهى خيانتهم للطائفتين ، أو لأجل مجرد ولايته فهى خيانة لأمانة الله — تعالى — وكل غلول ، وبين له — صلى الله عليه وسلم — علة المنع من ذلك ، وأنه إنما يهدى إليه لما ذكره بقوله : هلا جلس فى بيت أبيه فينظر هل يهدى له ؟ " (٢)

وقال : — صلى الله عليه وسلم (اللهم هل بلغت) ثلاثا بأسلوب الاستفهام التقريرى ، والتكرير للتأكيد على تعظيم ذلك وتحريمه ، وقد جاء أسلوب القسم مناسبا للمقام حيث إنه مقام تكثر فيه الشبهات ، ويلقى الشيطان فى روع الواقع فيه شبهات تحيل له الحرام حلالا ، وذلك بأن تسمى الرشوة بأسماء أخرى توهم بأنها ليست خاضعة لهذا الحكم وسوى ذلك مما يطيب الحرام لفاعله معطيا كان أم آخذا .

(١) المفهم للقرطبي ٤ / ٣١ .

(٢) شرح صحيح مسلم للأبي ٥ / ١٧٦ .

" عن عمرو بن عوف أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتهما ، وكان رسول الله عليه وسلم — هو صالح أهل البحرين ، وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي ، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافت صلاة الصبح مع النبي — صلى الله عليه وسلم — فلما صلى بهم الفجر انصرف فتعرضوا له ، فتبسم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حين رأيهم ، وقال : أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشئ ، قالوا : أجل يا رسول الله ، قال : فأبشروا وأملوا ما يسركم فوالله لا الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم " (١)

قوله : — صلى الله عليه وسلم — " فوالله لا الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم " الظاهر أن المقصود من سوق أسلوب القسم هنا تأكيد التحذير من الدنيا والاعتراض بها ، والبديع في أسلوب القسم أنه جاء بالفاء التي تكشف عن المسارعة

(١) رواه البخاري كتاب الجزية باب الجزية والمواذعة مع أهل الحرب وكتاب المغازي باب شهود الملائكة بدرا وكتاب الرقاق باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس عليها ورواه مسلم في صحيحه كتاب الزهد والرقائق باب : ما يحذر من بسط الدنيا .

بإيراد القسم ، وأن الذى جاء بعد المقسم به مباشرة نفى الخوف على الأصحاب من الفقر (فوالله لا الفقر أخشى عليكم) وفى تقديم نفى الخوف عليهم من الفقر إثارة وتشويق لهم حيث أيقظت أذهانهم إلى أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — سيحدثهم فيما يخاف عليهم منه مما أثار لفتهم إلى التعرف على ذلك المخيف الذى يقلق النبى — صلى الله عليه وسلم .

وجاء بلكن الاستدراكية ، وقدم الجار والمجرور على عكس موقعه فى جملة نفى الفقر (ولكن أخشى عليكم أن تبسط . . .) وفى ذلك زيادة تحذير وإظهار زيادة حرص عليهم كما ينبى به التقديم .

وتتابعت بعد ذلك جمل بديعة التركيب جيدة السبك (ولكن أخشى عليكم . . .) والتشبيه فى هذا التركيب ومقايسة حالهم حين بسط الدنيا عليهم بحال السابقين يلفت أنظارهم إلى عواقب ما جنى من قبلهم ، وكل ذلك يلائم المقصد وهو توكيد التحذير من الدنيا والاعتذار بها ، وما أجمل قول القرطبى فى هذا المقام " وفيه ما يدل على أن الفقر أقرب للسلامة والاتساع فى الدنيا أقرب للفتنة " (١)

(١) المفهم ٧ / ١١٣ .

" عن أبي هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : هل ترون قبلتى ههنا ؟ فوالله ما يخفى على خشوعكم ولا ركوعكم ، إني لأراكم من وراء ظهري " (١)

الظاهر أن المقصود من سوق أسلوب القسم هو التحذير والتخويف لمن يقصر في شئ من أمور دينه ، وقد اقتضاه السياق والمقام ، أما المقام فيبدو أن بعض الصحابة لم يكن خشوعه في صلاته خلف النبي — صلى الله عليه وسلم — كما ينبغي ، ويؤيد ذلك الاستفهام الإنكارى الذى سبق أسلوب القسم " هل ترون قبلتى ههنا ؟ " ولولم يكن ذلك قد وقع فأى قيمة للاستفهام الإنكارى ؟ وأى قيمة للقسم المفيد التحذير والتخويف؟

ومن عناصر بناء جملة القسم يتبين لنا زيادة التحذير والتخويف حيث قدم عدم خفاء الخشوع الذى هو عمل قلبى له انعكاساته على الجوارح (ما يخفى على خشوعكم) ثم أتبعه بعد ذلك بالركوع .
ومما زاد من نبرة التحذير والتخويف أيضا قوله : — صلى الله عليه وسلم — مؤكدا " إني لأراكم من وراء ظهري " وكأنه تذكير بأمر نبوته ، وأنه — صلى الله عليه وسلم — له ما ليس لغيره من البشر من الخصوصيات .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الصلاة باب عظة الإمام الناس فى إتمام الصلاة وذكر القبلة ورواه مسلم فى صحيحه كتاب الصلاة باب الأمر بتحسين الصلاة وإتمامها والخشوع فيها ، وكتاب الأذان باب الخشوع فى الصلاة

"عن عائشة — رضى الله عنها — أنها قالت : خسفت الشمس في عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فصلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالناس فقام فأطال القيام ، ثم ركع فأطال الركوع ، ثم قام فأطال القيام وهو دون القيام الأول ، ثم ركع فأطال الركوع وهو دون الركوع الأول ، ثم سجد فأطال السجود ، ثم فعل في الركعة الثانية مثل ما فعل في الأولى ثم انصرف ، وقد انجلت الشمس ، فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا ، ثم قال : يا أمة محمد والله ما من أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته ، يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا" (١)

قوله " يا أمة محمد والله ما من أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته ، يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا " الغرض من القسم التخويف والتحذير والإنذار . يقول العيني : " فإن قلت لا يرتاب في صدق النبي — صلى الله عليه وسلم — فلم صدر كلامه بقوله : والله في الموضعين ؟ قلت : لإرادة

(١) رواه البخارى في صحيحه كتاب الجمعة باب الصدقة في الكسوف ورواه مسلم في صحيحه كتاب الكسوف باب صلاة الكسوف

التأكيد لخبره وإن كان لا يشك فيه ، لأن المقام مقام الإنكار عما لا يليق فعله فيقتضى التأكيد " (١)

ووجه اتصال جملة القسم بما تقدم عليها من قوله : (فا دعوا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا) هو " لما أمروا باستدفاع البلاء بالذكر والصلاة والصدقة ناسب ردعهم عن المعاصي التي هي من أسباب جلب البلاء ، وخص منها الزنا لأنه أعظمها في ذلك ، وقيل لما كانت هذه المعصية من أقبح المعاصي وأشدّها تأثيراً في إثارة النفوس ، وغلبة الغضب ناسب ذلك تخويفهم في هذا المقام من مؤاخضة رب الغيرة وخالفها " (٢)

ونجده — صلى الله عليه وسلم — صدر جملة القسم بهذا النداء : يا أمة محمد ، وفي هذه الإضافة تجريد " كأنه أبعدهم عنه ، فخاطبهم بهذا الخطاب لأن المقام مقام التخويف والتحذير " (٣)

وفي جملة جواب القسم الأول أسند أفعال التفضيل (أغير) إلى الله ، وأصل الغيرة أن تستعمل في الأهل والزوج ، وذلك مما يتره عنه جناب مولانا الأقدس — عز وعلا — ففي هذا الإسناد مجاز

يقول القرطبي : " الغيرة في حقنا راجعة إلى تغير وانزعاج وهيجان يلحق الغيران عندما ينال شيء من حرمة أو محبوباته ، فحمل على صيانتهم ومنعهم ، وهذا التغير على الله محال ، وهو متره عن كل تغير ونقص ،

(١) عمدة القارى ٧ / ٧١ .

(٢) السابق ٧ / ٧١ .

(٣) السابق ٧ / ٧١ .

لكن لما كانت ثمرة الغيرة صون الحريم ومنعهم ، وزجر القاصد إليهم أطلق ذلك على الله — تعالى — إذ قد زجر وذم ونصب الحدود وتوعد بالعقاب الشديد من تعرض لشيء من محارمه ، وهذا من التجوز ، من باب تسمية الشيء باسم ما ترتب عليه " (١)

ويرى الإمام العيني أنه " يجوز أن يكون هذا استعارة تصريحية تبعية ، قد شبه حال ما يفعله الله مع عبده الزاني من الانتقام وحلول العقاب بحال ما يفعله العبد بعبده الزاني من الزجر والتعزير " (٢) وتخصيص العبد والأمة بالذكر في قوله (أن يزني عبده أو أمته) " شبه احتراس رعاية لحسن الأدب مع الله — تعالى — لتترهه عن الزوجة والأهل ممن تتعلق بهم الغيرة غالبا " (٣)

ومعنى قوله في جملة جواب القسم الثاني (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا) أى " لو تعلمون من عظم انتقام الله من أهل الجرائم وشدة عقابه وأهوال القيامة وأحوالها كما علمته لما ضحكتم أصلا إذ القليل بمعنى العدم على ما يقتضيه السياق ، وقيل معنى هذا الكلام : لو علمتم من سعة رحمة الله وحلمه ولطفه وكرمه ما أعلم لبكيتم على ما فاتكم من ذلك " (٤)

(١) المفهم للقرطبي ٥٥٧ / ٢ .

(٢) عمدة القارى ٧١ / ٧ .

(٣) شرح صحيح مسلم للسنوسى ٥٤ / ٣ وعمدة القارى ٧١ / ٧ .

(٤) عمدة القارى ٧١ / ٧ .

وفي قوله — صلى الله عليه وسلم (ما أعلم) وتخصيص نفسه بعلم لا يعلمه غيره دلالة بالغة على تيقنه مما يقول ، يقول العيني " لأنه لعله أن يكون ما رآه في عرض الحائط من النار " (١) ورأى فيها منظرا شديدا لو علمت أمته من ذلك ما علم — صلى الله عليه وسلم — لكان ضحكهم قليلا وبكاؤهم كثيرا إشفاقا وخوفا .

وقد حكى ابن بطل أن سبب ذلك ما كان عليه الأنصار من محبة اللهو والغناء وأظن فيه ، ورد عليه ذلك بأنه قول بلا دليل ولاحجة في تخصيصهم بذلك ، والقضية كانت في أواخر زمنه — صلى الله عليه وسلم — مع كثرة الأصناف من الخلائق في المدينة يومئذ " (٢)

عن أبي ذر — رضى الله عنه — قال : انتهيت إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : والذى نفسى بيده ، أو الذى لا إله غيره ، أو كما حلف ، ما من رجل تكون له إبل أو بقرة أو غنم لا يؤدى حقها إلا أتى بها يوم القيامة أعظم ما تكون وأسمنه تطؤه بأخفافها ، وتنتطحه

(١) للحديث رواية أخرى فيها " رأيت في مقامى هذا كل شئ وعدم حتى لقد رأيتنى أريد أن آخذ قطفا من الجنة حين رأيتموني جعلت أقدم ، ولقد رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا حين رأيتموني تأخرت ، ورأيت فيها ابن لحي وهو الذى سب السوائب " رواه مسلم في صحيحه كتاب الكسوف باب ما عرض على النبي في صلاة الكسوف من أمر الجنة
(٢) عمدة القارى ٧ / ٧١ .

بقرونها كلما جازت أخراها ردت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس ^(١)

المقصود من القسم تأكيد مراده — صلى الله عليه وسلم — من التحذير والتخويف والترهيب ، وذكر (الرجل) في جملة المقسم عليه (ما من رجل) للتغليب ، وإلا فالحكم يسرى على المرأة التي تمنع زكاة هذه الأصناف كما يسرى على الرجل .

وذكر الحال (أعظم ما تكون وأسمه) لبيان شدة عذاب هذا الرجل ، ويجوز أن تكون هذه الأصناف التي منعت زكاتها في الدنيا هزيلة ، ولكنها تأتي يوم القيامة عظيمة سمينة حتى يكون العذاب شديدا .

وفي قوله (تطؤه بأخفافها وتنطحه بقرونها) لف ونشر مرتب ، فالوصف الأول الوطء بالأخفاف للإبل ، والوصف الثاني : النطح بالقرون للبقر والغنم .

وقوله (حتى يقضى بين الناس) أى يفرغ من الحساب ، ومجئ هذه الجملة في هذا السياق يدل على طول مدة العذاب ، فقد علق المصطفى — صلى الله عليه وسلم — انتهاء عذاب مانع الزكاة بانتهاء الحساب بين الناس ، وقد قال ربنا — عز وجل — (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) (المعارج / ٤) وكل هذه الإطالة في جملة جواب القسم وتتابع

(١) رواه البخارى في صحيحه كتاب الزكاة باب زكاة البقر .

العبارات الكاشفة عن العذاب المهين لمانع الزكاة مما له عظيم الأثر في الإقلاع عن منع الزكاة والاجتهاد في أدائها.

عن أبي هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال: يأتى على الناس زمان يدعو الرجل ابن عمه، وقريبه: هلم إلى الرخاء هلم إلى الرخاء، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، والذى نفسى بيده لا يخرج منهم أحد رغبة عنها إلا أحلف الله فيها خيرا منه، ألا إن المدينة كالكير تخرج الخبيث، لا تقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارها كما ينفى الكير خبث الحديد" (١)

المقصود من القسم هنا الترهيب من الخروج من المدينة، والترغيب في البقاء فيها، وقد جاءت جملة القسم بأسلوب القصر وبأقوى أدواته (النفى والاشتناء) وقد جاء المقصور مقيدا بالقيد (رغبة عنها) كاشفا للدافع النفسى وراء هجر المدينة إثارا لطلب الرخاء عليها.

وقد جاءت جملة القسم عقب الكشف عن المقام الذى يحدث فيه هذا، وأن ذلك يكون فى أوقات ضيق المعاش فى المدينة ورخاء العيش خارجها، لذا بناه الرسول — صلى الله عليه وسلم — بأسلوب اسم فعل الأمر (هلم) وجاء التكرار كاشفا عن قوة الإلحاح فى طلب الخروج من المدينة.

(١) رواه مسلم فى صحيحه كتاب الحج باب المدينة تنفى شرارها

وقد وقع بعد جملة القسم أسلوب تشبيه يقبح الراغب عن البقاء في المدينة ، وجاء مفتتحاً بالأ تنبيهاً للأسماع وإيقاظاً لها ، ومما ضاعف من الترهيب قوله : — صلى الله عليه وسلم " لاتقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارها " حيث أكد الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن الراغب عن البقاء في المدينة من شرار الناس .

عن جابر بن عبد الله — رضى الله عنه — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مر بالسوق داخلاً من بعض العالية ، والناس كَنَفَتَهُ ، فمرَّ بجَدَى أَسْكَ^(١) ميت فتناوله فأخذ بأذنه ، ثم قال : أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ قالوا : ما نحب أنه لنا بشئ ، وما نصنع به ؟ قال : أتحبون أنه لكم ؟ قالوا : والله لو كان حياً كان عيباً فيه لأنه أَسْكَ ، فكيف وهو ميت ؟ فقال : فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم^(٢)

المقصود من سوق أسلوب القسم على لسان الرسول — صلى الله عليه وسلم — التحقير من شأن الدنيا ، والتحذير من غرورها بقرينة الحال ، حيث إن هذا القول قد أُلْقِيَ في السوق ، وفي الأسواق ما فيها !! وقد ساعد السياق بين يدي القسم على أداء هذا المقصود ، والحديث كله قدبنى على تحقير شأن الدنيا ، فقد أورده الرسول — صلى الله عليه وسلم —

(١) أسك : صغير الأذنين ينظر اللسان والوسيط مادة (س ك ك)

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب الزهد والرفاق باب هوان الدنيا على الله — تعالى — وأنها سجن المؤمن

مغتتما فرصة وجوده في السوق ، وفي السوق مشغلة عن الآخرة ما بعدها مشغلة ، فكانت الفرصة مناسبة لإلقاء موعظة تستند إلى واقع ما هم بصدده ، تعليما للأمة ألا يغيب عن وعيها ذكر الله أبدا ، وتنبيهها للنفوس إلى الحذر من مراصد الشيطان في الأسواق ، والسماحة في البيع والشراء حيث إن كلها لا تساوى عند الله شيئا.

ولنتأمل كيف أخذ الرسول — صلى الله عليه وسلم — بأذن الجدى الأسك تعليما عمليا للصحابة ، واستدلالات بالمحسوس على غير المحسوس ، وقد أجاب الصحابة جميعا بلا وقدكرر السؤال مرتين ، وفي تكراره زيادة تقرير برفضهم .

و في جوابهم الثاني تعجب واستغرب ، ولغرابة تكرار السؤال أوردوا جوابهم بأسلوب القسم وبنوا جواب القسم بلو الشرطية ، وكأن العجب بمألهم (والله لو كان حيا كان عيبا فيه فكيف وهو ميت ؟!) ما من شك أن نفوسهم مستعدة بعد ذلك إلى القبول بقول الرسول — صلى الله عليه وسلم — في تحقير شأن الدنيا ، حيث جاء جواب القسم مبينا على أسلوب التفضيل الذى جعل الجدى الذى اجتهدوا في رفض اقتنائه حيا وميتا أعلى قيمة من الدنيا عند الله ، وفي هذا التحقير تهديد وتحذير لمن تسول له نفسه إتيان حرام ، أو اقتراف إثم ، فإذا كانت الدنيا بهذا الشأن عنده — عز وعلا — فكيف إذا أغضبه بعض من يعيش فيها ؟

القسم في بيان فضل بعض الصحابة

"عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : أهديت للنبي — صلى الله عليه وسلم — جبة سندس ، وكان ينهى عن الحرير ، فعجب الناس منها فقال : — صلى الله عليه وسلم — والذى نفس محمد بيده إن مناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا"^(١)

المقصود من سوق أسلوب القسم تأكيد فضيلة سعد بن معاذ — رضى الله عنه — والتوكيد المفاد من القسم هنا مناسب للمقام ، لأنه مقام وعد " والوعد من مقامات التوكيد لتزداد النفوس به يقينا واطمئنانا " ^(٢) وقد اشتملت عناصر جملة جواب القسم على ما يكشف عن عظيم منزلة سعد — رضى الله عنه — من ذلك أنه ذكر كلمة (مناديل) وهى للإنسان مما يزال به الوسخ والامتهان ، فإذا ما كانت مناديله — رضى الله عنه — فى الجنة بهذا الوصف ، فما ظننا بالعمامة والحلة مثلا ؟ وفيه أيضا إنزال لقدر زينة الدنيا ، وكشف عن تفاهة قدرها ، وعظم ثواب الآخرة ، وقد أشار العلماء إلى هذا يقول العيني فى قوله (لمناديل سعد . . .)

" فيه إشارة إلى منزلة سعد فى الجنة ، وأن أدنى ثيابه فيها خير من هذه الجبة ، لأن المناديل فى الثياب أدناها ، لأنه معد للوسخ والامتهان فغيره أفضل منه ،

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الهبة باب قبول الهدية من المشركين ورواه أيضا فى كتاب بدء الخلق باب ما جاء فى صفة الجنة وأهلها مخلوقة ورواه مسلم فى صحيحه كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل

سعد بن معاذ

(٢) خصائص التراكيب د / محمد أبو موسى ٩٧ نشر مكتبة وهبة ط رابعة ١٩٩٦ م .

وقيل في قوله (لناديل سعد) ضرب المثل بالناديل التي يسمح بها الأيدي وينفض بها الغبار، ويتخذ لفافة لجيد الثياب، فكانت كالخادم والثياب كالمخدوم، فإذا كانت المناديل أفضل من هذه الثياب أعني جبة السندس دل على عطايا الرب — جل جلاله — قال (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين... (السجدة / ١٧) " (١)

وأضاف — صلى الله عليه وسلم — المناديل إلى سعد بن معاذ — رضى الله عنه — خاصة دون غيره من الصحابة إما "لأن منديله كان من جنس ذلك الثوب لونا ونحوه، أو كان الوقت يقتضى استمالة سعد، أو كان اللامسون المتعجبون من الأنصار، فقال: منديل سيدكم خير منها، أو كان سعد يحب ذلك الجنس من الثياب" (٢)

عن سعد بن أبي وقاص — رضى الله عنه — قال: استأذن عمر على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن، فلما استأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب، فأذن له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — يضحك، فقال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله، قال: عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب، قال عمر: فأنت يا رسول الله كنت أحق أن يهين، ثم قال: أى عدوات أنفسهن أقبني ولا تقبني رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قلن: نعم، أنت أفظ

(١) عمدة القارى ١٣ / ١٧٠ .

(٢) عمدة القارى للعيني ١٣ / ١٧٠ .

وأغلظ من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال رسول الله : —
صلى الله عليه وسلم — والذي نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا
إلا سلك فجا غير فحك" (١)

قوله : — صلى الله عليه وسلم " والذي نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكا
 فجا إلا سلك فجا غير فحك " المقصود من القسم هنا تأكيد فضيلة عمر بن
 الخطاب — رضى الله عنه — وقد جاء المقسم عليه بأسلوب القصر وبأقوى
 أدواته (ما وإلا) زيادة في التأكيد في إظهار فضله — رضى الله عنه .

وقد احتاج المقام للقسم حيث إن المقسم عليه غير مشاهد ولا محسوس
 ، فلا أحد يرى الشيطان أصلا ، فضلا عن أن يراه وهو يهرب من أحد
 فاحتاج الأمر للتوكيد عن طريق القسم .

وقد اختلف العلماء حول المراد بالمقسم عليه هل هو على ظاهره ، وأن
 الشيطان متى رأى عمر سالكا فجا هرب هيبة من عمر ، وفارق ذلك الفج ،
 وذهب في فج آخر لشدة خوفه من بأس عمر أن يفعل فيه شيئا ، أم أنه ضرب
 مثلا لبعده الشيطان عنه ، وأنه لا سبيل عليه ، وقد صحح الراى الأول القرطبي
 والنووى (٢)

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب بدء الخلق باب صفة إبليس وجنوده وكتاب المناقب باب مناقب
 عمر بن الخطاب وكتاب الأدب باب التيسم والضحك ورواه مسلم فى صحيحه كتاب الفضائل باب من
 فضائل عمر — رضى الله عنه .

(٢) المفهم للقرطبي ٦ / ٢٥٩ والنووى على مسلم ٨ / ١٨٠ .

وصحح الرأى الثانى الإمام العيني لقوله : — تعالى (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) (الأعراف / ٢٧) فلا يخافه إذا فح لأنه لا يراه " (١)
وقد ذكر الإمام السنوسى نقلا عن القاضى عياض احتمال أنه كناية عن عصمته من إغوائه " (٢)

وقد اعترض البعض على هذا الاحتمال الثالث ، وقد حكى العيني هذا الاعتراض بقوله " وفى الحديث فضيلة عظيمة لعمر — رضى الله عنه — لأن هذا الكلام يقتضى أن لا سبيل للشيطان عليه ، إلا أن ذلك لا يقتضى وجوب العصمة ، إذ ليس فيه إلا فرار الشيطان من أن يشاركه فى طريق يسلكها ، ولا يمنع ذلك من وسوسته له بحسب ما تصل إليه قدرتهم هكذا قرره بعضهم " (٣)

وقد رد العيني هذا الكلام بقوله : " قلت : هذا موضع التأمل لأن عدم سلوكه الطريق الذى يسلك فيه عمر — رضى الله عنه — إنما كان لأجل خوفه لا لأجل معنى آخر ، والدليل عليه ما رواه الطبرانى فى الأوسط من حديث حفصة بلفظ (إن الشيطان لا يلقى عمر منذ أسلم إلا خر لوجهه) فالذى يكون حاله مع عمر هكذا ، كيف لا يمنع من الوصول إليه لأجل الوسوسة ، وتمكن الشيطان من وسوسة بنى آدم ما هو إلا بأنه يجرى فى عروق بنى آدم مثل ما يجرى الدم ، فالذى يهرب منه ويخر على وجهه إذا رآه كيف يجد طريقا إليه ، وما ذاك إلا خاصة له وضعها الله فيه فضلا منه وكرما

(١) عمدة القارى ١٥ / ١٨١ .

(٢) شرح صحيح مسلم للإمام السنوسى ٦ / ٢٠٣ .

(٣) عمدة القارى ١٦ / ١٩٦ .

، وبهذا لا ندعى العصمة ، لأنها من خواص الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام
" (١)

وإنما اختلف العلماء هنا لأن التركيب يحتمل كل هذه المعاني ، وتكثر
فوائد التركيب بكثرة ما يحتمله من المعاني ما دامت اللغة والسياق يتيحان
ذلك .

عن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله : — صلى الله
عليه وسلم — لا تسبوا أصحابي لا تسبوا أصحابي فوالذى نفسى بيده لو
أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه " (٢)

المقصود من القسم هنا تأكيد فضل الصحابة — رضوان الله عليهم ،
وقوله : — صلى الله عليه وسلم (لا تسبوا أصحابي) جملة إنشائية مهدت
للقسم وجوابه ، وفي تكرارها تأكيد لهذا النهي ، وفي إضافة الأصحاب إلى ياء
المتكلم الذى يرجع إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — إشعاراً بأن من سب
الصحابة فقد سب النبى — صلى الله عليه وسلم — وفى هذا تعظيم لشأن
الصحابة ، بالترهيب من سبهم .

لذلك قالوا : إن " وجوب احترام أصحاب رسول الله — صلى الله عليه
وسلم — من المعلوم الذى لا يشك فيه ، فجميع ما نحن فيه من العلوم
والأعمال والفضائل والأحوال والممتلكات والأموال والعز والسلطان والدين
والإيمان وغير ذلك من النعم التى لا يحصىها لسان ، ولا يتسع لتقديرها زمان

(١) عمدة القارى ١٦ / ١٩٦ .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه كتاب الفضائل باب تحريم سب الصحابة — رضى الله عنهم

، إنما كان بسببهم ، ولما كان ذلك وجب علينا الاعتراف بحقوقهم ، والشكر لهم على عظيم أياديهم ؛ قياما بما أوجبه الله — تعالى — من شكر المنعم ، واجتنابا لما حرمه من كفران حقه ، هذا مع ما تحققناه من ثناء الله — تعالى — عليهم ، وتشريفه لهم ، ورضاه عنهم ، كقوله تعالى : (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة . . . إلى قوله تعالى : (محمد رسول الله . . .) (الفتح ١٨ : ٢٩) وقوله : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار . . .) (التوبة / ١٠٠) إلى غير ذلك وكقوله : — صلى الله عليه وسلم — إن الله اختار أصحابي على العالمين سوى النبيين والمرسلين) إلى غير ذلك من الأحاديث المتضمنة للثناء عليهم — رضى الله عنهم أجمعين — وعلى هذا فمن تعرض لسبهم ، وجحد عظيم حقهم فقد انسلخ من الإيمان ، وقابل الشكر بالكفران ، ويكفى في هذا الباب ما رواه الترمذى من حديث عبد الله بن معقل — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا بعدى فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضني فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه (١) (٢)

ولقد جاء أسلوب القسم بعد أسلوب النهي كالتعليل له ، ونلاحظ أن الجواب بـ (لو) التي تدل على امتناع وقوع الجواب لامتناع وقوع الشرط ، دلالة على استحالة بلوغ أحدهم مد أحد من الصحابة

(١) رواه الترمذى في صحيحه كتاب المناقب باب فيمن سب أصحاب النبي — صلى الله عليه وسلم .

(٢) المفهم للقرطبي ٦ / ٤٩٢ ، ٤٩٣ .

ولانصيفه (وهو إنفاق مثل أحد ذهباً) لاستحالة وقوع الإنفاق بهذا القدر من أحد .

وقوله : — صلى الله عليه وسلم — (مثل أحد ذهباً) تأكيد أنه لن يكون أحد من المنفقين بالغاً ما بلغ واصلاً لهذا القدر من الإنفاق ، وكل ذلك مما يعظم من قدر الأصحاب — رضوان الله عليهم — وعظم ثوابهم الذى لا يبلغه بعضه ممن ينفق وزان أحد على فرض حدوث ذلك .

عن هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير — رضى الله عنهما — قال : كان الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة ، قالت عائشة : فاجتمع صواحبى إلى أم سلمة ، فقلن : يا أم سلمة والله إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة ، وإنا نريد الخير كما تريده عائشة ، فمرى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيث ما كان ، أو حيث ما دار ، قالت : فذكرت ذلك أم سلمة للنبي — صلى الله عليه وسلم — قالت : فأعرض عني ، فلما عاد إلى ذكرت له ذاك فأعرض عني ، فلما كان في الثالثة ذكرت له ، فقال : يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة فإنه والله ما نزل الوحي ، وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها " (١)

المقصود من القسم الذى جرى على لسان نساء النبي — صلى الله عليه وسلم — إظهار الحزن لما رأيته من تعمد الناس الإهداء إلى الرسول

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب المناقب باب فضل عائشة .

— صلى الله عليه وسلم — فى نوبة عائشة ، وقد كان الصحابة يتحرون
 مرضاة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقد كانوا يعرفون حب
 رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عائشة أكثر من حبه غيرها .
 لذلك فسر بعض العلماء طلبهن من الرسول — صلى الله عليه وسلم —
 — أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيث ما كان فى بيوت أزواجه بأنه كناية
 عن التسوية بينهن فى المحبة بالطف وجه لأن منشأ تحرى الناس زيادة المحبة
 لعائشة — رضى الله عنها — فعند التسوية بينهن فى المحبة يرتفع التحرى
 من الناس ، فكأنه إذا ساوى بينهن فى المحبة فقد أمرهم بعدم التحرى والله
 — تعالى — أعلم " (١)

أما القسم الذى جاء على لسانه — صلى الله عليه وسلم — فالملقود
 منه التوكيد على فضل عائشة — رضى الله عنها — وفى هذا منقبة عظيمة
 لها ، ونلاحظ فى قوله : — صلى الله عليه وسلم — (لا تؤذينى فى عائشة)
 إضافة الإيذاء إلى نفسه ، فلم يقل : لا تؤذى عائشة ، لما فى ذلك من
 المبالغة فى النهى عن إيذائها فإيذاؤها إيذاء له — صلى الله عليه وسلم —
 وحسبها مكانة عنده وفضلا .

والنفى الوارد بجملة القسم (ما نزل على الوحى وأنا فى لحاف امرأة
 منكن غيرها) يتعارض مع ما ورد فى البخارى من حديث كعب بن

(١) حاشية السندى على النسائى كتاب عشرة النساء باب حب الرجل بعض نساءه ضمن برنامج كمبيوتر
 إصدار شركة صخر فان .

مالك (فأنزل الله توبتنا على نبيه — صلى الله عليه وسلم — حين بقى
الثلث الأخير من الليل ، ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — عند أم
سلمة " (١)

وأجيب بأنه " لعل ما فى حديث عائشة كان قبل القصة التى نزل
الوحى فيها فى فراش أم سلمة ، وقال السيوطى فى الإتقان : ظفرت بما
يؤخذ منه جواب أحسن من هذا ، فروى أبو يعلى فى مسنده عن عائشة
قالت : أعطيت تسعا . . . الحديث ، وفيه : وإن كان الوحى ليترل عليه
، وهو مع أهله فينصرفون عنه ، وإن كان ليترل عليه وأنا فى لحافه ،
وعلى هذا فلا معارضة بين الحديثين " (٢)

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب تفسير القرآن باب وعلى الثلاثة الذين خلفوا . . .

(٢) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى كتاب المناقب عن رسول الله باب من فضل عائشة ضمن
برنامج كمبيوتر الحديث الشريف إصدار شركة صخر فان .

القسم فى مقام التأديب

"عن زَهْدَمَ الْجَرْمِيِّ قَالَ : كنا عند أبي موسى ، فأتى ذكر دجاجة ، وعنده رجل من بنى تيم الله أحمر كأنه من الموالى ، فدعاه للطعام فقال : إني رأيته يأكل شيئا فقدرته ، فحلفت لا آكل ، فقال : هلم فلأحدثكم عن ذلك ، إني أتيت النبى — صلى الله عليه وسلم — فى نفر من الأشعرين نستحملة ، فقال : والله لا أحملكم ، وما عندى ما أحملكم ، وأتى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بنهب إبل فسأل عنا ، فقال : أين نفر الأشعريون ؟ فأمر لنا بخمس ذود غر الذرى فلما انطلقنا قلنا : ما صنعنا لا يبارك لنا فرجعنا إليه ، فقلنا : إنا سألناك أن تحملنا فحلفت أن لا تحملنا أفنسيك ؟ قال : لست أنا حملتكم ، ولكن الله حملكم ، وإني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها ، إلا أتيت الذى هو خير وتحملتها" ^(١)

قوله "والله لا أحملكم وما عندى ما أحملكم" المقصود من القسم هنا التأديب ، ذلك أنهم سألوا النبى — صلى الله عليه وسلم — فى حال

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب فرض الخمس باب ومن الدليل أن الخمس لنوائب المسلمين ورواه مسلم فى صحيحه كتاب الإيمان والنذور باب من حلف على يمين فرأى خيرا منها فليكفر .

تحقق فيها أنه لم يكن عنده شيء ، ووافقوه في حال كان فيها غضبان (١) فأدبهم بذلك القول .

ثم إنه — صلى الله عليه وسلم — بقى مترقبا لما يسعف به طلبتهم ، ويجبر به انكسارهم ، فلما يسر الله — تعالى — ذلك أعطاهم وجبرهم على مقتضى كرم خلقه ، وجبر الانكسار مما يوحى به القسم الثانى (وإني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيت الذى هو خير وتحللتها)

فالمقصود هنا من القسم — مع التأكيد على استحباب الحنث فى اليمين الذى يرى غيرها خيرا منها — تطيب نفس الأشعرين بعد أن أغلظ الرسول — صلى الله عليه وسلم — لهم فى القول ، خاصة أن هذا القسم وقع بعد قوله — صلى الله عليه وسلم — لست أنا حملتكم ، ولكن الله حملكم " إزالة للمنة عليهم ، وإضافة للنعمة إلى الله — عز وجل — وفيه ما فيه من تطيب النفس .

(١) كما جاء فى رواية أخرى للحديث " أرسلنى أصحابى إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أسأله الحمالان لهم إذ هم معه فى جيش العسرة وهى غزوة تبوك ، فقلت : يا نبي الله إن أصحابى أرسلونى إليك لتحملهم فقال : والله لا أحملكم على شيء ، ووافقته وهو غضبان ولا أشعر "

وقد جاء الاستثناء في جملة القسم (إن شاء الله) تعليما للأدب مع
الله في الأمور المستقبلية ، واحترازا مما قد يقع مخالفا لما قطعه الإنسان على
نفسه .

القسم في مقام الترغيب والتشويق

عن أبي ذر قال : قلت : يا رسول الله ما آنية الحوض ؟ قال :
والذى نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبه ،
ألا في الليلة الظلماء المصحبة آنية الجنة ، من شرب منه لم يظمأ آخر ما
عليه ، يشخب فيه ميزابان من الجنة من شرب منه لم يظمأ ، عرضه
مثل طوله ما بين عمّان إلى أيلة ، ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من
العسل" (١)

جاء حديثه — صلى الله عليه وسلم — عن الحوض حديثا يشوق
السامع للورود عليه ، وقد سلك — صلى الله عليه وسلم — نحو الغرض
مسلكا بديعا ، فقد كان المنتظر أن تكون الإجابة من الرسول — صلى
الله عليه وسلم — على قدر سؤال السائل ، ولكنه أجاب عن السؤال
وعن غيره ، مما لم يسأل عنه زيادة في الترغيب والتشويق .

فبين — صلى الله عليه وسلم — عظم آنية الحوض وكثرة عددها ()
لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبه () وبين بريقها ولمعائها (ألا في
الليلة المظلمة المصحبة) وبين منبع الحوض (يشخب فيه ميزابان من الجنة
() وبين عرضه (عرضه مثل طوله ما بين عمان إلى أيلة) وبين لون مائه

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل ، باب : إثبات حوض نبينا — صلى الله عليه وسلم — وصفاته .

ومذاقه وريه (ماءؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل ، من شرب منه لم يظمأ)

وقد صدر الرسول — صلى الله عليه وسلم — حديثه عن الحوض ، ووصفه له بأسلوب القسم لأنه يتحدث عن أمر غيبي يحتاج التوكيد حتى يقع في نفس السامع موقعا مقبولا ، يرد عنه غائلة الشك والتساؤل .

القسم فى مقام الإخبار بالغيب والأمر المستقبلية

عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله : —
صلى الله عليه وسلم — والذي نفسى بيده لا تذهب الدنيا حتى
يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه ، ويقول : يا ليتنى كنت مكان
صاحب هذا القبر ، وليس به الدين إلا البلاء" (١)

يتحدث الرسول — صلى الله عليه وسلم — عن أمر من الأمور
 التى ستكون بين يدى الساعة ، وهو أمر غيبى يحتاج التوكيد حتى يقع من
 نفس المتلقى موقعا طيبا ؛ لذا جاء القسم بما يحمله من دلالات التوكيد
 ليناسب المقام .

والمقصود من سوق أسلوب القسم التوكيد على سوء حال الناس
 قبل قيام الساعة ؛ لدرجة أن الرجل يمر على القبر فيتمرغ عليه ، ويتمنى
 أن لو كان مكان صاحب هذا القبر ، أى أن الإنسان فى هذا الوقت يعبر
 عن ضجره وسوء حاله تعبيرا حركيا بالمرور على القبر والتمرغ عليه ، ثم
 تعبيرا قوليا (ياليتنى كنت مكان صاحب هذا القبر) وانظر كيف جاء
 التعبير عن هذه الأمنية بيا الزائدة للتنبيه و ليت الدالة على تمنى المستحيل
 أو الممكن البعيد ، وكأن المآل إلى القبر صار أمنية بعيدة المنال ، وتمنى
 الموت شئ ضد طبيعة البشر ، فأى محن تلك ؟ وأى أكراد تحمل الإنسان

(١) رواه مسلم فى صحيحه كتاب الفتن وأشراط الساعة باب لا تقوم الساعة حتى يمر
 الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء

على تمنى ما تفر منه طبيعته ؟ إنما نحن لا توصف وأكدار لاتعد ، وقد دلت جملة القسم وجوابه على أن ذلك واقع لا محالة .

عن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — والذى نفسى بيده ليوشكن أن يترل فيكم ابن مريم حكما مقسطا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، وبضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد " (١)

المقصود من القسم التوكيد على نزول عيسى — عليه السلام — والحديث يخبرنا بأمر من أمور الساعة وأشراتها ، وهو أمر غيبى يحتاج التوكيد حتى يقع من نفس السامع موقعا طيبا ، ويمكن أن يعد الحديث ردا على اليهود والنصارى ، وتكذبا لهم فيما يدعون.

يقول العيني : " فتح لى هنا معنى من الفيض الإلهى ، وهو أن المراد من كسر الصليب إظهار كذب النصارى حيث ادعوا أن اليهود صلبوا عيسى — عليه السلام — على خشب ، فأخبر الله — تعالى — فى كتابه العزيز بكذبهم وافترائهم فقال (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) (النساء / ١٥٧) . . . ثم يكون كسر عيسى الصليب حين يترل إشارة إلى كذبهم فى دعواهم أنه قتل وصلب وإلى بطلان دينهم ، وأن الدين الحق هو الدين الذى هو عليه ، وهو دين الإسلام دين محمد — صلى الله عليه

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب البيوع باب قتل الخنزير وكتاب المظالم والغصب باب كسر الصليب وقتل الخنزير ورواه مسلم فى صحيحه كتاب الإيمان باب نزول عيسى بن مريم حاكما

وسلم — الذى هو نزل لإظهاره ، وإبطال بقية الأديان بقتل النصارى واليهود وكسر الأصنام وقتل الخنزير " (١)

وقد ورد الجواب (ليوشكن . . .) مؤكدا باللام وإن الثقلية ، وكل ذلك مما يناسب حال اليهود والنصارى وما هم عليه من الاعتقاد المخالف فى هذا الشأن ، ومعنى : يوشكن أى يقربن ، وهو من أفعال المقاربة التى تدل على دنو الخبر ، وهذا مما يناسب التوكيد على نزول عيسى — عليه السلام — ويرى الإمام الأبي أن الفعل هنا بمعنى المضى ، أى لقد قرب لأن القسم عليها ، وهى مستقبل لا يفيد لأن كل مستقبل لابد أن يقرب " (٢)

ويرى الإمام السنوسى أن هذا الكلام فيه نظر ؛ لأن ذلك فيما علم استقباله ، وهنا لم يعلم استقبال نزول عيسى — عليه السلام — إلا من قوله — صلى الله عليه وسلم — فالقسم يفيد تحقيق نزوله فى المستقبل ، وعبر عن ذلك بما ذكر " (٣)

(١) عمدة القارى ٣٥ / ١٢ .

(٢) شرح صحيح مسلم للإمامين الأبي والسنوسى ١ / ٢٦٥ .

(٣) المرجع السابق ١ / ٢٦٥ .

مقام تأكيد التحريم

عن عبد الله بن عمر — رضى الله عنه — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — اصطنع خاتما من ذهب ، وكان يلبسه فيجعل فسه في باطن كفه ، فصنع الناس خواتيم ، ثم إنه جلس على المنبر فترعه ، فقال : إني كنت ألبس هذا الخاتم ، وأجعل فسه من داخل فرمى به ، ثم قال : والله لا ألبسه أبدا ، فنبذ الناس خواتيمهم ^(١)

قوله — صلى الله عليه وسلم — " والله لا ألبسه أبدا " المقصود من القسم " تأكيد الكراهة في نفوس الناس ؛ لئلا يتوهم أن كراهته لمعنى فإذا زال ذلك المعنى لم يكن يلبسه بأس ، وأكد بالخلف أنه لا يلبسه على جميع وجوهه " ^(٢)

هذا وقد جاء أسلوب القسم في سياق يتظاهر على إظهار كراهة لبس الذهب بما فعله الرسول — صلى الله عليه وسلم — وكشفه عن خطورة ذلك بالجلوس على المنبر ونزع الخاتم علنا أمام الناس وبيان الحكمة في ذلك ، وقد جاء أسلوب القسم ذروة البيان عن حرمة لبس الذهب على الرجال ، وذيل أسلوب القسم بظرف الزمان المستقبل (أبدا) زيادة في التأكيد ، وقد كشف سياق الحديث عن أثر فعل رسول الله

(١) رواه البخارى في صحيحه كتاب اللباس باب خواتيم الذهب ورواه أيضا في باب خاتم الفضة وكتاب الأيمان باب من حلف على الشيء وإن لم يُحلف .

(٢) عمدة القارى ٢٣ / ١٧٩ .

— صلى الله عليه وسلم — وقوله على نفوس المخاطبين فبادروا بطرح
الخوانيم (فنبذ الناس خواتيمهم) .

في مقام التهديد والوعيد

عن أبي هريرة أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : —
والذى نفسى بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب ، ثم آمر بالصلاة
فيؤذن لها ، ثم آمر رجلا فيؤم الناس ، ثم أخالف إلى رجال فأحرق
عليهم بيوتهم ، والذى نفسى بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقا سمينا
أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء " (١)

المقصود من القسم تأكيد مراده — صلى الله عليه وسلم — من
التهديد والوعيد لمن يتخلف عن الصلاة ، ولقد جاء الجواب مؤكداً
باللام وقد (لقد هممت) زيادة في التهديد والوعيد ، ولقد كان للتعبير
بثم دون غيرها من حروف العطف دلالة البلاغية ، وكأنه — صلى الله
عليه وسلم — سيعطى المهلة والفرصة لمن كان مثلاً بعيد الدار عن
المسجد ، أو كان مشغولاً بشئ حتى يقطع العذر على المتخلفين ، ثم بعد
هذا يأتى العقاب السريع والأليم ، ومن هنا جاء التعبير بالفاء (فأحرق
عليهم بيوتهم) وسيكون العقاب أليماً ، لأنه — صلى الله عليه وسلم —

(١) رواه البخارى في صحيحه كتاب الأذان باب وجوب صلاة الجماعة وباب فضل العشاء وكتاب
الأحكام باب إخراج الخصوم وأهل الريب من البيوت بعد المعرفة ، والعرق : العظم أخذ عنه معظم اللحم
، وبقي عليه لحوم رقيقة طيبة والجمع عراق ، والمرماتين : تشبة مرماة ، وهى سهم صغير ضعيف ، أو سهم
يتعلم به الرمى والظلف والجمع مرام (يراجع الوسيط مادتي (ع ر ق) و (ر م ي) .

قال : أحرق بالتشديد دون أحرق بالتخفيف لدلالة الأولى على التكثر ،
يقال : حرّقه إذا بالغ في تحريقه .

وللمبالغة في التهديد والوعيد أعاد — صلى الله عليه وسلم —
اليمين مرة ثانية

(والذى نفسى بيده لو يعلم أحدهم . . .) وجاء المقسم عليه : (لو
يعلم أحدهم أنه يجد ...) مبينا قصر همة هؤلاء المتخلفين على الدنيا ، فلو
عنّ لأحدهم حظ يسير من الدنيا كالمرماة أو كالعرق لبادر إليه ، وأتى
المسجد فى أى وقت كان ، إذا كان ذلك الحظ فى المسجد .

في مقام تهينة نفس المخاطبين لقبول الحكم

عن أبي هريرة ، وزيد بن خالد الجهني — رضى الله عنهما — أنهما قالوا: إن رجلا من الأعراب أتى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال: يا رسول الله أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله ، فقال الخصم الآخر: — وهو أفقه منه — نعم فاقض بيننا بكتاب الله وائذن لي ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قل: قال: إن ابني كان عسيفا على هذا فزني بامرأته ، وإني أخبرت أن على ابني الرجم ، فافتديت منه بمائة شاة ووليدة ، فسألت أهل العلم فأخبروني أنما على ابني جلد مائة وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجم ، فقال رسول — صلى الله عليه وسلم — والذى نفسى بيده لأقضين بكتاب الله ، الوليدة والغنم ردّ عليك ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام ، اغد يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها ، قال: فغدا عليها فاعترفت ، فأمر بها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فرُجمت ^(١)

قوله — صلى الله عليه وسلم — "والذى نفسى بيده لأقضين بينكما بكتاب الله" المقصود من القسم هنا إيناس النفس لقبول الحكم ، وهذا مناسب للمقام حيث حكيت للخصمين أحكام في قضيتيهما قبل مجيئهما إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وذلك هو ما دفع الأعرابي إلى القسم على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يحكم بينهما بكتاب الله (أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله)

(١) رواه البخارى في صحيحه كتاب الشروط باب الشروط التى لا تحل في الحدود ورواه مسلم في صحيحه كتاب الحدود باب لا تغريب على امرأة ، ويقتصر على رجم الزاني الثيب ، ولا يجلد قبل الرجم ، وأنيس مصغر أنس ، واختلف فيه في هذا الحديث ، فالمشهور أنه أنيس بن الضحاك الأسلمي ، وكانت المرأة أيضا أسلمية (ينظر العمدة ٢٤ / ٥)

وما أحسن ما علل به الإمام العيني طريق الأعرابي في كلامه بقوله " فإن قلت : ما فائدة هذا ، والنبي — صلى الله عليه وسلم — لا يحكم إلا بكتاب الله ؟ قلت : هذا من خفاء وجه الحكم عليه حين سأل أهل العلم الذين أجابوا بمائة جلدة وتغريب عام ، وهذا من قبيل قول الملكين لداود — عليه السلام — (فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط) (ص / ٢٢) ومن هذا قالوا : يجوز قول الخصم للإمام العادل اقض بيننا بالحق ، على أن النبي — صلى الله عليه وسلم — لم ينكر عليه قوله ذلك " (١)

فللقسم هنا أثر بالغ في تهية نفس المخاطب لقبول الحكم ، وإزالة ما علق بنفسيهما من اللغظ الذي دار في قضيتهما ، فوق أن الخطاب بأسلوب القسم جاء مشاكلا لقسم الأعرابي على رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

(١) عمدة القارى ٢٤ / ٤

في مقام التنزيه

عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : — إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لما قدم أبي أن يدخل البيت ، وفيه الآلهة ، فأمر بها فأخرجت ، فأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأزلام ، فقال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — قاتلهم الله ، أما والله قد علموا أنهما لم يستقسما بها قط ، فدخل البيت فكبر في نواحيه ، ولم يصل فيه " (١)

المقصود من القسم التوكيد على نزاهة سيدنا إبراهيم وإسماعيل — عليهما السلام — مما نسب إليهما ، وتبرئتهما من هذا الرجس ، قال : — تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ)

(المائدة / ٩٠)

يقول الإمام العيني : " قيل الأزلام حصى بيض كانوا يضربون بها ، والاستقسام استفعال من قسم الرزق والحاجات ، وذلك طلب أحدهم بالأزلام على ما قسم له في حاجته التي يلتمسها من نجاح أو حرمان ، وأبطل الرب — تعالى — ذلك ، وأخير أنه فسق لأنهم يستقسمون عند آلهتهم التي يعتقدونها ، ويقولون : يا إلهنا أخرج الحق في ذلك ، ثم يعملون بما خرج فيه فكان ذلك كفرا بالله — تعالى — لإضافتهم ما يكون من ذلك من صواب أو خطأ إلى أنه من قسم آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع ، وأخير الشارع عن إبراهيم وإسماعيل — عليهما السلام — أنهما لم يكونا يفوضان أمورهما إلا إلى الله — تعالى — الذي لا يخفى عليه علم ما كان ،

(١) رواه البخارى في صحيحه كتاب الحج باب من كبر في نواحي الكعبة وكتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله — تعالى — واتخذ الله إبراهيم خليلاً وكتاب المغازى باب أين ركز النبي الراية يوم الفتح .

وما هو كائن ، لأن الآلهة لا تضر ولا تنفع ، ولذلك قال : — صلى الله عليه وسلم — لقد علموا أنهما لم يستقسما بها قط " لأنهم قد علموا أن آباءهم أحدثوها ، وكان فيهم بقية من دين إبراهيم — عليه السلام — منها الختان ، وتحريم ذوات المحارم ، إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين " (١)

وفي قوله : — صلى الله عليه وسلم — قاتلهم الله أما والله قد علموا أنهما لم يستقسما بها قط " مهد لجملة القسم بجملة دعائية (قاتلهم الله) وقد عدل فيها عن الطلب إلى الخبر ؛ إظهارا للرغبة في تحقيق المطلوب ، وتأكيذا لكذبهم فيما افتروا به على النبيين الكريمين .

وسبق القسم أيضا بأما وهي لافتتاح الكلام زيادة تنبيه على ما يأتي بعدها ، ثم جاء القسم بعد ذلك ليكون ذروة تأكيد كذبهم وافترائهم على النبيين الكريمين . ومن بديع الكلام أن جواب القسم جاء بقدر الداخلة على الفعل الماضي (علموا) وفي هذا تحقيق وتوكيد لإثبات كذبهم وبراءة النبيين الكريمين من نسبة ذلك إليهم ، كما أن التعبير بعلم هنا يفيد اليقين في ما ذكره الرسول — صلى الله عليه وسلم — ولو حذفنا هذا الفعل ، وقلنا مثلا : والله لم يستقسما بها قط ، لكان ذلك دالا على أن المشركين لم يتعمدوا الكذب والافتراء ، أما التعبير بعلموا فيدل على أنهم تعمدوا الكذب والافتراء .

وذكر الظرف (قط) زيادة توكيد لبراءة سيدنا إبراهيم وإسماعيل — عليهما السلام — وقد وقع أسلوب القسم في الحديث موقع واسطة العقد ، فقد وقع بين إبطائه — صلى الله عليه وسلم — دخول البيت الحرام وبه الأصنام ، ودخول الكعبة بعد تطهيرها من الرجس والأوثان .

(١) عمدة القارى ٩ / ٢٤٧

الخلاصة

الخاتمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله وبعد
فبعد هذه الرحلة مع الحديث الشريف بأسلوب الإنشاء غير الطلبي انتهت
إلى ما يلى : —

أولا : إن الإنشاء غير الطلبي من الأساليب التى تتسم بوفرة النكات
البلاغية ، وملاءمة الحال ومطابقة المقام .
ثانيا : أن الترجى يقع فى البيان النبوى على الحقيقة وعلى المجاز ، ومن
معانيه المجازية فى البيان النبوى : —

١— الاستفهام .

٢— التحقيق .

٣— الظن .

٤— التعليل .

٥— الدعاء .

ثالثا : أن أسلوب المدح والذم يقعان فى البيان النبوى ملائمين للحال
مطابقين للمقام ، وأن أسلوب المدح يأتي لمقاصد منها :

١— تهدئة الروح .

٢— الترغيب فى الاقتداء .

٣— الحث على معرفة حق الله فى المال .

٤ — التأدب في الشكوى .

ويأتى أسلوب الذم في البيان النبوى لمقاصد منها : —

١ — إظهار الكراهة .

٢ — الترهيب من مقابلة الإحسان بالإساءة .

٣ — الترهيب من ترك دعوة الفقراء عند الولايم .

٤ — ذم الحرص على الإمارة وطلبها .

٥ — تطمين المؤمنين بنصر الله .

خامسا : أن أسلوب التعجب يقع في البيان النبوى لمقاصد منها : —

١ — الإنكار والدهش .

٢ — الحث على تنفيذ المطلوب .

٣ — إظهار الفرح بالبشارة .

٤ — التعبير عن كثرة الاستعاذة .

٥ — التعبير عن كثرة ملابسة المعصية .

٦ — نفى الإنكار .

٧ — التعجب من فعل ابن آدم و أطماعه .

سادسا : أن أسلوب رب من الأساليب التي وقعت بقله في البيان النبوى ،

وأنها تأتى لمقصدين : —

١ — التكثير .

٢ — التقليل .

سابعاً : أن كم الخبرية من الأساليب التي وقعت بقله في البيان النبوى ، وأنها لاتستخدم إلا لقصد التكثير .

ثامناً : أن أسلوب القسم من الأساليب التي كثر وقوعها في البيان النبوى ، وأن المقامات التي يقع فيها متنوعة ، وأنه في كل موقعه كثير الفوائد جم المحاسن لايفى سواه بحق المقام ، ولايلائم غيره الحال ، ومن مقاماته في البيان النبوى فيما تناولته من المواضع ما يلى : —

- ١ — رد الدعوى التي يدعيها المخاطب .
- ٢ — تعظيم الطاعات والحث عليها .
- ٣ — تطيب نفس المخاطب .
- ٤ — البشارة .
- ٥ — الزجر والمنع .
- ٦ — بيان فضل بعض الصحابة .
- ٧ — مواجهة الشك والإنكار .
- ٨ — التحذير والتخويف .
- ٩ — التأديب .
- ١٠ — الإخبار بالغيبات .
- ١١ — الترغيب والتشويق .
- ١٢ — تهيئة نفوس المخاطبين لقبول الحكم .
- ١٣ — التهديد والوعيد .

١٤ — تأكيد التحريم .

١٥ — التنزيه .

هذا وقد بذلت في كل موضع وسعى ، واجتهدت على قدر طاقتي ، على قلة الموروث البلاغي في هذا الموضوع نظرية وتطبيقا ، فأن الله أسأل أن يتقبل مني ما أصبت فيه ، وأن يتجاوز عني فيما لم يحالفني الصواب فيه ، وأن يجزييني بما هو أهله لا بما أنا أهله ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الفهارس

- . فهرس أساليب الإنشاء غير
- الطلبى فى البيان النبوى .
- . فهرس المصادر والمراجع .
- . فهرس الموضوعات .

فهرس أساليب الإنشاء غير الطلبي في البيان النبوي

أولاً: أسلوب الترجي

الصفحة	أ — عسى
	١. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — وعسى
٨٨	الله أن يرفعك فينتفع بك ناس ويضربك آخرون . . .
	٢. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — وعسى أن يكون
٥٠	خييراً التمسوها في السبع والتسع والخمس . . .
	٣. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — فجدى نخلك فإنك
٥٦	عسى أن تصدق أو تفعل معروفاً . . .
	٤. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — ما عندنا ما نعطيك
٥٨	ولكن عسى أن نبعثك في بعث تصيب منه . . .
	٥. قال المسور قال أبي مخزومة : انطلق بنا إليه عسى أن يعطينا
٥٦	منها شيئاً.

ب — لعل

١. قال الله: — تعالى — في الحديث القدسي (لعل إن أعطيتها
--

سألتنى غيرها

٧٢

٢. قال الله: — تعالى — فى الحديث القدسى (لعلنى إن أدنيتك

منها تسألنى غيرها

٧٣

٣. قال رسول الله: — صلى الله عليه وسلم — لعلك آذاك هوامك ؟ ٦٠

٤. قال رسول الله: — صلى الله عليه وسلم — لعل ذاك يسوءك ؟ ٦٢

٥. قال رسول الله: — صلى الله عليه وسلم — لعلنا أعجلناك ؟ . . ٦٥

٦. قال رسول الله: — صلى الله عليه وسلم — لعلك تريد أن

ترجعى إلى رفاعه؟

٦٦

٧. قال رسول الله: — صلى الله عليه وسلم — لعله يريد أن يلم بها؟ ٦٧

٨. قال رسول الله: — صلى الله عليه وسلم — لعل أم سليم ولدت؟ ٧١

٩. قال رسول الله: — صلى الله عليه وسلم — لعلك قبلت أو غمرت

أو نظرت ؟

٧٥

١٠. قال رسول الله: — صلى الله عليه وسلم — فلعلك ؟ قال : لا

والله إنه قد زنى الآخر

٧٥

١١. قال رسول الله: — صلى الله عليه وسلم — لعلها حابستنا ؟ ٨٠

١٢. قال رسول الله: — صلى الله عليه وسلم — لعلك نفست ؟ . ٨٢

١٣. قال رسول الله: — صلى الله عليه وسلم — ولعل الله أن يصلح

به بين فئتين من المسلمين

٨٣

١٤. قال رسول الله: — صلى الله عليه وسلم — لعله تنفعه شفاعتى

- يوم القيامة . ٨٣
١٥. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — فلعله أن يضاجعها
من آخر يومه . ٨٥
١٦. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — فلعل بعضكم أن
يكون أبلغ من بعض . ٨٦
١٧. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — فلعل ابنك هذا
نزعه عرق . ٨٩
١٨. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — إنكم لا تدرون
لعلكم أن تبتلوا . ٩٠
١٩. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — لعل الله اطلع على
أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة . ٩٥
٢٠. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — لعلكم لو لم تفعلوا
كان خيرا . ٩٧
٢١. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — هريقوا على من
سبع قرب لعلى أعهد إلى الناس . . . ١٠١
٢٢. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — لعل الله أن يبارك
لكما في ليلتكما . . ١٠٥
٢٣. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — ألا فليبلغ
الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض

- ٤٢ من سمعه . . .
٢٤. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — إن الله
- ٤٣ — تعالى — يعرض بالخمر ولعل الله سائرل فيها أمرا .
٢٥. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — قال : لا ،
- ٤٨ لعله أن يكون يصلى .
٢٦. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — فإن أحدكم إذا
- ٤٩ صلى وهو ناعس لا يدري لعله يستغفر فيسب نفسه
٢٧. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — ولا يتمنين
- أحدكم الموت إما محسنا فلعله أن يزداد خيرا وإما مسينا
- ٥٢ فلعله أن يستعتب . . .
٢٨. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — لا يشير أحدكم
- ٥٣ على أخيه بالسلاح فإنه لا يدري لعل الشيطان يترع في يده
٢٩. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — لا أدري لعله
- ٥٥ من القرون التي مسخت .
٣٠. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — فلا أدري لعل
- ٥٥ هذا منها فليست أكلها ولا أهى عنها . . .
٣١. قال أبو بكر: — رضى الله عنه — لعلك وجدت على حين
- ٦٣ عرضت على حفصة فلم أرجع إليك شيئا . . .

٣٢. قال عمر : — رضى الله عنه — فلو أنه فتح لعله كان يعاد . ٦٩
٣٣. قال عبد الله بن عمر — رضى الله عنه — لعلك من الذين
يصلون على أوراكهم ٧٩
٣٤. قال عثمان بن عفان : — رضى الله عنه — ألا نزوجك يا أبا
عبد الرحمن جارية بكرا لعله يرجع إليك من نفسك ما كنت تعهد ٥٩
٣٥. قال جابر بن عبد الله : — رضى الله عنه — لعل رسول الله —
صلى الله عليه وسلم — وجد على أن أبطأت عليه . . . ٩٨
٣٦. قال أبو شعيب : — رضى الله عنه — اصنع لى طعام خمسة
لعلى أدعو النبى — صلى الله عليه وسلم — خامس خمسة ١٠٠
٣٧. قال عبد الله بن عتيك : — رضى الله عنه — اجلسوا مكانكم
فإني منطلق ومتلطف للبواب لعلى أن أدخل . . . ١٠٢
٣٨. قال أبو السنابل : — رضى الله عنه — مالى أراك متجملة
لعلك ترجين النكاح ٧٨
٣٩. قال ضماد من أزد شنوءة : لعل الله يشفيه على يدى . ٤٥
٤٠. قالت الغامدية — رضى الله عنها — لعلك أن تردنى كما
رددت ماعزا فوالله إني لحبلى ٧٦
٤١. قال ذو كلاع وذو عمرو : أخير صاحبك أنا قد جئنا ،
ولعلنا سنعود إن شاء الله . ٤٦
٤٢. قال رجل ممن قبلنا : إذا أتيت معسرا فتجاوز عنه لعل الله أن

يتجاوز عنا . ٤٧

٤٣. قال زيد بن عمرو بن نفيل : إني لعلی أن أدين دينكم فأخبرني ٥٢

ثانيا : أسلوب المدح

١. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — نعم الرجل

عبد الله لو أنه كان يصلي . ١١٦

٢. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — فإنه نعم السلف

أنا لك ١١٩

٣. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — فنعمة صاحب المسلم

ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل . ١٢٠

٤. قالت امرأة عبد الله بن عمرو بن العاص : — رضى الله عنهم —

نعم الرجل من رجل لم يظأ لنا فراشا ولم يفتش لنا

كنفا مذ أتيناها ١٢٢

ثالثا : أسلوب الذم

١. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — ائذنوا له فلبئس ابن

العشيرة ، أو بئس رجل العشيرة ١٢٥

٢. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — بئسما جزتها نذرت لله إن

نجأها الله عليها لتتحرثها . ١٢٧

٣. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — فنعمة المرضعة وبئست

الفاطمة . ١٢٩

٤. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — إنا إذا نزلنا بساحة قوم
فساء صباح المنذرين
١٣١
٥. قال أبو هريرة — رضى الله عنه — بثس الطعام طعام الوليمة يدعى
إليه الأغنياء ويترك المساكين .
١٢٨

رابعاً : أسلوب التعجب

١. قال الله: — تعالى — في الحديث القدسي الجليل ويحك يا ابن آدم ما أغدرك . . ١٤٤
٢. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — سبحان الله لا تطيقه أو لا تستطيعه ١٤٨
٣. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — سبحان الله تطهرى ١٤٩
٤. قالت أم المؤمنين عائشة : — رضى الله عنها — ما أسرع ما نسى الناس . . . ١٤١
٥. قال عقبة بن عامر : — رضى الله عنه — ما أجود هذه . . . ١٣٧
٦. قالت بنت أنس بن مالك : — رضى الله عنهما — ما أقل حياءها ١٣٤
٧. قال رجل من الصحابة : ما أحسن هذه فاكسنيها . . . ١٣٦
٨. قال رجل من الصحابة : ما أكثر ما تستعيز من المغرم يارسول الله . . ١٣٨
٩. قال رجل من الصحابة : ما أكثر ما يؤتى به . . . ١٤٠

خامساً : أسلوب رب

١. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — فرب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة ١٥٢
٢. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — فرب مبلغ أوعى ١٥٢

- من سامع . . ١٥٤
٣. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — رب أشعث
مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره . . . ١٥٦

سادسا : أسلوب كم

١. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — كم من كاسية في الدنيا
عارية يوم القيامة ١٥٨
٢. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — كم من عذق في الجنة
لابن الدحاح ١٥٩

سابعاً : أسلوب القسم

١. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — والذي نفس محمد بيده لا يسمع أحد بي من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار ١٦٧
٢. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — احسأوا فيها والله لا تخلفكم فيها أبدا . . . ١٧٥
٣. قالت امرأة رفاعة القرظى : والله ما لى إليه من ذنب إلا أن ما معه ليس بأغنى من هذه . . ١٧٧
٤. قال عبد الرحمن بن الزبير : والله يا رسول الله إني لأنفضها نفض الأديم ولكنها ناشز تريد رفاعة ١٧٧
٥. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — فوالله لهم أشبه به من الغراب بالغراب . . . ١٧٧
٦. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — والله ما صليتها . ١٨١
٧. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك . . ١٨٢
٨. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — وأنا والذي نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما . . . ١٨٤
٩. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — والذي نفسى بيده لتسألن عن هذا النعيم . . ١٨٥

١٠. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون . ١٨٧
١١. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن ١٨٩
١٢. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به . ١٩١
١٣. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — فوالله إني لأعطي الرجل وأدع الرجل ١٩٣
١٤. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ١٩٥
١٥. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره — أو قال لأخيه — ما يحب لنفسه . . ١٩٧
١٦. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — فوالذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده . ١٩٩
١٧. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم أحبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتي رجلا فيسأله أعطاه أو منعه ٢٠٢

١٨. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم ٢٠٤
١٩. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — أما والله لله أشد فرحا بتوبة عبده من الرجل براحلته ٢٠٦
٢٠. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — والذي نفسى بيده إنى لأطمع أن تكونوا ربع أهل الجنة . . . ٢٠٩
٢١. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — والذي نفسى بيده إنى لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة . . . ٢٠٩
٢٢. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — والذي نفسى بيده إنى لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة . . . ٢٠٩
٢٣. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — وأيضا والذي نفسى بيده ٢١١
٢٤. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — وإنها والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله — عز وجل — عند رجل واحد أبدا ٢١٤

٢٥. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — أما والله إني لأخشاكم وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلى . . . ٢١٦
٢٦. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — فوالله لا يمل الله حتى تملوا . ٢١٧
٢٧. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — أما والله لو تمادى الشهر لواصلت وصالا يدع المتعمقون تعمقهم .. ٢٢٠
٢٨. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — فوالله لأنا أغير منه والله أغير مني ٢٢١
٢٩. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — لا . أيم الله لا تصاحبنا راحلة عليها لعنة من الله . . . ٢٢٤
٣٠. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — فوالذى نفسى بيده إنهم لأخير منهم . . . ٢٢٦
٣١. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — والذى نفسى بيده لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم . . ٢٢٨
٣٢. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — وأيم الله إن كان لخليقا للإمارة ، وإن كان لمن أحب الناس إلى . . . ٢٣٠
٣٣. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم . . . ٢٣١

٣٤. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — فوالله الذى لا إله إلا هو
 إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقا ، وأنى جئتكم بحق ٢٣٤
٣٥. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — وأيم الله لو أن فاطمة
 بنت محمد سرقت لقطعت يدها . . . ٢٣٧
٣٦. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — والذى نفسى بيده لا
 يأخذ أحد منه شيئا إلا جاء يوم القيامة يحمله على رقبتة . . . ٢٣٩
٣٧. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — فوالله لا الفقر أخشى
 عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على
 من كان قبلكم . . . ٢٤٣
٣٨. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — فوالله ما يخفى على
 خشوعكم ولا ركوعكم إني لأراكم من وراء ظهري . . . ٢٤٤
٣٩. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — يا أمة محمد والله ما من
 أحد أغير من الله أن يزين عبده أو تزني أمته . . . ٢٤٦
٤٠. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — والذى نفسى بيده أو
 والله الذى لا إله غيره ، أو كما حلف ما من رجل تكون له إبل أو بقرة أو
 غنم لا يؤدى حقها إلا أتى بها يوم القيامة أعظم ما تكون وأسمنه تطؤه
 بأخفافها وتنطحه بقرونها . . . ٢٤٩
٤١. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — والذى نفسى بيده لا
 يخرج منهم أحد رغبة عنها إلا أخلف الله فيها خيرا منه . . . ٢٥٠

٤٢. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم ٢٥٢

٤٣. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — والذي نفس محمد بيده إن مناديل سعد بن معاذ أحسن من هذا . . . ٢٥٤

٤٤. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — والذي نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك . . . ٢٥٦

٤٥. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — لا تسبوا أصحابي فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك أحد مد أحد ولا نصيفه ٢٥٨

٤٦. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — لا تؤذيني فى عائشة ، فإنه والله ما نزل على الوحى ، وأنا فى لحاف امرأة منكن غيرها ٢٦١

٤٧. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — والله لا أحملكم وما عندى ما أحملكم . . . ٢٦٣

٤٨. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — وإني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيت الذى هو خير منها وتحللتها . . . ٢٦٣

٤٩. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — والذي نفس محمد بيده لآتيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبه . . . ٢٦٥

٥٠. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — والذي نفسى بيده لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه ويقول ياليتنى كنت مكان صاحب هذا القبر . . .
٢٦٧

٥١. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — والذي نفسى بيده ليوشكن أن يترل فيكم ابن مريم حكما مقسطا . . .
٢٦٨

٥٢. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — والله لا ألبسه أبدا ٢٧٠

٥٣. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — والذي نفسى بيده لقد هممت أن أمر بحطب فيحطب ثم أمر بالصلاة فيؤذن لها ، ثم أمر رجلا فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم . . .
٢٧٢

٥٤. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — والذي نفسى بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقا سمينا أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء ٢٧٢

٥٥. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — والذي نفسى بيده لأقضين بكتاب الله . . .
٢٧٤

٥٦. قال رسول الله : — صلى الله عليه وسلم — أما والله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها قط .
٢٧٦

فهرس المصادر والمراجع

١. إتحاف السادة المتقين للزبيدي ط بيروت دون تاريخ .
٢. أسرار العربية لابن الأنبارى تحقيق محمد بهجة البيطار ط الترقى بدمشق ١٣٧٧ هـ .
٣. أساس البلاغة للإمام الزمخشري تحقيق عبد الرحيم محمود ط بيروت ١٩٨٢ م .
٤. أساليب بلاغية د/ أحمد مطلوب ط الكويت ١٩٨٠ م .
٥. أقباس من الهدى النبوى للدكتور محمد الأمين الخضرى نشر المؤلف دون دار نشر ودون تاريخ .
٦. أوضح المسالك إلى ألفية بن مالك للإمام ابن هشام تحقيق الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد ط المكتبة العصرية بيروت دون تاريخ.
٧. ارتشاف الضرب من كلام العرب لأبى حيان تحقيق دكتور / رجب عثمان ط الخانجي ١٩٩٨ م .
٨. اللآلئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة للإمام السيوطى ط دار الكتاب العربى بمصر دون تاريخ .
٩. إلتقان فى علوم القرآن للسيوطى ط مصطفى الحلبي ١٩٨٧ م .
١٠. الأحكام النبوية فى الصناعة الطبية للكحال ط الحلبي دون تاريخ .
١١. الأسرار المرفوعة لعلى القارى ط مؤسسة الرسالة دون تاريخ .

١٢. الإشارات والتنبيهات لمحمد بن علي الجرجاني تحقيق دكتور عبد القادر حسين ط دار نهضة مصر دون تاريخ .
١٣. الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز للعز بن عبد السلام ط دار الحديث دون تاريخ .
١٤. الأطول للعصام ط المطبعة السلطانية دون تاريخ .
١٥. الإنصاف في مسائل الخلاف لابن الأنباري تحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد ط بيروت ١٤٠٧ هـ .
١٦. بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعدي ط مكتبة الآداب دون تاريخ .
١٧. بلاغة الرسول دكتور علي محمد حسن العماري ط دار الأنصار دون تاريخ .
١٨. البحر المحيط لأبي حيان ط دار الفكر ١٣٩٨ هـ .
١٩. البداية والنهاية للإمام ابن كثير ط دار الفكر دون تاريخ .
٢٠. البرهان في علوم القرآن للزركشي تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ط دار التراث دون تاريخ .
٢١. البلاغة فنونها وأفنائها دكتور فضل حسن عباس ط دار الفرقان الأردن ١٩٨٩ م .
٢٢. البلاغة الاصطلاحية دكتور عبده عبد العزيز قلقيلة ط دار الفكر ١٩٩١ م .

٢٣. البيان النبوى دكتور محمد رجب البيومى ط دار الوفاء بالمنصورة
دون تاريخ .

٢٤. البيان فى روائع القرآن دكتور تمام حسان ط عالم الكتب ١٩٩٣ م

٢٥. تقرير الأجهورى على حاشية الباجورى على متن السمرقندية ط
الخيرية ١٣٩٣ هـ .

٢٦. تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ط بيروت دون تاريخ .

٢٧. تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي ط دار الكتاب العربى بيروت
١٩٩٠ م.

٢٨. تلخيص التحرير لابن حجر ط الفنية الجديدة دون تاريخ .

٢٩. تاريخ الطبرى ط دار المعارف .

٣٠. تذكرة الموضوعات للفتنى ط بيروت دون تاريخ .

٣١. تاريخ آداب العرب للعلامة مصطفى صادق الرافعى ط بيروت
١٩٧٤ م .

٣٢. التبيان فى المعانى والبديع والبيان للطيب تحقيق دكتور/هادى عطية
مطر الهلالى ط عالم الكتب ١٩٨٧ م .

٣٣. الترجى فى آى من الذكر الحكيم دكتور إبراهيم صلاح الهدهد
بحث منشور بحولية كلية اللغة العربية بالقاهرة — جامعة الأزهر
١٩٩٧ م .

٣٤. جمع الجوامع للإمام السيوطى ط مجمع البحوث الإسلامية بمصر .

٣٥. جواهر البلاغة للسيد أحمد الهاشمي ط دار الكتب العلمية السادسة
٣٦. الجامع الصحيح للترمذي تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ط دار الكتب العلمية بيروت دون تاريخ .
٣٧. حاشية الدسوقي على مختصر السعد مطبوع ضمن شروح التلخيص ط دار السعادة بمصر ١٣٤٢ هـ .
٣٨. حاشية الشيخ خالد على مغني اللبيب ط عيسى الحلبي دون تاريخ
٣٩. خصائص التراكيب دكتور محمد حسنين أبو موسى ط مكتبة وهبة ١٤١٦ هـ .
٤٠. خلاصة المعاني لمحمد بن الحسين المفقي تحقيق دكتور عبد القادر حسين ط الناشرون العرب دون تاريخ .
٤١. دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني تحقيق العلامة محمود محمد شاكر ط الخانجي ١٩٨٤ م .
٤٢. دلالات التراكيب دكتور محمد أبو موسى ط وهبة ١٩٨٧ م .
٤٣. الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة للسيوطي ط دار الفكر .
٤٤. الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ط دار الفكر
٤٥. رصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي تحقيق دكتور أحمد الخراط ط دار القلم بدمشق ١٩٨٥ م .
٤٦. سلسلة الأحاديث الضعيفة لناصر الدين الألباني ط المكتب الإسلامي .

٤٧. سنن الدارمي تحقيق الشيخ محمد عبد العزيز الخالدي ط دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٦
٤٨. سنن النسائي ط دار الريان ١٩٨٧ م .
٤٩. سنن أبي داود ط دار الحديث ١٩٨٨ م .
٥٠. سيرة ابن هشام تحقيق د / عمر عبد السلام تدمري ط دار الكتاب العربي بيروت ١٩٩٣
٥١. شرح صحيح البخاري للكرمانى ط دار إحياء التراث العربي بيروت ١٩٨١ م .
٥٢. شرح صحيح مسلم للإمام النووي ط دار أبي حيان مصر ١٩٩٥
٥٣. شرح صحيح مسلم للأبي المسمى إكمال إكمال المعلم ط مكتبة طبرية بالرياض دون تاريخ .
٥٤. شرح صحيح مسلم للسنوسي على شرح الأبي ط مكتبة طبرية بالرياض دون تاريخ
٥٥. شرح الأشموني ط عيسى الحلبي دون تاريخ .
٥٦. الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ط دار الفكر العربي بيروت دون تاريخ .
٥٧. صحيح البخاري للإمام البخاري ط عيسى الحلبي بمصر .
٥٨. صحيح مسلم للإمام مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ط دار الحديث ١٩٩١ م .

٥٩. الطبقات الكبرى لابن سعد ط التحرير .
٦٠. عدة السالك إلى أوضح المسالك للشيخ محمد محي الدين عبد الحميد ط المكتبة العصرية بيروت دون تاريخ .
٦١. عروس الأفراح لابن السبكي ضمن شروح التلخيص ط دار السعادة بمصر ١٣٤٢ هـ .
٦٢. عمدة القارى شرح صحيح البخارى للعيني ط دار إحياء التراث العربى دون تاريخ
٦٣. علم المعاني دكتور عبد العزيز عتيق ط دار النهضة العربية ١٩٨٥ م
٦٤. علوم البلاغة محمد مصطفى المراغى ط دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٣ م .
٦٥. فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور دكتور/ رجاء عيد ط منشأة المعارف دون تاريخ
٦٦. الفوائد المجموعة للإمام الشوكاني ط مكتبة السنة المحمدية .
٦٧. كشف الخفاء للعجلوني ط مكتبة دار التراث .
٦٨. كثر العمال للمتقى الهندى ط دار التراث الإسلامى .
٦٩. الكتاب لسيبويه تحقيق عبد السلام هارون ط دار الكتب العلمية نشر الخانجي ١٤٠٨ هـ
٧٠. الكامل فى الضعفاء لابن عدى ط دار الفكر .

٧١. الكليات لأبي البقاء الكفوى تحقيق دكتور / عدنان درويش ومحمد المصرى ط مؤسسة الرسالة ١٤١٣ هـ .
٧٢. لسان العرب لابن منظور ط دار المعارف بمصر
٧٣. لطائف المعاني فى ضوء النظم القرآنى دكتور / عبد الله هندأوى ط الأمانة ١٩٨٧ م
٧٤. اللغة العربية مبناها ومعناها دكتور / تمام حسان ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ م.
٧٥. اللمع فى العربية لابن جنى تحقيق حامد المؤمن ط النهضة المصرية ١٩٨٥ م
٧٦. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى ط القدسى دون تاريخ .
٧٧. محاضرات فى علم المعانى دكتور محمد الخضرى وآخرون مذكرة جامعة دون تاريخ ودون دار نشر .
٧٨. مختصر السعد لسعد الدين التفتازانى مطبوع ضمن شروح التلخيص ط دار السعادة بمصر ١٣٤٢ هـ .
٧٩. مختار الصحاح للرازى تقديم دكتور / عبد الفتاح البركاوى ط دار المنار دون تاريخ .
٨٠. مسند الإمام أحمد بن حنبل ط دار الفكر دون تاريخ .
٨١. مسند الربيع بن حبيب ط مكتبة الثقافة سلطنة عمان .

٨٢. معاني التراكيب دكتور / عبد الفتاح لاشين ط المطبعة الإسلامية
دون تاريخ
٨٣. مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام تحقيق محمد محيى
الدين عبد الحميد ط المكتبة العصرية بيروت ١٩٨٧ م .
٨٤. مفتاح العلوم لأبى يعقوب يوسف السكاكى ط الحلبي .
٨٥. المفهم لما أشكل من صحيح مسلم للإمام للقرطبي تحقيق محيى الدين
ديب مستو ط دار ابن كثير ١٩٩٦ م .
٨٦. مقاييس اللغة لابن فارس تحقيق عبد السلام هارون ط دار الجليل
بيروت .
٨٧. من أساليب القرآن دكتور / إبراهيم السامرائى ط دار الفرقان
بالأردن ١٩٨٣ م .
٨٨. من أسرار البيان النبوى دكتور / أحمد محمد على ط دار الصحوة
دون تاريخ .
٨٩. موسوعة أطراف الحديث الشريف لمحمد السعيد زغلول ط دار
الكتب العلمية بيروت دون تاريخ .
٩٠. مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي مطبوع ضمن شروح التلخيص
ط دار السعادة بمصر ١٣٤٢ هـ .
٩١. ميزان الاعتدال للحافظ الذهبي ط عيسى الحلبي .

٩٢. المختار من كنوز السنة دكتور / محمد عبد الله دراز ط دار
الأنصار ١٣٩٨ هـ .
٩٣. المصباح في المعاني والبيان والبديع لابن مالك تحقيق دكتور /
حسنى عبد الجليل ط مكتبة الآداب دون تاريخ .
٩٤. المطالب العالية لابن حجر ط التراث الإسلامى .
٩٥. المطول لسعد الدين التفتازانى ط تركيا دون تاريخ .
٩٦. المعجم الكبير للطبراني ط العراق .
٩٧. المعجم الوسيط إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة
٩٨. المعاني في ضوء أساليب القرآن دكتور / عبد الفتاح لاشين ط دار
المعارف ١٩٧٧ م.
٩٩. المغازى للواقدي تحقيق د/ مارسدن جونسن ط عالم الكتب بيروت
١٩٨٤ م .
١٠٠. المغنى عن حمل الأسفار للحافظ العراقي ط عيسى الحلبي دون
تاريخ .
١٠١. المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني تحقيق محمد سيد
كيلاني ط مصطفى الحلبي ١٩٦١ م .
١٠٢. النحو الوافي دكتور / عباس حسن ط دار المعارف الرابعة .
١٠٣. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي ط دار
الكتب العلمية بيروت ١٤١٥ هـ .

١٠٤. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير تحقيق دكتور محمود
الطناحي وآخر ط دار إحياء التراث العربي دون تاريخ .

=====

==

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
التمهيد	(١١ : ٣٧)
البلاغة النبوية	١٢
الألفاظ	١٤
المعاني	١٤
الأسلوب	١٥
أهم مميزاتها	١٥
الإيجاز	١٥
الابتكار	١٦
مطابقة كلامه مقتضى الحال	١٨
انقسام الكلام إلى خبر و إنشاء	١٩
أقسام الأسلوب الإنشائي	٢٠
عدم عناية البلاغيين بالإنشاء غير الطلبي	٢١
أنواع الإنشاء غير الطلبي	٢٤
أولا : أسلوب المدح والذم	٢٤
ثانيا : رب	٢٦

٢٧	ثالثا : كم الخبرية
٢٩	رابعا : فعلا التعجب
٣١	خامسا : الترجى
٣٥	سادسا : صيغ العقود والقسم وبعض أفعال المقاربة
٣٦	الخلاصة
(١٠٦ : ٣٨)	الفصل الأول (الترجى)
٣٩	توطئة
٤٢	الترجى فى معناه الحقيقى
٦٠	الترجى فى معانيه المجازية
٦٠	أولا : الاستفهام
٨٣	ثانيا : التحقيق
٩٧	ثالثا : خروج لعل إلى الظن
١٠٠	رابعا : التعليل
١٠٥	خامسا : الدعاء
	الفصل الثانى (أسلوب المدح والذم ، وأسلوب التعجب ،
(١٠٧ : ١٦٠)	وأسلوب رب وأسلوب كم)
١٠٨	أسلوب المدح والذم فى البيان النبوى
١٠٨	أركان هذا الأسلوب
١٠٨	خلاف النحاة فى نعم وبئس

- أولا : البصريون ١٠٨
- ثانيا : الكوفيون ١٠٨
- موقف البصريين من رأى الكوفيين ١٠٩
- لطائف فى خلو نعم وبئس من الدلالة الزمانية ١٠٩
- أنواع فاعل نعم وبئس ١١١
- المختص بالمدح والذم ١١٢
- إعراب المختص ١١٣
- الأفعال الجارية مجرى نعم وبئس ١١٤
- المزايا العامة لأسلوب المدح والذم ١١٤
- من مواقع أسلوب المدح والذم فى البيان النبوى الشريف ١١٥
- أولا : أسلوب المدح ١١٦
- أولا : تهدئة الروح ١١٦
- ثانيا : الترغيب والاقتداء ١١٨
- ثالثا : الحث على معرفة حق الله فى المال ١٢٠
- رابعا : التأدب فى الشكوى ١٢٢
- ثانيا : أسلوب الذم ١٢٥
- أولا : إظهار الكراهة ١٢٥
- ثانيا : التهيب من مقابلة الإحسان بالإساءة ١٢٦
- ثالثا : التهيب من ترك دعوة الفقراء عند الولايم ١٢٨

- ١٢٩ رابعا : ذم الحرص على الإمارة وطلبها
- ١٣٠ خامسا : تطمين المؤمنين بنصر الله
- ١٣٣ أسلوب التعجب
- ١٣٤ من مواقع أسلوب التعجب في البيان النبوي
- ١٣٤ أولا : الصيغ القياسية
- ١٣٤ أولا : الإنكار والدهش
- ١٣٦ ثانيا : الحث على تنفيذ المطلوب
- ١٣٧ ثالثا : إظهار الفرح بالبشارة
- ١٣٨ رابعا : التعبير عن كثرة الاستعاذة
- ١٣٩ خامسا : التعبير عن كثرة ملابسة المعصية
- ١٤١ سادسا : نفى الإنكار
- ١٤٢ سابعا : التعجيب من فعل ابن آدم وأطماعه
- ١٤٦ ثانيا : الأساليب السماعية
- ١٥١ أسلوب رب
- ١٥٢ من مواقع رب في البيان النبوي الشريف
- ١٥٢ أولا : إظهار التكثير
- ١٥٤ ثانيا : إظهار التقليل
- ١٥٨ كم الخيرية
- ١٥٨ كم في البيان النبوي الشريف

الفصل الثالث : القسم ومواقعه في البيان النبوى (١٦١ : ٢٧٨)

١٦٢	توطئة
١٧٦	مواقع القسم في البيان النبوى
١٦٧	في مقام رد الدعوى التى يدعيها المخاطب
١٨١	في مقام تطيب نفس المخاطب
١٩٥	في مقام تعظيم الطاعات والحث عليها
٢٠٩	في مقام البشارة
٢١٤	في مقام الزجر والمنع
٢٢٦	في مقام مواجهة الشك والإنكار
٢٣٧	في مقام التحذير والتخويف
٢٥٤	في مقام بيان فضل بعض الصحابة
٢٦٣	في مقام التأديب
٢٦٥	في مقام الترغيب والتشويق
٢٦٧	القسم في مقام الإخبار بالغيب والأمور المستقبلية
٢٧٠	في مقام تأكيد التحريم
٢٧٢	في مقام التهديد والوعيد
٢٧٤	في مقام تهمة نفوس المخاطبين لقبول الحكم
٢٧٦	في مقام التنزيه
٢٧٩	الخاتمة

٢٨٥	فهرس أساليب الإنشاء غير الطلى فى البىان النبوى
٢٨٥	عسى
٢٨٥	لعل
٢٩٠	أسلوب المدح
٢٩٠	أسلوب الذم
٢٩٢	أسلوب التعجب
٢٩٢	أسلوب رب
٢٩٣	أسلوب كم
٢٩٤	أسلوب القسم
٣٠١	المصادر والمراجع
٣١١	فهرس الموضوعات

=====

=====

=====